ألان نادو

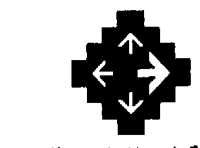
عَبَدة الصّفر

ترجمة: س. البستاني و أ. البطراوي

دار شرقيات للنشر و التوزيع

عبَدَة الصفر ..
سعيٌ إلى المستحيل

من خلال وثائق تنبني عليها
هذه الرواية يتكشف لنا تاريخ
جماعة فيثاغورس ، التى
آمنت على مدار ألف عام
بمعتقده في الأعداد . تنقلنا تلك
الوثائق تباعاً من قمم الزهد
إلى مرارة العذاب والاشراق
الروحي ، ومن غمرات الشك
وتمزقاته إلى التصميم على
بلوغ اليقين ، والوصول إلى
لب الأشياء ، ملتمسة الأعداد
شواهد على العالم الباطني
للوجود ، العالم الذى يَنْظُمُ
وينسِّقُ كل مافي الحياة .
«عبَدَة الصفر» ، رحلة من
رحلات الإنسان المستمرة إلى
المستحيل.



دار شرقيات للنشر والتوزيع

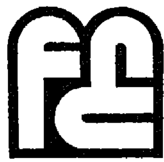
هذه ترجمة لرواية
Archéologie du zéro
تأليف
Alain Nadaud
الناشر
Éditions Denoël, 1984

الطبعة العربية الأولى

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع صدقى ، من هدى شعراوى
باب اللوق ـ القاهرة ت ٣٩٣٠٣٣٥

الغلاف والاشراف الفنى على الكتاب :
محيى الدين اللباد

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة



عَبَدة الصّفر

" الصفر ينتمي إلى الوجود لأنه غياب الوجود "

ثيوقريتياس الأفامي

" كيف يكون للسالب علامة ، وللعدم مدلول؟ "

رولان بارت

(١)

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ٠ (٢)

(٣)

(٤)

1 2 3 4 5 6 7 8 9 0 (٥)

(١) الأرقام الهندية (٢) الأرقام العربية (حاصلة من تحريك الأرقام الهندية ربع دورة إلى اليمين)

(٣)و(٤) التحوّل التدريجي للأرقام العربية (٥) نظام الترقيم الغربي

مقدمة

قضيت فترة من عمري في الأسكندرية محاضراً في جامعتها. لم تكن حصص التدريس كثيرة لكن النظام آنذاك كان يحتم علينا المداومة ساعات طويلة في غرفة الأساتذة الواسعة المغبرة القائظة. وهناك تعرفت على الدكتور «وسيم»، ونشأت بيننا صداقة توطدت مع الأيام. كان رجلاً دمث الأخلاق، طليّ اللسان، يتكلم ببطء متخيراً ألفاظه بعناية، مع شبح ابتسامة وشيء من التكلف. وكان مولعاً بالثقافة الفرنسية، إذ درس في جامعة باريس وقدم رسالة دكتوراة عن تيوفيل جوتييه وعلاقاته الوجدانية بمصر.

كان يقطن في ضاحية قريبة، وطالما حدثني بما طبع به من أنس وبشاشة عن مشروع توسيع الڤيلا القديمة التي ورثها، وعن فكرة تراوده لتأهيل قبوها للسكن. كان هذا القبو عبارة عن تجويف مظلم، يستند في أحد جوانبه إلى حاجز صخري، تراكم فيه منذ أجيال خليط عجيب من حطام أثاث عتيق وملابس بالية عفا عليها الزمن، كدست في صناديق مغبرة، وطائفة من الأشياء القديمة الرثة. وكان الدكتور «وسيم» يعتزم تحويل المكان إلى غرفة مريحة منعشة يأوى إليها هرباً من لهيب الصيف. وراح يحدثني كل يوم عن تطورات مشروعه هذا وتقدم الأعمال فيه، ويلح عليّ بزيارته للإستئناس برأيي.

سئمت في نهاية الأمر هذا الحديث وانصرف همي إلى التهرب منه، إلى أن جاء يوم، بينما كنت أجتاز الحديقة مغادراً الجامعة أقاوم الريح العاتية التي كانت تعصف يوم ذاك، تلوي سعف النخيل وتنثر أوراق الشجر، رأيته يلحق بي لاهثاً منفوش الشعر متأبطاً حقيبته الملازمة له أبداً، وبادرني قائلاً :

- إني آسف لإلحاحي ولكن لا بد لك من مرافقتي إلى البيت، فقد جدّ أمر مدهش لا أستطيع أن أفصح به هنا. ما رأيك، وقد انتهيت من عملك، أن تأتي معي نتناول طعام العشاء ثم أصطحبك إلى منزلك ؟

تعذر علي أن أرد دعوته فركبنا سيارته، وكانت مخلّعة هرئة يئس من إصلاحها، ينفتح بابها في المنعطفات مما اضطرني إلى التشبث به بكل قواي طوال الطريق، مخرجاً مرفقي من النافذة خشية السقوط. ازدادت علامات القلق والاضطراب على وجهه مع اقترابنا من المنزل، وكان يقود بعنف وعصبية ضاغطاً على الكلكس بلا هوادة، متسللاً بسرعة بين الناقلات المكتظة، يُداهم راكبي الدراجات والمشاة فيستدير هؤلاء نحوه يرشقونه بالشتائم.

عندما وصلنا إلى الڤيلا، فتح البوابة الحديدية الضخمة بيدين مرتعشتين واستوقفني عند المدخل قائلاً :

- اسمع يا صديقي! أنت غريب هنا لكن ثقتي بك تفوق ثقتي بأي قريب. فأنت تعرف مصر تماماً، وأعلم أنك مهتم بتاريخ هذه المدينة وماضيها، حتى أنك تعتزم الكتابة عنها، فطالما صادفتك في المكتبة الجامعية. ومع ذلك أطلب منك أن تقسم لي بأنك لن تبوح لأحد بما سترى.

أجبت مطلبه ونزلنا مباشرة إلى القبو. وجدناه في حالة عجيبة من الفوضى، إذ نكشت أرضيته في عدة أماكن، واصطف إلى الحائط رتل من المعاول والمجارف، وتراكمت في ركن مجموعة من تلك القفف المستديرة التي ينقل فيها العمال المصريون الأتربة منذ آلاف السنين، وثبتت الجدران بدعائم خشبية أضفت على المكان اتساعاً جديدا.

كان المصباح يرتعش في يد الدكتور وسيم مرسلاً أضواء متراقصة على الجدران في امتداد القبو. قال: باشر العمال الحفر هنا بناء على تعليماتي. كنت كل مساء أتفقد تقدم الأشغال، أتأكد أن الأمور تسير على ما يرام. وأكثر ما كنت أخشاه أن نصادف حاجزاً صخرياً يمنعنا من مواصلة الحفريات. وذات يوم، بينما كنت أزيل التراب لسبر الحائط فإذ بي أكتشف هذا....

تقدمنا بحذر إلى نهاية القبو وقد أحنينا ظهرينا لئلا نصطدم بالسقف، وإذ بنا نشتم رائحة قوية نفاذة، مزيج من الرطوبة والعفونة. وضع الدكتور «وسيم» مصباحه أرضاً وجثم على ركبتيه يزيح التراب بعناية بكلتا يديه حول بقعة محددة، فظهرت بعض عناصر بناء: حجران ناصعان منحوتان بحذق ومتطابقان تماما.

- رخام !!

انكفأت على الأرض بدوري أساعده على دفع التراب الذي كان يميل لضيق المكان إلى ردم الحفرة. هنا توقف عن العمل ونظر إليّ ملياً ثم قال:

- أتفهمني الآن ؟.. عندما رأيت هذا أوقفت الأعمال فوراً وصرفت العمال. دفعت لهم أجرهم كاملاً، متذرعاً بأني أخشى إن تابعت الحفريات أن ينهار البناء كله. وحسناً فعلت. فلو واصلوا العمل ساعة أخرى لرأوا ما رأيت ولكان أمري مقضياً، لا شك أننا وقعنا على آثار قديمة، ربما قبة مدفن أو بداية سرداب. لم يكن هناك مجال للتردد. فإما أن أبلغ بالأمر هيئة الآثار وأنت أعلم بما يستتبع ذلك، فهم يبدأون بإقفال البيت ونزع ملكيته وختمه بالشمع الأحمر. ويتوقف التنقيب عندئذ إلى ما لا نهاية بحجة عدم توافر الاعتمادات. وإذا توافرت لسوء الحظ، ربما هدموا البناء كله للكشف عن هذه الآثار. فقد توسعت الأسكندرية توسعاً عشوائياً حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وكثر فيها التنقيب والنهب من قبل الأفراد، بحيث لم تعد هيئة الآثار تسمح بأية حفائر جديدة، وكأنها تنتقم بذلك لكل ما فاتها.

وأما الحل الثاني فهو أن يبتز العمال مني ما يريدون من مال ثمناً لسكوتهم، وفي آخر المطاف يبلغون عني إحدى العصابات المنظمة التي تتاجر بالآثار في الأسكندرية. فثمة

عصابات دولية أنشأت سوقاً سرية للتحف الأثرية، يرسلونها عبر الصحراء الغربية إلى ليبيا ومنها إلى أوروبا بل إلى أمريكا. ولا يسلم من يقع بين أيديهم إذ أنهم يشكلون "مافيا" حقيقية لا ينتهي التعامل معها إلى خير أبداً. فإما أن يعثر عليك قتيلاً على قارعة الطريق، أو غريقاً طافياً قرب رصيف الميناء. والأدهى من هذا وذاك أن تباغتك الشرطة فتتعرض عندئذ للضرب المبرح والسجن المؤبد.

كان يتكلم بصوت خفيض كأنما خشي أن ينصت إلينا أحد، فيتغلغل صوته يمتصه التراب الأسود الرطب. تناولت مجرفة وبدأت أزيل التراب الذي تكدس حول الحفرة، بينما انهمك الدكتور «وسيم» في توسيعها كاشفاً شيئاً فشيئا عما بدا لنا كأنه عقد قبة. ولم نفطن إلى أن الليل قد حلّ إلاّ عندما دعتنا زوجته إلى العشاء وقدمت لنا طشتاً نحاسياً وإبريقاً لنغسل أيدينا، فتناولنا الطعام بسرعة وعدنا إلى استئناف العمل دون أن ننبس ببنت شفة. عكفت بظهر المجرفة أجمع التراب بحذاء الجدران لأفسح ممراً ضيقاً يصل بنا إلى سلم القبو. واتسعت الحفرة بحيث غاص فيها الدكتور وسيم حتى المنكبين، مما حملنا على رصف عدة درجات تيسيراً للنزول والصعود.

كشفنا عن بناء نصف دائري لعله مدخل كهف أو سرداب، مؤلف من كتل حجرية منحوتة ركب بعضها على بعض بحذق، بحيث تراصت وتماسكت بمجرد ضغط وزنها. كان ترتيب هذه العناصر يوحي بأن أساسات الڤيلا قد حفرت من حولها، وأمكن تشييدها دون أن يتبادر إلى أذهان بُنَاتها وجود هذا المدخل الخفي في أسفلها. وسرعان ما أدركنا أننا في طرف دهليز يسقف سلماً يغوص تحت أقدامنا بميل يناهز ٤٥ درجة. غير أن كمية من الكتل الحجرية والدبش اعترضت الطريق، كأنما انْهَار في هذا المكان حائط أو ربما مصلى كان يحمي مدخل السرداب في الماضي.

وبينما كنت أحاول بعناد أن أزحزح الحجارة متسلحاً بقضيب حديدي، انهمك «كمال وسيم» في استخراج التراب بأصابعه لكسب الوقت والوصول بسرعة إلى اكتشاف ما وراءها. كان مضطجعاً على جنبه وقد التوى جذعه وتوارت ذراعه حتى الكتف في الحفرة يحاول دفع يده إلى أقصى ما يستطيع بين الكتل الحجرية. وفجأة ندت عنه صرخة خفيفة جعلتني اترك كل شيء وأهرع إليه. فقد نفذت يده إلى الفراغ وبدأت الصخور تتزحزح ببطء وتتداعى مهددة بالإطباق على ذراعه. تملّص بعد لأي وسحب ذراعه من أسرها، وإذ بتيار يندفع من الفتحة صافقاً بعنف باب القبو المؤدي إلى الطابق الأرضي. ألصقنا وجهينا في مواجهة الفتحة نحاول سبر الظلام، فلم نتبين سوى أنفاس الفراغ وصوت هدير بعيد، وعبق المكان برائحة نفّاذة، مزيج من رطوبة الأقمشة القديمة وأريج العطور الجافة وعفونة التراب.

ولم نستطع توسيع الحفرة بما يكفي للنفاذ منها إلاّ بعد وقت طويل اختلط فيه الليل بالنهار، نأبى التوقف عن العمل قبل معرفة ما وراء هذا الحاجز. ننام ونصحو في مكاننا

فتنتشلنا زوجة الدكتور «وسيم» من انهماكنا لتنبهنا إلى دنو ساعات التدريس، فنهب ذاهلين نغتسل ونرتدي ملابسنا بسرعة لنهرع إلى الجامعة.

وفي النهاية فترت همتنا بعض الشيء، وتعاهدنا على أن ننتظر عطلة نصف السنة الدراسية لكي نستكشف المكان بهدوء. وعندما جاء اليوم الموعود، تزودنا بمصباحين زيتيين ولفة من الحبال وشرعنا في اجتياز الحفرة منبطحين على الأرض. ولما نفذنا إلى الجانب الآخر اصطدمت رأسانا بحنية السقف الذي كان شديد الميل في هذا الموضع، ورأينا من الإرتفاع الشاهق الذي بلغناه سلماً عملاقاً ينحدر مباشرة تحت أقدامنا انحداراً شبه رأسي، ليتوارى بعيداً في الظلام الدامس. ولاحت لنا درجاته في نور المصباح مغطاة بما كنا أزحناه من حجارة وأنقاض لتوسيع الحفرة. ولم يسعنا إلاً أن نتذكر ونحن ننزلق على الحبل لنبلغ أسفل السلم ذلك الهلع المبهم الذي اعتصر قلبينا عندما كنا نسمع صوت الحجارة تهوي على المنحدر، فيقفز بعضها من درجة إلى أخرى مندفعاً إلى جوف الأرض في قرقعة رهيبة يضخّمها الصدى ويرددها إلى ما لا نهاية.

وخيل إلينا ونحن نهبط متعلقين بالحبل أن الزمن توقف، وأننا لن نصل إلى قرار أبدا. وكم كان سرورنا ودهشتنا عظيمين عندما وجدنا أنفسنا في النهاية وسط بلاط دائري تحيط به دعائم تتوسطها كوى صمّاء، لا بد أنها كانت تضم في وقت ما أوان لحفظ رماد الموتى أو تماثيل لشخصيات رسمية، بدليل أسمائها المنقوشة بالهيروغليفية المترجمة أحياناً إلى اليونانية. وبدا واضحاً أن بعضها حطّمته بضراوة الهراوات، والأزاميل في أزمنة ماضية.

وكان للبلاط ثلاثة أبواب، منها اثنان جانبيان يؤدي كل منهما إلى تجويف واسع حفر مباشرة في الصخر، ويبدو أنه أهمل بعد محاولة تحديد محيطه، إذ ينتهي بدهليز قصير مسدود. وأما الباب الأوسط، وهو أكبرها، فيعلوه طنف محلى بجبهة مثلثة رسمت على لوحتها طيور برؤوس آدمية، تمثل في الطقوس المصرية أرواح الموتى. ويؤدي هذا الباب إلى رواق كبير مستطيل، قبوته مرفوعة على أعمدة وتتوارى نهايته في الظلام. وفي جانبيه على أبعاد متساوية اثنتا عشرة فتحة متناظرة بدقة، تؤدي إلى حجرات مربعة منخفضة عن أرض الرواق ببضع درجات، حفرت في جدرانها فجوات مستطيلة الشكل مربعة المقطع متراصفة في صفوف متوازية متراكبة يضم كل منها ناووساً. وكانت هذه الفجوات فيما مضى مغطاة بألواح من الحجر الجيري ما زال بعضها في مكانه، نقشت عليها أكاليل مورقة مطلية باللونين الأسود والأحمر يتوسطها اسم الميت وعمره وكلمة رثاء مقتضبة.

فتبيّن لنا عندئذ أننا في مقبرة ضخمة من تلك المقابر القبوية التي تزخر بها الاسكندرية، تضم مئات بل ربما آلاف من القبور صفت وفقاً لترتيب صارم. غير أن أغلب توابيتها تناولتها ضروب النهب والسلب، فكسرت أغطيتها واستبيحت محتوياتها وتركت

صفراً خاوية. رفعنا مصباحينا عالياً نجيل البصر في تلك القاعة الفسيحة بقبوتها السريرية المحمولة على أعمدة ذات تيجان، تزدان بأزهار اللوتس وأوراق الأكانتس، لا ينيرها سوى ضوء المصباح الهزيل المرتعش، فخطفت أنفاسنا جلالة البناء وتملكنا شعور غامر بالهيبة أمام روعة البنيان والصمت المطبق الذي لفّ المكان. وإذ بنا دون أن ندري نسير على أطراف أصابعنا وكأننا نخشى على الراقدين في هذا القبر المهيب أن يقلق راحتهم وقع أقدامنا على البلاط، أو ننبه إلينا قوة ما خفية مروعة قابعة في الظلام لحراستهم ربما أيقظناها من غفوة أخذتها منذ آلاف السنين.

تابعنا طريقنا عبر المقبرة فتوالت حجراتها متباينة الطراز والمعمار، اختلطت فيها التأثيرات المصرية واليونانية، ننفذ إليها عبر دهاليز ضيقة أو نهبط بسلالم لولبية إلى طوابق سفلية غمرت المياه عدداً كبيراً من حجراتها. وبدا واضحاً أن البناء شيد على امتداد عدة قرون، بدليل اختلاف أقسامه وتنوع طرزه وتباين زخارفه. بعض الحجرات مكسوة تماماً بالأفاريز والإكليليات ذات العناصر الزخرفية الاغريقية الرومانية، وبعضها رسمت على جدرانها المطلية بالجص أو بالملاط مشاهد ميثولوجية ملونة، منها مشهد انبعاث «أوزيريس»، وأخرى فرشت بلوحات من الفسيفساء تآكلت بفعل الرطوبة، ولاحت عليها أشباح هياكل عظميّة فرحة مبتهجة ترفع كؤوس الخمر وقد أحاطت بجماجمها أكاليل الزهور. وفي حالات قليلة كانت الحجرات عارية تماماً إلاّ من النواويس ومن بعض هياكل النذور الصغيرة المصنوعة من الطين المحروق أو من الرخام.

وفجأة تجمدت أوصالنا رعباً عند منعطف دهليز عندما سقط علينا في ومضة المصباح ظل مديد مروّع، وإذ بالإله «أنوبيس» يتقدم نحونا، باسطاً ذراعيه، ساداً الطريق أمامنا وكأنه يهمّ بالإمساك بنا. فقد وقعنا على تمثال بالحجم الطبيعي لحارس الجحيم، هادي الأموات وربّ التحنيط، "الأوبواوت" كما كان يسميه المصريون القدماء، أي "فاتح الطريق"، رأسه على هيئة ابن آوي يعلوه قرص الشمس، وخطمه مهشم بضربات واحد من محطمي الأصنام فوجئ مثلنا بهذا المنظر الآسر عند ذلك المنعطف.

تأكد لنا أن عدة عبادات تعاقبت على المكان على مر العصور. فها هنا آثار طقوس دينية اغريقية مصرية من العصر الهلليني، وهنالك أخرى رومانية من عهد الأباطرة، وتراكبت على هذه وتلك مخلفات النصرانية التي يسهل التعرف عليها لطابعها الهجين وهزالة تكوينها. وبدا من كثرة التماثيل المهشمة والمطروحة أرضاً، أن بعض أجزاء المقبرة كانت في وقت من الأوقات معقل جماعات نصرانية، ملأت الجدران بكتابات ورسوم لا تحصى بالمغرة الحمراء، تمثل الصليب ورمز اسم المسيح.

وبعد ساعات طوال جبنا خلالها أرجاء المقبرة، نبهنا تضاؤل نور المصباح إلى ضرورة التعجيل بالخروج. واحتجنا بعد ذلك إلى عدة أيام لاستكشاف الموقع ورسم خريطة تقريبية له.

وفي آخر المطاف بدأنا نشعر بشيء من الضجر إزاء كل هذه الحجرات الجنائزية، لم تفلت واحدة منها من تنكيل نبّاشي القبور، تعاقبوا عليها جيلاً بعد جيل وتركوها في حالة من الخراب والدمار تفاقمت مع الرطوبة المنتشرة في كل ركن من أركان البناء تعمل فيه تخراً ورشحا.

غير أن ثمة مكاناً كانت أدراجنا تعود إليه باستمرار أثار فضولنا. فالرواق المؤدي إلى أحد أطراف المقبرة القصية يفضي إلى قاعة دائرية واسعة يبلغ قطرها اثني عشر متراً أو يزيد، مسقوفة بلوحة ضخمة من الحجر الجيرى الطبيعي، ترشح من كل جانب، وتتخللها صدوع خطيرة.

تبينّ لنا فيما بعد أن هذه القاعة كانت في الواقع بئراً عظيمة، بعيدة الغور، تملؤها المياه إلى ارتفاع الدرجة الرابعة من سلّم يلتف حول جدارها الداخلي ويهبط بمسار حلزوني إلى قاعها. وعندما هممنا بالإنسحاب لتعذر التوغل إلى أبعد من ذلك استرعى انتباهنا شيء ما جعلنا نعود أدراجنا. فمن الناحية المقابلة، لمحنا في جدار البئر فتحة باب عتيم تصله الماء حتى العتبة. ترى ما فائدة باب لا سبيل إلى الوصول إليه؟ فاذا تخيلنا مسار السلم تحت الماء، وراعينا درجة انحداره، لكان من المنطقي أن ينتهي في الطرف المقابل تحت الباب بمسافة ستة أو سبعة أمتار. كان السلم يسمح إذن بالوصول إلى قاع البئر، ولكن يستحيل أن يصل إلى تلك الفتحة التي يبدو أنها كانت أصلاً تطل على الفراغ. لا بد أن هناك سرداباً ثانوياً خفياً يؤدى إليها أو ربما كانوا يرقون إليها بسلّة معلّقة أو سلّم من الحبال. وهذا ما رجحناه فيما بعد، إذ لاح لنا شيئاً فشيئا بعد إمعان النظر في الظلام بروز طفيف فوق عارضة الباب العليا يمكن أن يحمل بكرة لرفع الأثقال.

وبدا لنا على مثاب البئر المنحوت في صخرة واحدة مكوناً ما يشبه العتبة، شيء مستدير كأنه سقط سهواً، لم نستطع أن نميز طبيعته من هذه المسافة على ضوء المصباح الشاحب. فدفعني الفضول إلى خلع حذائي ونزول السلم مستنداً بحذر إلى الحائط خشية السقوط على درجاته الزلقة المكسوة بالطحالب، والماء يتعكر تحت أقدامي بما أحركه من الطين في كل خطوة. وسرعان ما غمرتني المياه حتى منتصف الفخذ، وما تقدمت من الباب متراً واحداً.

خرجت من الماء، وبعد تردد ليس بالقصير، ورغم احتجاجات الدكتور وسيم على محاولتي التي اعتبرها ضرباً من الجنون، قررت أن أخلع ملابسي وأنتقل إلى الطرف المقابل سباحة. لم يكن الماء بارداً، غير أني لن أنسى ما حييت ذلك الإشمئزاز الذي تملكني وأنا أستعد للقفز والماء يصلني حتى الوسط. انزلقت بهدوء رافعاً مصباحي عالياً دون أن أحرك سطح هذا السائل الكريه المقزز. كنت في كل ضربة من ضربات يدي على صفحته أشعر به يشتد اسوداداً ولزوجة. بذلت جهداً جباراً لأمنع نفسي من التفكير، وأتحكم في هبّات رعب متصاعدة من أعماقي تتجمد لها أوصالي. وأبيت ولو مرة واحدة أن أتخيّل ما

عساه يعتمل في الأعماق. لعلها تعج بركام جثث في طور التفسخ والتحلل. ففي مملكة الموت هذه، لا بد أن الماء محمّل بنتانات خبيثة مشبعة بأخلاط تنتج عن ألوف الجثث، كمثل ما تجرفه المياه الثقيلة السوداء لتلك الأنهار التي يقال إنها تحف بأطراف الجحيم. أفلن يتلقفني فجأة وحش مروّع يجرني إلى الأعماق، أو تطبق على قدمي بغتة سلاميات يد تفسخ عنها اللحم. كانت مخيلتي على أهبة الاستعداد للانفلات والجموح في كل لحظة لولا استنجدت بصوت العقل لأحتفظ ببرود أعصابي، فلا أستسلم لتلك الرغبة الطاغية التي سيطرت عليّ، تغريني مراراً بالصراخ ملء صوتي والتخبط لإنقاذ نفسي. حاولت أن أقاوم اشمئزازي، صارفاً همي إلى السباحة بعناية كبيرة، مشرئب العنق، رافعاً رأسي عالياً فوق سطح الماء، صاراً شفتي بعزم لئلا تأتي ولو قطرة واحدة من هذا السائل النتن تلمس فمي على غفلة مني.

وبعد فترة خلتها دهراً، ارتكزت على حافة البئر وانتشلت نفسي بشعور من الإرتياح أكيد. وقفت أنفض الماء عني وأتأمل ذلك السطح البراق الذي عاد إلى سكونه. وكم كانت دهشتي عظيمة اذ رأيت أن الماء كان على عكس ما ظننت، صافياً رائقاً، كأنه انبجس من نبع عميق، أو انساب من خزان نقي. انحنيت على صفحته، مرسلاً ضوء مصباحي بعيداً في صفائه، فخيّل إليّ أني أستشف طيف حلزون السلم المنتظم وهو يغور عميقاً في قاع البئر.

التقطت ذلك الشكل المستدير الذي لفت انتباهنا، وإذ به ترس من الجلد المصفّح بالمعدن، تآكلت جوانبه وانبعج وسطه والتوت أطرافه. وكان جلده خشناً متقلصاً مجعّداً، يتساقط هباء عند اللمس كأنه من الورق المقوّى الردئ. التفت إلى الدكتور وسيم فرأيته في الطرف الآخر وقد استبد به القلق، خيالاً رقيقاً هشّاً وسط هالة مصباحه الممدود نحوي، وبدا لي فجأة بعيداً نائيا، شبحاً منسيًا أو رؤيا من عالم آخر.

تناولت مصباحي، واهتديت بنوره إلى دهليز ضيّق نفذت منه إلى قاعة رحبة الأرجاء، تعلوها قبة مزخرفة بتجاويف منتظمة، اصطفت على جانبيها حجرات جنائزية شبيهة بما رأيناه سابقاً، غير أن مداخلها كانت تضيق فلا يكاد المرء يستطيع دخولها إلاّ جانبيا. وبين الفتحة والأخرى نحتت في الصخر مقاعد تتسع لشخصين راقدين، لعلها كانت فيما مضى مفروشة بالمراتب والوسائد. وقبالة كل من هذه الأسرّة الحجرية، توسطت القاعة طاولات مقلوبة رأساً على عقب، محطمة ومكومة في ركام يتداعى ويستحيل غباراً لأقل لمسة. وكانت هذه القاعة على الأرجح من تلك القاعات المأتمية التي تقام فيها الولائم على أرواح الموتى. وكانت محتوياتها في اضطراب عجيب، وكأن المحتفلون بوغتوا باقتحام جماعات مسلّحة أو عصابات من اللصوص لا همّ لهم الاّ دكّ المكان دكًا. أطيحت التماثيل عن قواعدها وطرحت أرضاً، ولم يبق منها سوى حطام ملأ الأرض، فترى هنا قوس أنف، وهناك تموّج شعر، أو يداً كاملة لإله حجري لا تزال تشير بالبنان إلى حطام

صاحبها. وتراكمت على الأرض أنقاض وفضلات من كل نوع، من نسر خشب وكِسَر أطباق وفتات أوان فخارية، تدل كلها على مدى ضراوة العراك الذي دار في هذا المكان.

وعندما اقتربت من نهاية القاعة بانت جدرانها زاخرة بالرسوم الملوّنة لشخصيات ميثولوجية، أبرزها شخص طويل القامة يرتدي حلة بيضاء، صوّر في أهم أحداث حياته. وكان يصعب تبيّن مغزى هذه الرسوم لاستحالة الألوان وامحائها في بقع واسعة من اللوحة، وسقوط الطلاء صفائح كاملة في أماكن أخرى، في حين أشبع ما بقي من الصور تلويثاً وتلطيخا. وفي أعلى الجدران امتد على دائرة القاعة كلها، وعلى نفس الإرتفاع الذي هيئت فيه مثابت المشاعل، إفريز من الفسيفساء يزدان بأهم المضلعات المعروفة، لا سيما المخمس الذي كان يتكرر على مسافات متقاربة تحف به زخارف منمقة كثيرة ابرازاً لأهميته. ربما كان المخمس بمثابة رمز أو شعار تلتئم حوله جماعة سرية، تشير الدلائل إلى أنها كانت جماعة فيثاغورية المعتقد.

وفي نهاية هذه القاعة المأتمية محراب محاط بعمودين ناقصين تعلوه قبة نصفية حفرت عليها تجاويف طولانية في هيئة صدفة. واحتل وسط المحراب تابوت ثقيل من الحث الوردي المحفور، تناوبت على أركانه الأربعة أقنعة «ميدوزا» «وسيلينوس»، وقسّمت جوانبه إلى خانات تتوسطها لوحات بالنقش البارز تصور فيما يبدو الشخص الذي شاهدناه على الرسوم الجدارية في مراحل مختلفة من حياته، ولاحظنا أن التابوت أزيح غطاؤه وحطم أحد أركانه وامتدت إليه يد انتهكت حرمته وفرغته من محتوياته.

وأكثر ما أثار دهشتي نقش تصدر المحراب، تبدو فيه تسعة رموز متساوية الحجم استدارت حول نقطة على هيئة معيّن صغير محفوف بما يشبه الأشعة. وكانت هذه الرموز بارزة مصقولة لعلها كانت في وقت ما مطلية بالألوان أو مغشاة برقائق ذهبية لم يبق لها أثر.

وأول ما تبادر إلى ذهني أنها رموز من "القبّالة" لعلمي بأهمية الدور الذي لعبته الجالية اليهودية في الأسكندرية، لولا أنني أدركت فجأة أنها تمثل الأرقام العربية في صورتها البدائية، ولكنها بدت مشحونة بقوة سحرية تجاوزت قيمتها الذاتية وحولتها إلى وجود خارق محاط بهالة من القدسية. ومع انعكاس ضوء المصباح على حروفها وتراقص الظلال زاد رسمها بروزاً، وكأنما انسلخت عن الحجر وبعثت فيها الحياة والحركة فتضاعفت الشحنة الرمزية التي كانت تحملها في الماضي لتكون موضع نوع من التقديس بل محل عبادة حقيقية.

تراجعت قليلاً لأتأملها عن بعد فتعثرت قدمي بما حسبته كسر خشب، وإذ بها كومة من العظام البشرية الهشة تتفتت بين الأصابع وتستحيل رمادا. وتدحرجت في أحد أركان الحجرة جمجمة شجت شجاً عميقاً في قمة الرأس ما أن تناولتها بيدي حتى انفلقت نصفين محدثة صوتاً خفيفا. كل هذه الآثار توحي بأن معركة حامية دارت في هذه القاعة التي

ثبت لدينا فيما بعد أنها كانت الملاذ الأخير لجماعة وثنية اضطهدت وطوردت بقسوة فيما بين القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد وأبيدت عن بكرة أبيها.

بدأت برودة المكان ترزح على كتفيّ وتتخلل عظامي. انزلقت في الماء بهدوء لألحق بصاحبي فوجدته قاعداً بلا حراك وقد وضع مصباحه على الأرض بجانبه، وأسند ظهره إلى عمود مديراً وجهه صوب أحلك بقعة في الرواق يحملق في العتمة بشدة كأنه لفرط انتظاره وطول وحدته استسلم شيئاً فشيئاً لمخاوفه متوقعاً في كل لحظة أن يخرج عليه من ثنايا الظلام شبح مريع من تلك الأشباح القادمة من عالم الأموات التي لن تلبث قوى الليل الخفية أن تستحضرها مع مرور الوقت لا محالة.

واصلنا في الأيام التالية استكشاف الموقع متزودين هذه المرة بقارب مطاطي صغير ولم ندع ركناً ولا زاوية إلاّ أشبعناها بحثاً وتنقيباً، أملاً في العثور على قرائن اضافية تؤكد صحة افتراضنا. وعند زيارتنا لآخر حجرة جانبية، تنبهت فجأة إلى أني لم أعر بعد اهتماماً حقيقياً لذلك الحيّز الغائر الكائن فوق العارضة العليا لكل باب. وبينما كنت ألاحظ خلو الحيز الذي كنت أتفحصه في تلك اللحظة، ساورني شك غامض في أنه لم يكن كذلك في كل مرة، ومثلت في ذهني صورة مبهمة لشيء ما ضخم تراءى لي في وقت من الأوقات وتعذّر عليّ استرجاع معالمه بدقة.

عدت أجوب الحجرات الجنائزية واحدة واحدة، وإذ بي أكتشف فعلاً فوق باب أولاها إلى اليمين، جرة ضخمة من الرخام السماقي، عروتاها ثعبانان التفّ جسماهما على جانبيها وانتصب رأساهما في مقدمتها، يقومان على حراسة الميت على عادة الطقوس المصرية. لعلها كانت جرة رماد أو إناء كانوبي لحفظ مواد التحنيط. تسلقت الحائط مستعيناً بنتوءات أغطية التوابيت المتراكبة في تجاويفها المقببة، وتطاولت إلى ارتفاع الجرة. أزحت الغطاء الثقيل لأضعه جانباً وكاد للحظة يفلت مني ويهوي فيجرني معه. أدخلت يدي في رقبة الجرة متلمساً داخلها فبدت لي لأول وهلة خاوية غير أن أصابعي ما لبثت أن لمست لفافة أسطوانية كبيرة عجّلت في استخراجها. وجدتها مصنوعة من الجلد السميك الأسود مطلية بطبقة كثيفة من الدهون، جفّ سطحها الخارجي وتشقق وسدّت بغطاء محكم.

عدت إلى القاعة الكبرى وناديت الدكتور «وسيم». جلسنا نفتح اللفة بحذر، فألفينا فيها مجموعة برديات، عبارة عن وثائق ورسائل ومخطوطات أصلية ومنسوخة، تكدّس بعضها فوق بعض في لفّة متراصّة هشة، ولكنها حفظت من الهواء والرطوبة. وكان جلّها في حالة جيّدة باستثناء ما كان منها تالفاً أصلا.

اكتشفنا إذن على غير انتظار محفوظات حقيقية. سارعنا إلى الجامعة، واستعملنا سراً مخبر المكتبة عالجنا فيه البرديات الجيدة بالبارافين، بينما صورنا التالفة قبل أن تمّحي وتتحول إلى غبار. ثم عكفنا على تصنيف وترجمة النصوص التي نورد في هذا الكتاب الجانب الأكبر منها. وقد تسنّى لنا أن نسترجع بما يكفي من الدقة تاريخ الجماعة التي

سنسميها تيسيراً للقارئ "عبدة الصفر".

لقد حاول أفراد هذه الطائفة بواسطة النصوص التي عثرنا عليها أن يجمعوا لفترة تزيد على ألف عام - أي منذ فيثاغورس (القرن السادس قبل الميلاد) وحتى الفتح العربي(القرن السابع الميلادي) - جميع مصادر عقيدتهم، من وثائق ورسائل شخصية وترجمات لشخصيات حقيقية أو خيالية، ودراسات نقدية، وفصول من مصنفات في الرياضيات، وشروح وخلاصات وتعليقات شتى، أي كل ما اعتبروه أساساً لمعتقداتهم واستندوا إليه في تأكيد تفسيرهم للعالم.

آلينا على أنفسنا أن نصنف هذه المواد ونرتبها وفقاً لما تصورناه أفضل ترتيب لابراز أصالة فكرهم في تسلسله المنطقي وتطوره الزمني. فتجد في صفحات هذا الكتاب نصوصاً ذائعة معروفة كتبت فيها ترجمات عديدة ولكنها جاءت هنا في صيغة مختلفة بعض الاختلاف، كما تجد نصوصاً أخرى أقل شيوعاً، بل معظمها لم ينشر اطلاقاً ولا يوجد أدنى شك في صحتها، وأخرى على العكس من ذلك يتعذر البت في أمرها بدقة.

وقد يلاحظ القارئ اليقظ أن الرواية يعوزها التماسك، بل تبتعد أحيانا عن الحقيقة التاريخية أو تصوره لهذه الحقيقة. ويرجع ذلك على الأغلب إلى أن بعض النصوص أعيد نسخها في أزمنة مضطربة، فجاءت مكتوبة على عجل أو بدون اتقان على يد نسّاخ مهملين غير ملتزمين، أو ربما أعماهم تعصبهم لمعتقدات الطائفة في فترات عصيبة من تاريخها. فضلاً عن أن الطائفة اضطرت في كثير من الأحيان إلى التستر لمواصلة عبادتها في الخفاء، فضاعت عناصر هامة تركت ثغرات بين الفترات المعروفة لدينا، امتدت أحياناً قرناً أو قرنين.

التزام الحذر إذن واجب. فنحن أنفسنا صعب علينا أحياناً أن نميّز بين الحق والباطل. ولكن من المؤكد بلا أدنى شك أن كلاً من هذه النصوص يندرج في سياق لا نزاع فيه. وقد تحققنا في أغلب الأحيان من أدق التفاصيل وبدا لنا من الصعب جداً تبيّن التناقضات أو الأخطاء إن وجدت. لذا حرصنا على أن نستهل كل فصل من فصول الكتاب بمقدمة توضيحية وجيزة، توخياً للربط بين وثيقة وأخرى ووضعها في سياقها التاريخي إشفاقاً على القارئ الذي تخونه ذاكرته أو غير الملمّ بأحداث هذه الحقبة، وسعياً إلى تقييم مدى صدقها وأصالتها، وتحديد تواريخها وايراد ايضاحات عن أهم ما نعرفه عن ظروف تأليفها وكاتبها المفترض.

وحفاظاً على وضوح السرد وتماسك الرواية سمحت لنفسي أحيانا بملء الفراغات والثغرات، دون المساس بوحدة المضمون، بفصول وصفت فيها الرسوم الجدارية أو اللوحات التي شاهدناها منحوتة على التوابيت، كما أوردت بعض المقتبسات من مصنفات بعض الجغرافيين والمؤرخين والرياضيين القدامى والحديثين. بل استخدمت أحيانا تقارير أثرية بدا لي أنها تسلّط الأضواء على حدث معيّن وتؤكد حقائق ربما بدت لأول وهلة غير ذات بال

وضرباً من ضروب الخيال.

ولعلّ أهمّ البرديات على الإطلاق وثيقة مدهشة تضمنت يوميات كاملة كتبها حتى آخر لحظة من حياته «ثيوقريتياس الأفامي»، آخر كتبة الطائفة والقيّم على محفوظاتها. فقد حرص على سرد أحداث المعركة الأخيرة التي اضطرّ أفراد الطائفة إلى خوضها مع جماعة من النصارى المتعصبين نجحت في اقتحام ملاذهم بحيلة جريئة. فروى وقائع المجابهة الجسدية وكيف انهزمت الطائفة أمام كثرة المغيرين. والأرجح أن «ثيوقريتياس» هذا لم يتمكن إلا في اللحظة الأخيرة من اضافة هذا النص إلى محفوظات الطائفة ودسها جميعاً في الجرّة الرخامية.

وبهذه القصة الأليمة تنتهي ملحمة من أفجع الملاحم الفكرية التي شهدها تاريخ البشرية. فلم يكن للمرء أن يتصور أن ادراك الإنسان لذلك العدد، الذي هو تعبير عن اللاكمْ، وتصوير للعدم، وتجسيد لنفي العدد - أعني الصفر - ودخوله حيّز الوجدان مع ما جرّه من تبعات في مجال الرياضيات والعقائد الدينية والفلسفة، قد أحدث ثورة حقيقية في نظام الفكر الإنساني، كما يتضح من هذه النصوص التي تنقلنا تباعاً من قمم الزهد إلى مرارة العذاب والإشراق الروحي، ومن غمرات الشك وتمزقاته إلى التصميم على بلوغ اليقين والوصول إلى لبّ الأشياء ولو أدى السعي في النهاية إلى اللاشيء .

ملحوظة:

توفي الدكتور «وسيم» قبل أن نفرغ من تصنيف الوثائق. وكان قد استحلفني ألا أفصح عن مدخل المقبرة وموقعها. وفيت بوعدي، بل آليت على نفسي، مراعاة لشعور أرملته، أن أخفي كل الدلائل التي قد تكشف عن هويته. وما استخدمت صيغة الجمع في المقدمة والصفحات التالية إلا بدافع العادة والتزاماً بالعرف المتبع.

وإن كنت قد عاهدت الدكتور «وسيم» على ألا أكشف عن موقع المقبرة، فلا جرم في البوح بأنه بعد أن تعاون معي في بداية المشروع، لم يلبث أن تخلى عنه بل يؤسفني أن أقول إنه، حتى آخر لحظة في حياته، بذل قصارى جهده لعرقلة أعمالنا ومنع نشرها. وأعتقد أنه رفض الإستمرار في هذا المشروع عندما بدا له، من خلال ترجمة النصوص، أنها تتضمن إدانة لأعمال القمع المنظمة التي مارسها النصارى فيما بين القرنين الرابع والسابع ضد الفلاسفة الإغريق والوثنيين وانتهت بإبادتهم والقضاء عليهم قضاء مبرما.

الوثيقة رقم ١

إن معظم النصوص الواردة في بداية سجلات طائفة "عبدة الصفر" مكرسة «لفيثاغورس». فالمعروف أنه أول من أنشأ ديانة حقيقية تقوم على عبادة الأعداد. لذا كان من المنطقي أن تبدأ معه قصة اكتشاف الصفر. وتشير كثير من هذه النصوص إشارة مباشرة إلى الأحداث البارزة في حياة «معلم ساموس»، وتحوله إلى شخصية أسطورية، حتى أننا في بعض المواضع وجدنا للواقعة الواحدة ثلاثة أو أربعة تفسيرات متباينة بل متناقضة وضعها مؤلفون مختلفون في عصور شتى. وحرصاً منا على ألاّ نرهق القارئ قررنا أن نختار من هذه الروايات أكملها وأعمقها مغزى. وإننا لم نتحقق إلا نادراً من صحة الوقائع المسرودة، نظراً لأن البحوث التي تجرى حتى يومنا هذا لا تزال مليئة بالتناقضات.

غير أنه يمكن القول، إن «فيثاغورس» ولد على الأرجح فيما بين ٥٨٠ و٥٧٠ قبل الميلاد لأب صائغ يدعى منيسارخوس وأم تدعى بتاييس كانت تعتبر أجمل نساء ساموس. وظل في البداية يعيش في كنف عمه هيرموداماس، الذي لقنه مبادئ المعرفة ثم تلقى العلم على فيريقيدس السقيروسي، المعروف بالحكيم، والذي ألف كتاباً بعنوان "المغارة" أودعه تأملاته في أصول الكون ومبادئه. ويقال إن «فيثاغورس» صحبه في أسفاره بين الجزر المحاذية للساحل الممتد بين إفسوس وميليطة، والتقى معه بتلاميذ أنكسيماندر وبيتاكوس وبياس البيريني، وربما التقى بطاليس نفسه، حتى ذلك اليوم الذي قصدا فيه ديلوس، فلقي معلمه حتفه.

ولم نعثر في السجلات على نص يتعلق بفترة شباب مؤسس الطائفة. ولكننا اكتشفنا في إحدى الحجرات الجنائزية الملاصقة للقبو الكبير رسماً جدارياً طوله ثلاثة أمتار وعرضه متران تقريباً، نقشت في جانبه عبارة تذكّر بارتحال «فيثاغورس» إلى بر مصر. وربما كان هذا الرسم المتكلف بعض الشيء من صنع أحد أفراد الطائفة، نفذه في زمن اضطرهم فيه الاضطهاد إلى أن يقبعوا شهوراً طويلة في ظلمة هذه الجبانة.

قد يبدو الوصف الوارد فيما يلي غير دقيق في الكثير من أجزائه. فالواقع أن الرسم اختفى شيئاً فشيئاً من الجدار، إما بفعل شراقة الهواء التي أحدثناها بدخولنا أو بفعل ثاني أكسيد الكربون الذي كنا نزفره في هذا الجو المكتوم. وكلما عدنا إليه وجدنا بعض ألوانه توشك أن تنمحي، في حين تكتسب ألوان أخرى ليوم أو يومين فقط تألقاً غريباً يبرز تفاصيل لم نلاحظها في البداية قبل أن تشحب بدورها وترمد. فكأن الرسم ذاته أخذته حركة الألوان ودبت فيه الحياة تحوله أمام ناظرينا ونحن نشاهد عاجزين تناصله المحتوم وتلاشيه النهائي.

وصف استعدناه إذن من الذاكرة أثار لنا المتاعب أنا والدكتور «وسيم»، إذ احتفظ كل منا في مخيلته بصور مختلفة بعض الاختلاف بل متناقضة في كثير من الأحيان. فحاولنا أن نوفق بينها في هذا النص الذي حرصنا على إدراجه هنا، رغم ما فيه من خلط واضطراب، إجلالاً منا لذلك العمل الفني الذي درس.

أغلب الظن أن الشخصية التي تتوسط المشهد، أي «فيثاغورس»، كان آخر من وطئت قدماه ظهر السفينة، قبل أن يسرع الملاّحون في رفع السلم. وحتى الظهيرة -كما يبدو من امتداد الظلال- ظلّ الحمالون يروحون ويجيئون في صف طويل بين الرصيف وجوف السفينة، يحملونها بكل ما أعد من متاع طوال الأيام التي انقضت في انتظار الرياح المؤاتية. فمن لفائف أقمشة وصناديق خشبية زاخرة بأثمن السلع كالأواني والأقداح والمشغولات الذهبية، وسلال من الخوص وجرار مليئة بذلك الخمر الحلو الذي اشتهرت به الجزيرة، وأقفاص يقوقئ فيها الدجاج وجوالق من الجلد أو النسيج الخشن كدست فيها أدوات السفر وأصناف المؤن.

خلا الرصيف من أكوام الأمتعة التي كان يزدحم بها، ولم يبق سوى بعض الخرق المتناثرة وبقايا حبال بالية متقطعة، وانتشرت على الأرض ذرارات القش المفري من سحق الأقدام، وقشورونفايات شتى ينهمك أحد العبيد في دفعها إلى الماء في المساحة الخالية بين حجر الرصيف والسفينة المبتعدة. ويسرع البعض قبل فوات الأوان إلى قذف غطاء أو صرة نسيها صاحبها، أو مرية من الزاد أو هدية من التمائم أو قربان باركته الآلهة.

وكأن أحداً من الوقوف لم يشأ مغادرة مكانه على الرصيف. فالحمالون يلتقطون أنفاسهم وإلى جانبهم من بقي من الأصدقاء والأقرباء، وعدد من الفضوليين الذين توافدوا كعادتهم لمشاهدة مناورة الإقلاع، وجاءوا اليوم ليمتعوا النظر بهذا الفلك العظيم في جدته الأولى وتألق ألوانه. أما الملاّحون والخبراء فيبدون إعجابهم برشاقة السفينة باشارات رحبة وصوت خفيض، ويمتدحون صفوف مجاديفها الثلاثة التي تزيدها طواعية وسرعة. ومع ابتعاد السفينة إلى عرض البحر يتسنى للماكثين على الرصيف أن يتأملوا انسيابها وثباتها فوق الأمواج المضطربة وسط المرسى.

ويهرع القوم من كل صوب ليهنئوا آيستوس صاحب السفينة الذي ظل منتحياً لمراجعة حساباته. وها هو يتأهب للقيام متثاقلاً، يرفع يده واقياً عينيه ليتأمل بدوره السفينة الأبيّة التي اقتناها حديثاً وتملأ في السر قلبه فخرا. فما كادت تخرج من مصانع كورنثة، وتختبر في رحلات قصيرة لتجريب ثباتها ومتانتها، حتى دفع بها آيستوس بلا وجل بين الساحل الأيوني وبر مصر، فكان هذا الخط الملاحي مصدر ثروته المباغتة في السنوات الأخيرة.

أما المسافر الجالس في مقعده على ظهر السفينة، فتأخذه للوهلة الأولى انطباعات شتى. فما أن تبدأ السفينة في مغادرة ملجأ الخليج وتتدفع الرياح في الأشرعة، حتى

يسمع للهيكل طقطقة تأتي من كل جانب وخاصة في المواضع التي لا يزال يلعب فيها الخشب وتتثبت الوصلات. وتتصاعد من القاع نفحات نفّاذة تنتشر في ممراتها محمّلة برائحة الخشب الخام وعبق الراتنج والقار المستعمل في القلفطة، تختلط بفوح الجلد الجديد المثبت على الكرات وعطر الحبال الكتانية وطلاء الزنجفر الذي يحمي جسد السفينة من الصدأ.

تحت جناح الريح أخذ المركب يمخرالبحر بسرعة منتظمة على الرغم من اشتداد الأمواج، ورفعت المجاديف وانتفخت الأشرعة فكفت عن الإصطفاق بالعدة. اتكأ فيثاغورس على السور يتأمل دوائر الزبد التي يخلفها الجؤجؤ، ويمتع النظر من خلال شفافية المياه المفاجئة بين كل موجة وموجة بغابات الطحالب الحمراء المائرة فوق الصخور القريبة والمضاحل، ثم يستدير شارداً نحو الكوثل فيعجب لمشهد اللجج من هذه الزاوية، إذ تتخذ لوناً أزرق داكناً أقرب إلى السواد تتداخل فيه، بفعل انعكاس النباتات المائية، تموجات أرجوانية زاهية حيناً وضاربة إلى البنفسجي حيناً آخر.

ولم تعد جزيرة ساموس والمدينة المدرجة المشرفة على الخليج سوى بقعة ناصعة البياض تتألق فوق خط البحر المعدني الحادّ. وتتراءى في الخلف شواطئ الساحل الأيوني يغشاها الضباب وأطراف القارة بكفافها الجبلية الزرقاء.

الوثيقة رقم ٢

يحكى أن ستيوارت كروبسون أمضى أوفر قسط من حياته وحيداً على ظهر دهره، يجوب البحر المتوسط محاولاً استكشاف الطرق التجارية التي كانت تسلكها السفن في قديم الزمان. وكما فعل من قبله فكتور بيرار إزاء أوديسة هوميروس، لم يستند كروبسن إلاّ إلى القديم من أدب الرحلات، ولم يستعن إلاّ بالأدوات الملاحية التي كانت تستعمل في ذلك الوقت.

وفي أحد فصول أطلسه الذي وضعه عن الطرق البحرية في اليونان القديمة (لندن ١٩٥٣)، يصف كروبسون ظروف الرحلة التي كانت تتم بين جزر الساحل الأيوني وحكرة نقراطيس التي كان الفرعون بسامتيك الأول قد منحها لأهل ميليطه. فيحاول أن يستوحي من نصوص يعود عهدها إلى القرن السادس قبل الميلاد الروح التي كانت تحدو الرحالة في ذلك الزمن وهم يعبرون البحر ويسجلون مشاهداتهم. ويورد نصاً من «حياة الحكماء» لفيلونتس الأثيني، وهو فيما يبدو من المؤرخين الأوائل لسيرة «فيثاغورس».

ولم يترجم كروبسون من هذا الكتاب سوى صفحاته الأولى المتعلقة برحلة «فيثاغورس» إلى مصر. وقررنا أن ننشر هنا هذه الصفحات لاتصالها بموضوعنا وإن لم تكن جزءاً من محفوظات الطائفة، ولم نقاوم متعة إدراجها في هذا الموضع لما وجدنا فيها من صور حية وتفاصيل مدهشة. وقد أحدثت هذه الترجمة ضجة كبيرة وقت صدورها، وتعرض ستيوارت كروبسون لنقد شديد لأنه أدرج في وصفه للرحلات البحرية التي تخيلها معلومات استمدها من هذا المخطوط الذي لم يتردد البعض في اعتباره "مريباً" بل "شاذاً"، فكتبوا المقالات يسخرون فيها من تلك الطيورالبيضاء بياض الثلج من فصيلة أبي قردان، والمسماة في النص بالهنق، والتي لم يجدوا لها ذكراً في أي قاموس من قواميس علم الطيور. وكذلك الأمر فيما يتعلق بكوكبة "الطائر القيثاري" التي يلفها الغموض التام. ولنلحظ أيضاً في نهاية النص ذكره لحجر القمر، الذي تخلو كتب التاريخ من أي إشارة إليه. أما حادثة الخاتم الذي قدمه ميليتوس هدية لفيثاغورس، وأوحى إليه بتأملات أدت به إلى استشعار وجود وسطاء - هي الأرقام - بين العالم الحقيقي وعالم الآلهة اتخذها فيما بعد أساساً لنظامه الكوني، فمن الواضح أنها قصة خيالية مختلقة من أولها إلى آخرها.

عندما تبتعد السفينة عن الخليج، يكفيها أن تستسلم للريح الخلفية تدفعها جنوباً بلا عناء، ففي هذا الفصل من السنة لا تغير الرياح اتجاهها لمدة أسابيع. أما الرحلة الكبرى فلم تبدأ بعد. وفي الطريق حتى كرباثوس، وربما كاسوس، لا يزال يمكن للسفينة أن تلقي مراسيها في بعض الجزر لقضاء الليل في أمن أجوائها. وعادة ما تتوقف في آخر محطة

لها في سيبولاوس، فتملأ خزانات المياه العذبة وتجدد مؤونتها من الخبز الطازج والبصل الغضيض، أما الزيت والزيتون والفواكه المجففة فقد حملت منها كفايتها قبل الإقلاع.
وعندئذ يرتجى بلوغ البر الإفريقي في غضون ثلاثة أيام أو أربعة، تبعاً لجرأة الربان في اختيار ديرته ورهناً بقوة الرياح السائدة.

ويغيب البر عن الأنظار، فيخيم على الركاب فجأة وجوم ملؤه الأسرار ويتوجهون بالقرابين والصلوات إلى آلهتهم وأنظارهم لا تفارق خط الأفق. وعند حلول المساء ينهمك كل في تهيئة مرقده في المكان المخصص له. فهذا يلتف في الأغطية ويستلقي مباشرة على أرضية السطح، وذاك يضطجع على مقعد الجسر يحتمي من الرذاذ، وينزل آخرون إلى جوف السفينة يتمددون بالقرب من بضاعتهم، أو ينضمون إلى أفراد أسرتهم الذين لم يجرؤوا على مغادرة القاع ورزم المتاع منذ الإقلاع. ويظل الربان وحيداً جالساً إلى دفته، ينصت إلى أزيز الجؤجؤ المتصل وانزلاق الماء على جسد السفينة، ويرهف السمع متنبهاً إلى استجابة القلوع لدفع الريح وحركة السفينة على الأمواج.

وكان «فيثاغورس» يقضي لياليه إلى جوار الربان، ويمدّ البصر في أعماق المجرة يتبيّن بين الآلاف المؤلفة من النجوم المنثورة في صفحة السماء صور كوكبات أليفة: الكلب الأكبر، الطائر القيثاري، بنات نعش، الثريا. ويتأمل هذا المدى المعجز الدائم الحركة، محاولاً الانتقال ببصيرته إلى الضفة الأخرى لنهر النور، المتدفق عبر السماء، عساه يرى على شعشاع ضوئه تلك الجنات المتلألئة التي قيل له إنها مستقر الأرواح بعد الموت.

وفي فجر اليوم الثالث، انطلق صوت المراقب الذي اعتلى مرقبه في صدر السفينة منذ منتصف الليل لينبّه الربّان إلى أن البر بات على مرمى البصر. فيشق الفضاء رنين هذا الصوت المفاجئ، ولمّا ينبلج النور، بعد محفوفاً بزعيق طلائع الطيور وهي تحوم فوق السفينة وتعبث بعوارض صواريها، فيهبّ الركاب من مراقدهم ويسرعون إلى لمّ حوائجهم ويتجهون بأنظارهم إلى الأفق البعيد، حيث أخذ البرّ يبدو بين الفينة والفينة شريطاً رمادياً واهياً رقيقاً، يظهر ويغيب مع تموّر السفينة فيتأرجحون معه بين شكّ ويقين. ومع اقتراب السفينة من البر واتجاهها شرقاً نحو مصب النهر، بدأت معالم الشاطئ تتضح شيئاً فشيئا. ففيما عدا بقعة داكنة تشير من بعيد إلى مستنقعات مشارف الدلتا، تتعاقب الكثبان المتمورة والمسطحات الملحية في رتابة على امتداد ساحل موحش أجرد، لا ترى فيه سوى دوامات من الرمال، تندفع أحياناً في الفضاء إلى ارتفاعات شاهقة محولة السماء فجأة إلى صفحة بيضاء متوهجة. وينبئ ارتعاش غلالة النور في الخلف مباشرة، بتلك المساحات الفسيحة من الرمال المتقدة تحت أشعة الشمس وبامتداد الصحراء المتربصة الرابضة خلف الآكام الساحلية الخفيضة الجرداء.

وأشرفت السفينة على خليج رحب الأرجاء، يبدو آمنا في حماية لسان ممتد في البحر، فلم يتلكأ الربان خشية الانحراف والارتطام بالصخور القريبة، وليس في الخليج

على حد قوله سوى بضع قرى فقيرة يأهلها صيادون سرعان ما يتحولون إلى عصابات متأهبة للسلب والنهب، ما أن يضطر مركب في مواجهة الصعاب إلى الرسو فيه [1]. وما لبثت السفينة أن ولجت تياراً قاتم اللون يقذفه النهر بعيداً في مياه البحر ويصب فيه حمولته من الطمي والغرين. ها قد بلغت السفينة أول الأذرع السبعة، وهو ما يسمى الفرع الكانوبي لهذا النهر الخرافي ذي الألف دوامة الذي سمّي "النيل" نسبة إلى قتامة لونه[2]

عدلت السفينة وجهتها معاكسة مجرى النهر، الذي يضعف منسوبه لحسن الحظ في هذا الموسم. فهرع كل إلى مقعده للامساك بالمجاديف ومحاولة قهر ذلك الجمود المفاجئ الذي استولى للحظة على كل شيء، مبطئاً حركة السفينة وكأنها بوغتت بمقاومة مياه النهر الكثيفة الثقيلة. وما أن دخلت في مياه الدلتا حتى سكن الهواء فجأة واشتدت وطأة الحر والرطوبة المتصاعدة من السبخات.

وعلى جانبي المجرى الرئيسي للنهر، تنبسط على مدى البصر سلسلة من الكثبان الرملية والجزيرات، ومتاهات من المجاري المتلاقية والسبخات، والأقنية المتشابكة المتداخلة في أراض شاسعة معشوشبة تتمور على سطح الماء مباشرة وتموج بمشيئة التيارات وعبث الرياح، تضيع المعالم ويصعب التمييز بين اليابسة والمياه لفرط تداخلهما واختلاطهما تحت غطاء النباتات الطفيلية المراوغة. وتنفرج أحياناً مسطحات واسعة من المياه الصافية، كأنها طرق شقت ورصفت بأوراق دائرية، تغري بالسير عليها وتتفتح على صفحتها تويجات اللوتس وعرائس النيل الزاهية.

وعلى إيقاع نغم الناي الناعم المنساب، تضرب المجاديف الثقيلة برتابة صفحة الماء الساكن، ويسمع لها عند انتشالها صوت امتصاص لما تجذبه معها من نباتات رخوة وطحالب متشابكة لزجة، فتفزع من كل صوب جيوش الحيوانات المائية الصغيرة التي يعج بها المكان، وتفر مذعورة بحثاً عن وكر تلجأ إليه، فترى الضفدع والفأر المسكي والأفاعي ودجاج الماء تشق طريقها بين باقات البردي الفضية المرتعشة، وتنسل بين سيقان الأسل اللينة وأقصاب البوص القصيفة. وتنطلق من بين الدغيلات طيور "الهنق" ببياضها الناصع وقنزعتها الحمراء، رشيقة مستدقة، وقد أقلقها ضرب المجاديف فتلفتت في طيرانها تطقطق بمناقيرها الصفراء معاتبة. وبين الفينة والفينة ترى عند منعطف أثراً مقلقاً لتمساح يتسحّب في الماء ويغوص عائداً إلى الأعماق الوحلة فيملأ منظره قلوب المجدفين عجباً ودهشة.

وانتشرت هنا وهناك على مسطحات مهيأة بتعاقب طبقات من عيدان القصب المجبولة بالطين، أكواخ بيضاوية أو مستديرة مبنية بالبوص المجدول والمشبك بأشكال عجيبة.

---

(١) هو موقع راقودة الذي اختاره الإسكندر فيما بعد لتشييد المدينة التي تحمل اسمه.

(٢) «نيلوس» تعني باليونانية اللون الأسود.

وتمخر السفينة بقامتها المهيبة مزهوة براياتها الملوّنة وما علّق عليها من أنواع النذور والتمائم فتسرع النسوة إلى جذب أطفالهن اللاهين عرايا حول حجارة الموقد، ويتوارين معهم خلف الأعشاب العالية. ومع توغّل السفينة في الأراضي الداخلية، تبدو القنوات المفتوحة على المجرى الرئيسي مشذّبة نظيفة، وترى من حين لآخر قارباً ينهمك بقربه فريق من الرجال في تنظيف الضفاف بالمشاذب والماء يغمرهم حتى الوسط. وتنزلق على الماء، بين الفينة والفينة، زوارق طويلة ضيقة سوداء، يجلس قائدها على مسطحها الخلفي ويدير بمهارة مجدافه في الماء، وقد حمّلت أكداساً من الجلّة أو أكوام الأسماك المتلألئة أو جذامير نباتات يقتات بها أهل هذه البلاد. وتمرّ زوارق أخرى أكبر حجماً يعلوها مأوى نصف اسطواني من القش، يقودها رجلان يقفان في كل جانب، يتناوبان على غرس البردى عميقاً في القاع ثم يتشبّثان به ويتراجعان القهقرى دافعين المركب إلى الأمام، وبحركة خفيفة يقتلعانه ويهرعان إلى المقدمة. ويرى هؤلاء الثلاثية وهي تشق الهواء بقاطعتها المصفحة بالنحاس، وما يثيره غاطسها الثقيل من دوامات وأمواج فيحاولون الاحتماء بالضفة خشية على قواربهم من الانقلاب، ويطلقون صيحات طويلة ترحيباً بأولئك الغرباء القادمين من وراء البحار، من "بلاد الخضرة الدائمة."

وأخيرا تلوح بوادر الاقتراب من بعض المدن، إذ تبدو خلف ستار الأعشاب العالية ثم الشجيرات، كتل سوداء محدودبة متناثرة لجواميس ترفع رؤوسها اللامعة بقرونها العريضة وهي تواصل مضغ الأعشاب بهدوء غير عابئة بما حولها.

ولا تلبث أن ترتفع من الضفة صيحات الترحيب باللغة اليونانية، وتتكاثر الأكواخ والبيوت المبنية باللبن والطوب، تبشر المجدّفين بقرب الوصول إلى نقراطيس التي شيدت بعيداً عن الساحل الموحش ووضعت تحت حماية الإله قبريس والإلهة أفروديت. وبعد أن مرت السفينة بأحواض مليئة بقوارب مرفوعة على اليابسة لإصلاحها، بدأت تستعد للإرساء بين سفينتين تفرغان حمولتهما على رصيف طويل مدعم بجذوع الشجر. وهرع أهل المدينة جميعاً إلى الميناء، ليتسقطوا الأخبار ويشاهدوا عملية التفريغ في عجيج وضجيج يعجز عنهما الوصف، أذهل الركاب فراحوا يتسلقون عوارض الصواري لكي يميزوا من عل الأقرباء والأصدقاء الذين جاءوا لاستقبالهم، ويحاولون في هذا الهرج والمرج جذب انتباههم بالإشارات والصياح. فكان يحظر على الركاب النزول إلى اليابسة قبل وصول كتبة الفرعون لتفتيش الحمولة وتقاضي المكوس، يلاحقهم أصحاب السفن وجمهرة الناس بنظراتهم الساخرة ويمطرونهم بوابل من عبارات التهكم والمزاح. ولما كانت نقراطيس هي المرفأ الوحيد المفتوح للتجارة مع اليونان بسبب الإحتكار الممنوح له، فقد تحوّل "بيت المينا" كما يسميه المصريون إلى مدينة عبور، هي عبارة عن قرية واسعة قذرة بنيت بغير طراز على مجرد شبه جزيرة مرتفعة في بعض المواضع ومحاطة في مواضع أخرى بالسدود لحمايتها من الفيضان.

كان ميليتوس، ابن عم فيثاغورس، في انتظاره في أسفل سلم السفينة، وما أن رآه حتى أقبل عليه يتفقد بلهفة الهدايا التي جلبها له من طرف أبيه كي يبيعها لتأمين عيش ابنه طيلة مكوثه في مصر. فتفحص الحليّ والمصوغات والأواني المقدسة وأخذ على عاتقه أن يبيعها بضعف الثمن المتفق عليه. وعرض على الفور استضافة ابن عمه واصطحبه إلى منزله عبر متاهات من الأزقة الضيقة الوسخة المفضية إلى أحواش تبدو من فتحات الأبواب الموارِبة مليئة بالأقذار وفضلات الحيوانات. وكان ميليتوس نفسه مع سعة ثرائه يقطن واحداً من تلك المنازل المؤلفة من حجرتين أو ثلاث تستعمل في الأغلب مستودعاً. وكانت دار ميليتوس زاخرة بشتى أصناف البضائع، تفوح منها رائحة كريهة لا تطاق وتعج بسحابات من الذباب الأخضر الضخم، تحوم فوق بالات من جلود الخراف المسلوخة حديثاً، وقطع الجلود البقرية المستّفة بعضها فوق بعض في أكوام تكاد تبلغ السقف. وكبر شعور الخيبة الذي اعتمل في صدر «فيثاغورس» منذ اختراقه أزقة نقراطيس برفقة ابن عمه، وتعاظم قنوطه لدى رؤية هذا الكوخ الضيق القذر، حيث لا يجتمع أفراد الأسرة إلاّ عند حلول المساء للمبيت، في حين يقضون نهارهم في الخارج يتفاوضون ويتناقشون. فما كانت تلك هي الصورة التي تخيّلها من بعيد، من ساموس البيضاء، عن معيشة أقربائه ولا عن مصر الثرية المترفة، التي طالما تغنى بها الرحالة والتجار الذين حلّوا في ضيافة أبيه.

كان يسع «فيثاغورس» من باب اللياقة أن يمكث بعض الوقت في نقراطيس، غير أن الليلة الأولى التي قضاها في منزل ابن عمه أثنته عن رأيه وجعلته يوطد العزم على الابتعاد بأسرع ما يستطيع. فقد بات ليلته تلك مستلقياً على الأرض الدهنية الخشنة، يهش أصناف البعوض والحشرات التي تكثر بسبب القذارة والمستنقعات القريبة، ويحمي نفسه من بنات وردان التي كانت تنطلق بغتة عبر الحجرة، وتئزّ أزيزاً قبل أن ترتطم بالجدران بقوة وتسقط عليه، فينتصب باشمئزاز ينفضها عن طيات ردائه، ثم يقصعها بقدمه العارية فتحدث فرقعة مقزّزة. ولم يكف الدجاج عن القوقأة والشجار طوال الليل، وقد أيقظته فيما يبدو جحافل الجرذان الزاحفة نحو المطبخ تبحث وتنقب بين القدور والأطباق مرسلة صريرها الخفيف المميّز. ويتصبب فيثاغورس عرقاً ويكاد يختنق في هذا المكان المكتوم، حيث يرقد ما لا يقل عن سبعة أو ثمانية أشخاص بعضهم فوق بعض، هذا يتقلب وذاك يهرش جلده في نخير وشخير لا ينقطعان، بل ويتحدث بعضهم في نومه بأعلى صوته. عقد العزم على أن يصبر حتى الصباح جالساً في أحد أركان الحجرة، ينصت إلى صوت العلاجم الأجش البعيد، ويترصد انبلاج الصبح من شق الباب. ومع طلوع الفجر خرج من المنزل بهدوء وتمطّى عند العتبة ثم توجه صوب الميناء. كان الضباب يغلف كل شيء حتى صعب عليه أن يهتدي ويميّز هيكل الثلاثية الراسية بحذاء الرصيف، وقد غابت قمة صاريها في طيات الظلام. وأخذت النسوة هنا وهناك يشعلن أولى نيران الصباح، بينما وقف بعض النوبيين يتبولون على الحائط أو في الماء، قبل أن يشدوا أنفسهم بأرسان جلدية إلى عربات ثقيلة من تلك التي تستخدم في نقل البضائع بين السفن من أجولة الأرز

والقمح وربط القش وأصناف الخوابي والجرار المنتصبة على حواملها الثلاثية. شرب فيثاغورس قصعة من لبن الماعز وأكل فطيرة مقلية بالزيت وراح يسائل نفسه: ترى أيعود إلى ساموس؟ ولكن هذا الضباب ينذر بانقلاب الجو وعودة الأيام الصعبة! ثم إنه لم يقدم على هذه الرحلة الطويلة سدى! وعندما ثبت على رأي أخيراً، كان قرص الشمس يطل من وراء المستنقعات. اتجه إلى دار ميليتوس فألفاه وزوجه جالسين في انتظاره على عتبة الدار، فدعياه إلى تناول طعام الإفطار. بدت له الغرفة غير واقعية وقد خلت من آثار الليل ولفت البسط في أحد أركانها، ولم يبق سوى بعض الذباب يحوم ويخط على أرضية مكنوسة مرشوشة، بينما حدجته دجاجتان واقفتان بلا حراك في آخر الحوش، ورمقته إوزة بطرف عينها وهو يعبر المدخل.

- يا ابن عمي الحبيب ميليتوس ! لقد استضفتني في بيتك العامر وأكرمتني ملبياً رغبات أبي وأمانيه. فلتباركك الآلهة وتبارك أهل بيتك جميعا ! أرجوك لا تغضب لما سأقوله لك، فما أقدمت على هذه الرحلة البعيدة طلباً للثراء ولا رغبة في العيش على نفقتك، إنما حداني طلب العلم والاستزادة منه وفي جعبتي بعض رسائل توصية من بوليقراطيس وعدد من نبلاء ساموس وليسبوس وميليطه، وثلاثة كؤوس فضية أروم تقديمها إلى من يرغب في تعليمي من كهنة مصر. فاسمح لي بطيب خاطر أن أؤدي مهمتي وأمضي لشؤوني بلا إبطاء.

- لم يغب عني تلهفك لمغادرة هذه المدينة والتوجه إلى سايس للمثول بين يدي فرعون. وحاشى أن أقف في طريقك! فلتصحبك دعواتي وأمنياتي. ولكن دعني أقدم لك هدية صغيرة إكراماً مني لوالدك وجميع أسرتك.

عاد ميليتوس بعد برهة يحمل في يده خاتماً صغيراً، حلقته وكرسيه من الذهب الخالص، بينما توسطه فصٌ صغير نصف كروي رمادي اللون ميالاً إلى الخضرة، تسطع على صفحته المحدبة نقطة نور في غاية الدقة، تتنقل في شتى الاتجاهات مع تحريك الخاتم، وترسل بصيصاً غريباً هو التوهج الوحيد الصادر عنه، يخفت في ضوء النهار ويشتد في الظل عند اطباق اليد حوله.

- "اقبل مني هذه الحلية يا ابن مينيسارخوس الكريم، يقال إنها قادمة من بلاد ما وراء البحار وتنسب إليها فضائل سحرية خارقة. يسميها صنّاع المجوهرات هنا "حجر القمر" لأنها تضيء في أحلك الظلمات.

توجه فيثاغورس إلى سايس عن طريق القنوات ولم يكف طوال الطريق عن تأمل الخاتم ومساءلة نفسه: ترى ما هو هذا الإنعكاس الغريب للقمر في مجرد حجر ؟ وكيف يمكن للعنصر الأكمد أن يبلغ هذه الدرجة من النفاذ والصفاء؟ وهل يعقل أن يكون جسم مادي عادي شاهداً على مسار الأفلاك ومرآة للقبة السماوية، فترجّع المادة من لدنها نور القمر حتى في غياب القمر؟ أفلا يعني ذلك توسّعاً أن هذه المادة قادرة في بعض أجزائها

أن تنفتح على الكون بأسره، وتضم في طوايا ظلماتها الحميمة أسراراً أخرى لا بد من استجلائها في يوم من الأيام؟ أفليس التفسير الوحيد هو أن العالم المعدني والأرضي هو، أسوة بهذا الحجر، نسخة معيبة ومختزلة عن العالم السماوي، وصورته المصغّرة؟ أفلسنا نحن أنفسنا إذن، وقد خلقنا على صورة الآلهة، رسوماً معكوسة ممسوخة لذلك الكمال الإلهي الذي يتعذر علينا اليوم أن نستوعب منه إلاّ النزر اليسير؟ فما بين اللامتناهي في الصغر واللامتناهي في الكبر، ولأن الواحد منهما إنما هو مرآة للآخر، لا بد توجد في حيّز ما أجسام وسيطة وكيانات سامية تربط بين الاثنين، وتكون الممر الدائم بين "المماثل" و"المغاير"، صور مجردة جالسة إلى جانب الآلهة هي النماذج والقوالب التي تشكل في بوتقتها الكل الأعظم.

ولكن كيف الوقوف على هذه الصور التي لا تشخيص ولا وجود محسوساً لها؟ استغرق فيثاغورس في فكره، فتملكه شعور غامر بأن هذه الصور الأزلية الثابتة إنما هي كامنة في صميم الواقع وفي قلب الآن، ويمكن للعقل في كل لحظة أن يكشف عنها طي الظواهر وكل منا يتعامل معها رغما عنه. وإذا ما عميت عنها الأبصار فما ذلك إلاّ لفرط صفائها، فهي شفّافة للأنظار ولكنها مفتوحة على العالم الآخر.



الوثيقة رقم ٣

إزاء قلة النصوص وإزاء الغموض المحيط بالفترة التي قضاها «فيثاغورس» في مصر، فكرنا أن نتصل مباشرة بمن نعتبر آراءه الحجة في هذا الموضوع. فقررنا أن نكتب رسالة شخصية إلى المؤرخ وعالم المصريات الألماني فريدريش ستيللر- هاوزر نطلب منه أن يمدنا بتفاصيل العلاقات والتأثيرات التي يراها بين بعض السمات المحددة للديانة المصرية وبين نظرية «فيثاغورس» في الأرقام.

وببساطة شديدة رد علينا العالم الألماني من فوره. وبدلا من أن ننسب إلى أنفسنا المعلومات الثمينة التي زودنا بها رأينا توخياً للأمانة أن نحصل على ترخيص منه وننشر خطابه كما هو:

سيدي العزيز،

لقد تفضلتم بالكتابة إليّ تطلبون معلومات معينة عن إقامة «فيثاغورس» في مصر. وإذ أشكركم على ما أوليتموني من ثقة فإني أعترف لكم بأن معارفي بدت لي في أول الأمر غير كافية للرد على استفساراتكم. ولعلكم تدركون أن ما يتوافر لنا من عناصر ليس إلاّ قليل القليل، غير أنه يسعني بعد اجراء بحوث سريعة أن أؤكد الأمور التالية:

عندما وصل «فيثاغورس» إلى العاصمة سايس مثل أمام الفرعون أحمس، "صديق الإغريق وحامي حماهم" الذي جدد لهم حق احتكار نقراطيس. فرحب به الفرعون وشمله بعطفه واطلع على رسائل التوصية التي كان يحملها إليه من بوليقراطيس، طاغية ساموس، وقبل منه ما قدم له من هدايا ثم أوصى الكهنة بالغريب خيراً فأكرموا وفادته.

عاش فيثاغورس عدة سنوات في عزلة لا نعرف عنها شيئاً، سوى أنه اجتهد كل الجهد في استيعاب لغة البلاد والالتزام بطقوسها. ويبدو أنه بسبب تصميمه وصدق طويته تغلب شيئاً فشيئاً على عداء الكاهن الأكبر سونشيس الذي لم يكن يميل إلى الغرباء وأهمله طوال تلك الفترة. ولكن «فيثاغورس» أحرز من أشكال التقدم ما انتزع به إعجاب الرياضيين حتى صار مع الوقت واحداً من خلاّنهم. وعلى أيدي المساحين تعلم ذلك الفن الصارم العسر، فن استعمال الحبال لخط أشكال معقدة على التراب، وهكذا تلقن أصول الهندسة وأخذ يحصي على المعداد ما يتحقق له من نتائج. وسهر الليالي ممدداً على ألواح الزيج يحاول أن يستدل على مواقع النجوم من خلال تشابكها، واكتشف أن مسار الكواكب الذي ظاهره الثبات والاستقرار يتعرض لتغيرات طفيفة جداً ولكنها محتومة، وأن القبة السماوية تدور ببطء حول الأرض وفقاً لحركة مركّبة وحول عدة محاور بدا له أنه يمكن بالاستناد إلى فصول السنة حساب زواياها ومن ثم تسجيل تغيراتها.

لذلك يعتقد أنه تفرغ لعبادة الإله توت وأخذ يمارس طقوسها. وأغلب الظن أنه في البداية كان يلج، وملؤه الخشية، باحات تلك المعابد المظلمة الضخام الحاوية بين جدرانها الهائلة صوراً ملغزة لآلهة قاسية غضوب. وربما لم يتح له إلا عرضاً أن يشاهد تلك الشخوص المقدسة التي كانت تملي شرائعها بجمع من العلامات المحفورة في الحجر. وكان توت - كما يسميه في لغة الإغريق أو جحوتي باللغة المصرية - إله العلماء يصور عادة في هيئة إنسان له رأس قرد وأحياناً رأس ايبيس، وهو طائر مائي معروف في وادي النيل من فصيلة طويلات الساق، ذو منقار طويل دقيق به تقويسة خفيفة. ومما يفيد ملاحظته في هذا الموضع هو أن المطلعين على بواطن الأمور كانوا من جانبهم يرسمونه في شكل مثلث متساوي الساقين رمزاً للكمال الرياضي والمعرفة المطلقة. وكانوا يقدسون توت لأنه لسان بتاح ذاته، والكلمة التي اتخذها الإله الأعظم أداة لخلق العالم وتنظيمه. كان توت إذاً إله الكلام الذي اتخذته الآلهة مستشاراً وكاتباً لها. كان يعتبر مخترع الكتابة ومن الأهمية بمكان بالنسبة للموضوع الذي يشغلكم أنه، لكونه إلهاً قمرياً، كان يعتبر أيضاً أول من اعتمد على الدوران الأزلي لهذا الكوكب حتى يحدد بدقة مسار الزمن ومن ثم تعداد الأيام بواسطة الأعداد الأولى التي أنشأها.

وإلى جانب كونه إله الكتابة والعدد فهو يقرن في كثير من الأحيان بالإلهة ماعت التي تحفظ النظام على وجه الأرض، ذلك النظام الكوني الذي أراده الصانع لدى خلقه العالم وتتهدده باستمرار قوى العماء التي لم يتسن إخضاعها نهائيا.

(وفي هذا الصدد كثيراً ما جرى الحديث في قديم الزمان عن احتمال وجود طائفة عاشت في مصر قرب القرن السادس الميلادي، ظلت مؤمنة بالديانة المصرية القديمة وإن عبدت لذاتها قوى العماء تلك، الناشطة في الكون. وأنا لا أدري إذا كان كل ذلك حقيقيا. وقد ذهب بعضهم إلى القول بأن هذه الطائفة كانت لها ارتباطات بالجماعات الفيثاغورية الجديدة في ذلك الزمن وأنها طردت من الحركة لقيامها بتمجيد الوعي الغامض بالخلاء، وهو ما لا ينذر فقط بهدم سلسلة الأعداد الصحيحة متحدياً ما بها من تماسك ومنطق وإنما يفضي أيضاً إلى إهدار ترتيب العالم الحقيقي الذي كان الفيثاغوريون الجدد يدعون أنهم القوامون عليه).

وعلى أية حال فإن «فيثاغورس» لا بد فهم على الفور أهمية توت الجوهرية بالنسبة لسلطان ماعت، إذ أن هذا النظام الكوني لم يكن ليحفظ لولا مطابقته للعدد الذي يمكن رد كل شيء إليه.

لعلكم تلحظون إذاً، سيدي العزيز، أن «فيثاغورس» امتلك أثناء السنوات العشرين التي قضاها في مصر جميع العناصر التي صارت فيما بعد أساساً لنظريته الكونية القائمة جميعها على عبادة العدد.

وإذا كانت معارفي في هذا الموضوع لا تتجاوز ما سبق فإني أتمنى أن تجدوا مع ذلك

في هذا الخطاب رداً شافياً على سؤالكم. وإن لم يكن الأمر كذلك فلا تترددوا في الكتابة ثانية، وتفضلوا... .

ف. ستيللر- هاوزر

الوثيقة رقم ٤

إن النص الوارد فيما يلي، مثله مثل الكثير غيره مما وجدنا، غريب لعدة أسباب، كما أنه يدعو للشك فيما يتعلق بمطابقته للحقيقة التاريخية. فكأنه من تلك النصوص التي طالما جرى تعديلها في محاولة يائسة للتوفيق بين مذهب يعود عهده إلى زهاء ألف عام وبين الحقيقة الرياضية الجديدة لذلك الزمن، ألا وهي اكتشاف الصفر الذي لا أثر له في نظرية معلم ساموس.

وفي ظهر هذا النص المكتوب باليونانية كمعظم النصوص التي عثرنا عليها في الجرة إشارة إلى أنه ليس سوى ترجمة لقصيدة لاتينية يعتقد أنها ترجع إلى عصر شيشيرو على وجه التقريب. فمن المعروف أن روما شاهدت ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد نهضة للدراسات الفيثاغورية ربما كان صانعها نيجيدوس فيجولوس، الذي بسبب ذلك نفاه القيصر سنة ٤٥ قبل الميلاد بتهمة التآمرعلى سلامة الدولة. وشيشرو ذاته في كتابه «الجمهورية» يأخذ الكثير عن أفلاطون ويعتبره الامتداد المباشر لفيثاغورس، وهو لم يتردد في الذهاب بنفسه إلى ميتابونطي ليبحث عما عسى أن يعثر عليه من شهادات ووثائق تتعلق بحياة المعلم وبالطائفة القديمة التي انتشرت هناك لفترة من الزمن.

وأول ما يلفت النظر في هذا النص هو ما ينقصه من وحدة التأليف. وفي حين يبدو في ظاهره نصاً واحداً يتضح فيما بعد أنه ينقل روايتين متعاقبتين لواقعة بعينها. فإما أن يكون المؤلف اكتشف خطأه أثناء الصياغة، وإما أن تكون القصيدة أهملت ثم عاد مؤلف آخر أوسع علماً واسترسل فيها.

يتعلق الموضوع بما يحكى عن دخول فيثاغورس هرم خوفو، وهو الهرم الأكبر الذي كان آخر مرحلة عليه اجتيازها لبلوغ نهاية درب المعرفة. ويقال إنه تلقى عندئذ وحياً بالوجود السري للعدد متجسداً في الحجر، مجرداً كل التجريد. وإلى جانب ما يحيط من شك بالحدث ذاته، ينفي الكثيرمن المؤرخين المعاصرين وجود ممر سري إذ لم يعثر له البتة على أثر . وفي رأي بعض المهندسين المعماريين أنها مجرد فتحة أعدها مقدماً آخر العمال الذين كان عليهم أن يظلوا محبوسين في الهرم حتى يحكموا إقفال فوهة الرواق الكبير من الداخل ومهدوا لأنفسهم منفذاً سرياً لينسحبوا منه.

والغريب في الأمر أن القصيدة تضم في نصفها الأول وصفاً لمقبرة حقيقية، في حين أنها لا تشير في جزئها الثاني إلا إلى صرح خال من كل لحد، وهو ما يطابق الحقيقة التاريخية، ما دمنا نعرف اليوم أن الهرم لم يدفن فيه أي فرعون. فمن أين استمد صاحب هذا التغيير معلوماته؟ لانجد تفسيراً لذلك إذ أن المعروف أن أول من اقتحم "رسمياً" هذا الصرح وكشف أنه "خال" إنما هو الخليفة المأمون - وكان ذلك في القرن التاسع الميلادي.

أما فيما يتعلق بطائفة "عبدة الصفر" فمن السهل أن نتصور ما قد استنبطه أفرادها من هذا النص: إن هذه الكتلة الحجرية المشيدة والمركبة جميعها حول مركز خال، لم تكن في نظرهم سوى تمثيل مجازي لهذا العدد الخالي من كل مضمون والمخفي في صميم الأشياء، وصورة لجمهرة الأعداد الصحيحة اللامتناهية، تحجب وجوده وتسعى إلى منع الوصول إليه. وهل كان لفيثاغورس، وقد تجلت له حقيقة العدد عبر انسجام نسب القاعة الجنائزية، ألاّ يهتز وجدانه أمام تلك الحجرة الخالية الواقعة تماماً عند تقاطع خطوط القوى؟ إن الرد على هذا السؤال في نظر أفراد الطائفة وبناء على ما نعرفه عنها إنما يسهل تخمينه: فلأن فيثاغورس أدرك هذا الأمر بكل وضوح، سعى فيما بعد إلى الهروب من هذا الانعدام المفاجئ لكل واقع وإلى "كبته" في أعماق نفسه. وفي النهاية نسوق هذه الجملة المقتبسة من محفوظات الطائفة وإن كانت بكل أسف منبتّة من سياق لم يبق منه شيء:

" كأن كل جهد العد مجرد سعي الذات إلى أن تخفي عن نفسها هذه البديهية: حضور ماثل، حضور اللاشيء والموت في كنه الفيض الغامر من الأعداد والكم."

في البيت الطيني المطل على النهر، ظل «فيثاغورس» ممدداً على سريره المجدول، يتأمل السقف المعرش بجذوع النخل الغليظة، فشرد ذهنه إلى تلك البللورات الضخمة الثلاث التي يقال إنها مقابر أعظم فراعنة مصر القديمة. تلك الأهرامات ذات الصفحات المتباينة بين ظل ونور والتي قاس زواياها وسطوحها جميعاً، يراها في لياليه تلامس عنان السماء. هناك ما يدعوه إلى الافتراض أنها مع إحكامها الظاهر تضم سرداباً سرياً لم يتوصل بعد إلى تحديد موضعه. وفي نهاية الأمر عندما تأكد «فيثاغورس» من حساباته ومن برهانه ذهب إلى كهنة هليوبوليس لإقناعهم بصحة فرضه فاكتفوا بصرفه دون أن ينبسوا بكلمة أو يظهروا أي انفعال .

وفي ذات ليلة جاءه صياح الخادمة العجوز تناديه من خارج الفناء. كان يقف عند المدخل عبد يحمل أمراً من الكاهن الأعظم همليس بالسير إلى المعبد. فقفز «فيثاغورس» إلى جانب الحوذي الذي أطلق جياده تردي في الأزقة الترابية المحفوفة بجدران عالية ترجّع صدىً مكتوماً لحوافر الخيل في الرغام. أخبره الكهنة أنهم بعهد السر وتكملة لطقوس المسارة، يمنحونه حقاً يعتبر من ضروب الجنون منحه لغريب، وهو أن يدخل "دار الموتى" لا يرافقه سوى عبد من العبيد.

كان الدرب المؤدي إلى تل الأهرامات الثلاثة متروكاً مهملاً يتعذر على العربات السير فيه. فلزم الصعود إليه على ظهور الخيل كما لزم انتظار حلول الليل. هذه الصروح وإن كانت لا تزال في حالة جيدة، فإنها لم تعد تلك الأماكن المسحورة التي شهدت فيما مضى المواكب تدور فيها تمجيدا للإله رع وإجلالاً لخوفو الذي يجسده على الأرض. ولا يزال بعض الفلاحين يقيمون بأطراف المنطقة في قرى بنوا بيوتها بحجارة جمعوها من المقابر القديمة. وعلى الرغم مما يبديه السكان من لا مبالاة إزاء هذه الأكوام من الصخر المنحوت،

فإنهم في الواقع يكنون لها مشاعر التقديس المشوبة بالخشية والتطيّر. لذلك كان مستبعداً أن يسمحوا لغريب أن ينقب في الآثار على هواه.

سارا في طريق محاذ لشاطئ النيل، وكان العبد يتقدم «فيثاغورس» يتوقف بين الفينة والفينة ليتبين معالمه في دمس الليل. أما «فيثاغورس» فظل متيقظاً حذراً حتى أنه للحظة ظن أنهم يريدون ايقاعه في كمين. وفي فترات منتظمة كانت تمر بهما ثلاث من الجنود المسلحين يحملون المشاعل، ينبثقون عند المنعطفات بارزين من بين ثنايا الظلام أو من مكامنهم وراء الجدران فيكتفي العبد بأن ينطق ببعض الكلمات وأن يخرج من ملابسه شيئاً لم يستطع «فيثاغورس» أن يميزه، ربما هي شارة يبرزها في حركة سريعة، فما أن يراها الحراس حتى يتقهقروا مفسحين لهما الطريق.

وعند منتصف الليل أخذا يتسلقان ما تبقى من السكة القديمة، لا يكادان يتبيّنان في قمتها كتل الأهرامات الكبيرة الداكنة المتميِّزة المستندة إلى النجوم. وتقدما على بلاطات جيرية كان معظمها مفككاً منفصلاً، واجتازا صفوفاً من الأعمدة، ثم بلغا بوابة بدت نسبها مدهشة بفعل الغبشة والسواد، واستمرا في الصعود بينما كانت الرياح تهب باردة في تلك البقعة التي غدت فجأة مكشوفة معرضة من كل جانب. وإذ ارتجلا رأيا من تحتهما النهر لا مبال شبه ساكن تبرق صفحته الملساء في الدجى تعكس كالبرنيق اللامع كل الضوء المنتشر الخافت المتساقط من الزوايا الأربع للقبة السماوية.

في هذه اللحظة رفع العبد أصابعه إلى فمه مصفراً. فإذ برجال مسلحين يندفعون من جنبات المقبرة القديمة ويمسكون بألجمة الخيل. بدا «لفيثاغورس» أنهم من أهل الصعيد وبينهم بعض النوبيين. وأوضح له العبد أنهم أولئك المرتزقة الذائعو الصيت الأوفياء للأمبراطورية، والذين يوقفون على حراسة المعابد الجنائزية والقبور الملكية لسبب بسيط هو أنهم من قبيلة ايسابور التي لا تريعها أهوال الليل. ويقال عنهم ويا للعجب أنهم رجال بلا دين لا يعترفون بالآلهة من أي جنس، وأن معتقداتهم تتجاهل بكل كبرياء حياة الروح في العالم الآخر، ومن ثم امكانية عودة الموتى إلى الأرض.

واصلا السير في مسالك يتتابع فيها الرمل والزلط مخلفين وراءهما الأهرامات الثلاثة الصغيرة الثانوية التي يقال إنها قبور الملكات، وظلاً متجهين بين الكتل الداكنة لمعابد لم يبق منها سوى أجزاء من واجهات هائرة متصدعة تحيط بأبواب مفتوحة على الخلاء. وبجانبها حفر فاغرة، ربما كانت في الأصل أقباء أو دياميس قديمة نهبت في الماضي ويكاد يملؤها الرديم، تكشف لهما في قاعها ما يشبه طاقاً أو بداية سلم حتى انتهيا إلى سفح الهرم الأكبر فاضطرا إلى الإلتفاف حوله من الجهة الشرقية. وظلا سائرين يستهويهما جمال الطلاء الأبيض الناعم الذي يكسو تلك المستويات المائلة الواسعة التي يصعب تقدير أبعادها لشدة ما تبديه عند القمم من استهراب في لجّ الليل دون ركيزة واحدة يستدل بها البصر. وحول القاعدة الرئيسية طريق مبلط يبدو أنه كان معبداً فيما مضى، ولم يتبق منه

سوى بعض الأجزاء منها المتهدم ومنها المغمور في الرمال. وعندما بلغا الواجهة الشمالية تحولا عن الطريق ملتفين حول ركام ظنه فيثاغورس أنقاضاً منهارة، ولم يكن في الواقع سوى أكوام حجارة اقتلعت من الجدار وكدست في هذا المكان تمهيداً لنقلها.

وبين كل هذه الصخور والحصى وجدا رجالاً على علم بمجيئهما يزيلون الكتل بواسطة عتلات من القضبان الحديدية الكبيرة ويزيحون الرمل والحجارة بأيديهم إلى أن بلغوا بلاطة مستديرة ركزوا الجهد عليها جميعاً فانصاعت لهم فجأة وتدحرجت جانبا. وانفرجت تحت الرمال هوّة فاغرة سوداء يبدو أنها فتحت بين الأحجار وتوارت تحت الرديم. وبسرعة تأكد العبد من وجود شعلته في كيسه الذي تقلده تحت ثوبه، ودونما انتظار انبطح أرضاً وزحف على مرفقيه في الفتحة حيث غاص فيها واختفى. وللحظة تردد «فيثاغورس» تحت وطأة نظرات الحراس ملؤها الإحتقار والسخرية ثم انحنى ودخل برأسه في الفجوة.

زحف «فيثاغورس» بضعة أذرع في الدهليز الضيق يتلمس الطريق أمامه لئلا يصطدم رأسه بالنتوءات البارزة من كتل الحجر المنحوتة بغير انتظام، وفجأة، وربما لأن العبد في الطرف الآخر انفلت لتوه فأجلى الفرجة، اشتم «فيثاغورس» رائحة المقبرة وألفى نفسه يتوقف، لا ليلتقط أنفاسه وإنما ليلتقط تلك الرائحة ويحل رموزها. رائحة خالها باردة وكانت ثقيلة محمّلة بالأبخرة والروائح النتنة المتراكبة تراكب الألوان أو التعريقات في الخشب، متمايزة يكاد يتبين كل عنصر من عناصرها، رائحة ليست برائحة الجيفة أو التراب أوالعفن، وإنما هي رائحة ثياب بالية تركت في سرب فأصابها العطن، أقمشة ورياش متنسلة تهرأ نسيجها لالتزازه بجنبات المومياء، وتجمد في بعض الأماكن بفعل المراهم المتيبسة. ثم نفحات الزيوت الزنخة الحامضة الصادرة من عطور تبخرت وذبلت، لم يعد يستشعر منها إلا سواغها من زيت الكتان أو الصمغ وجوز القات المسحوق والدهون الشتى. ويغلب على كل ذلك فوح خبيث يتصاعد من جرة غير محكمة الإغلاق فيها أغذية فاسدة تخمرت بفعل الهواء والزمن . أما القرابين المقدمة طعاماً إلى الآلهة كالخبز وحبات الفول، فتنبعث منها رائحة ألطف وأدق كالريح الخفيفة التي يخلفها الطحين حين يعرض للهواء، هي على أية حال رائحة أطعمة مقددة يبست منذ زمن بعيد، وتحولت إلى نسافة لم يبق من قوامها المفقود سوى ذلك الفيح الطيّار الحرّيف الذي هيّج سعاله .

ثم عبق الأطياب البلسمية والعطور المحببة إلى الآلهة التي تصاحب الفقيد في رحلته تحميه من الفساد. بعضها بكر كأنها جديدة منتصبة في الهواء، زكية كالزعفران المقدس أو حتى منفّرة كالسنا له فعل السحر أو الدواء. وتتضوع الأصماغ المختلفة وحب الهال المنثور على الأرض، والأشنة المودعة في أكياسها الصغيرة، والعنبيات المتيبسة المتراكمة في الأركان، وتنتشر أرائج لينة طلية تكاد تلمس بالبنان معلقة في الهواء خلّفها احتراق المر واللبان. وروائح أخرى صادرة من قوارير مهشمة أو من أقداح مهرقة انطوت على نفسها وتحمّضت. وعطورنادرة دسمة لدنة تمددت مع الوقت وانتشرت حتى فاض بها المكان.

يشتم فيثاغورس رائحة خمجة تتخلل جميع الروائح الأخرى، رائحة عرق عنيدة وإن كانت واهنة سجنت عنوة في هذا القبو وحبست فيه حيّة تعبر الزمن بمفردها. وإلى خياله تتداعى أطياف أولئك المتسللين، أكفهّم مبتلة وآباطهم تنضح بأحماض الخوف، نهابون مدنسون ينتهكون حرمة المقابر، كفار على أية حال، في أفئدتهم ثبات التصميم وفي أوصالهم رعدة الخوف، لا يكفون عن اطلاق السباب بالهمس في السرائر بين دعاء وتجديف. لعلها في النهاية رائحة دماء... .

أخيرا يخرج «فيثاغورس» رأسه من الفتحة وينتصب بتمهل ممسكاً بنتوءات الجدار ينفض رداءه مما علق به من رمل، وإذ تطأ قدمه أرض السرداب الذي اتسع فجأة نفذت إليه رائحة الحجر منشورة ملساء كتيمة، عبق أصم كالذي ينبعث من صوانة تشظى، عبق تلك الكتل الجرانيتية المنحوتة بضربات الإزميل أو حرق المنشار، انطوى على نفسه وبرد وتصلّب عبر القرون، فغدا رائحة ثابتة كالحاجز الصلب، يصطدم بها المرء، جاسئة تكاد تكون بلا روح، راكدة كصفحة المياه، سطح بلا عمق ... .

(هنا يتوقف النص في صورته الأولى. أما الصفحات التالية التي كتبت بخط مختلف وفي زمن لاحق، فإنها تلتقط حبل الرواية في نفس الموضع، ولكنها تؤكد بوضوح أن الهرم الأكبر لم يكن في وقت من الأوقات قبراً للفرعون خوفو، وهو ما لم يفسره علماء الآثار حتى يومنا هذا).

يظل «فيثاغورس» مستنداً إلى الحائط لا يجرؤ أن ينتزع يده منه، ولو ليصلح من ردائه أو ليتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، وتجيش نفسه فزعاً من أن يقع بغتة في غور منصاح شق أمامه للحول دون نبّاشي القبور- الآلهة وحدها أعلم بما أوتي المهندسون القدماء من حذق ومهارة في سبيل حماية الأكفان من عبث اللصوص! فها هو يقف بلا حراك تلفّه غياهب المكان لا يرى شيئاً في هذا السواد. الأصوات ذاتها تبدو له غير مألوفة، حتى أنه يتساءل بمنأى عن أي منطق، هل هو نفذ إلى قاعة غير مرسومة في الخطط التي اطلع عليها؟ كل صوت من الأصوات مهما ضؤل يرتد متفرقاً ثم يتنامى بنقاء عجيب. لحظة ويتخيل أنه يسمع على بعد ما يشبه التنفس، فيعنّ له أن يأمر العبد بأن يلزم الصمت ويكف عن محاولة إسعار الشعلة دون جدوى. فماذا لو كان في الحجرة الجنائزية من يبصرهما واقفاً على عتبة المدخل؟... . هذا الهاجس لا يبوح به فيثاغورس للعبد مخافة أن يهزأ به، وإنما يستجمع كل ما في نفسه من كرامة المواطن الإغريقي الحر حتى لا يستسلم للذعر المروّع الذي يعتصر صدره ولا يذعن لفورات الهلع التي تغمر جسده. فيستحث العبد على إيقاد الشعلة ويظل في سرّه يقظاً متحفّزا.

يعاود العبد المحاولة مرة بعد مرة، يقدح الحجرين فتتطاير شرارة تلامس المشقة ولكن الشعلة نفسها تحترق ولا تستعر، وبين راحتيه ينفخ في الجذوة فيضيء سناها قسماته القلقة. الجو فاسد لا يتجدد مشبع بالأبخرة المسمومة والغازات الضارة حتى أن

النار يصيبها الإختناق من قلة الهواء، فيخطر «لفيثاغورس» أن يحمل الشعلة إلى مستوى المنكبين فإذ بنارها تنشنش، ثم يرفعها إلى أعلى فتنتفض في سكنتها ويسيل الصمغ على مقبضها، ويبرز اللهيب ظلين عملاقين يتراقصان ويتواثبان على الجدار.

ينبهر لتوه بما يراه من جمال صارم أجرد. فهو يقف أسفل رواق عظيم حادر، شقّ في وسطه سلم يضيع سقفه السامق في حلكة الظلام. أما طرفه فإنه بعيد بعيد لا يتبيّنه إلاّ لماماً من خلال قبس الشعلة الذي يحجبه الدخان، ومن بين الإنعكاسات والظلال المنبعثة من اللهب المنتفض يترا ءى له مربع داكن كأنه اطار باب.

يتردد فيثاغورس في ارتقاء الدرج. فقد أخذته الرهبة اذ أوشك أن يصل إلى قلب الهرم الأكبر. ويبقى أسفل السلم يحدق في المنظور الذي يبرزه امتشاق مختلف الخطوط الهاربة وانتظام الخرجات المضلّعة الممتدة على الجانبين متدرجة حتى السقف تحتضنه، ويبدو له أن الغاية من هذا التصميم هي تجميع تلك الحزم من الخطوط الأفقية حتى تتّحد في النقطة النهائية لذلك الباب العالي، فكأنما مثل أمامه هروب الزمن هروباً محضاً هندسيا. ولا شيء على هذه الاستقامة، لا شيء يمكن أن يستوقف النظر أو يكبح هذا الشعور بالإنزلاق والضياع. وبدا له أن ارتقاء السلم سيدوم دهرا . . . .

يحاول «فيثاغورس» أن يتبين مصدر دهشته ويتفحص كل شيء بعناية. فأي علاقة سرية أقيمت بين زوايا الصرح وأبعاده، وأي ائتلاف غامض أودع في نسبه، وانعكس كاملاً في انسحاب الرواق المستدق، أثار في نفس «فيثاغورس» ذلك الشعور الطاغي بتوازن كامل تشوبه سنّة خلل، وبامتلاء عارم تعتوره هنّة نقص، وكأنما انبثق أمامه من طوايا حياته ذاتها شيء ما لم يدرك كنهه، ولمس في ارتعاشة بدنه امتداد وجوده، ثم تلك اللحظة الرهيبة التي ينقلب فيها الوجود في غمار الموت، لحظة الدفعة الخفيفة تعطيها قدم على الشاطئ لقارب الموتى المزركش الماضي في رحلته الغامضة إلى عالم الآلهة السفلي.

يعلم «فيثاغورس» أن في هذا المكان يكمن العلم الخفي لقدماء المصريين وبناة المعابد. فلا حاجة إلى الرسم أو الهيروغليف لبيان المعاني وتصوير المدلولات. وقد سبق له أن تأمل في المعابد الأخرى المنتشرة على ضفاف النيل، تراكب الكتل والأحجام وفقاً لخطوط قوى معينة وطبقاً لحسابات دقيقة لم يقف بعد على حقيقتها، فانكشفت له تلك اللغة المجردة التي لا يفهمها سوى المطلعين على سرها، واتضحت له معالمها شيئاً فشيئاً في مناظراته مع كهنة ممفيس. أفلم يأت هنا لاستجلاء هذا الحدس؟

بعد فترة سادها الصمت عزماً على ارتقاء الدرجات المؤدية إلى حجرة الملك فصعدا الهوينى، درجة درجة، والشعلة بين أيديهم ترسل بريقاً أزرق كأن بعض الأبخرة السامة تحترق حولها. و«فيثاغورس» إذ يضيق به النفس يتكئ إلى ذراع العبد الذي يتفصد عرقا ويرتعش ارتعاشاً خفيفاً رغم دربته واعتياده على ارتياد تلك الأقباء. ربما أدرك رغم جهالته أنه يخل بالترتيب المتأصل في هذه البقعة المقدسة المحرمة على الأحياء.

بلغا أخيراً قمة السلم وتبدد خوفهما شيئاً فشيئا. و لجا طرقة ضيقة أفضت بهما إلى عتبة الحجرة الجنائزية، قاعة عالية واسعة مستطيلة جدرانها ملساء مكوّنة من كتل عظيمة من الجرانيت الوردي المصقول، بانت لهما خالية تماماً فارغة إلاّ من أنقاض وحصي لا تزال منثورة على أرضها. لم يسع فيثاغورس أن يكتم شعوراً بالخيبة يريد أن يكبته، واندفع في الغبش إلى ركن من أركان الحجرة لمح فيه شيئاً ما يشبه التابوت، لما اقترب منه وجده مجرد حوض بلا غطاء منحوت في كتلة واحدة من الحجر الأسود غير المصقول كان من الواضح أنه لم يضم رفات أي فرعون قط.

توقف «فيثاغورس» يجيل النظر في المكان فصدمه وحيّره التفاوت الشديد، بين بلبلة ذهنه وهياج نفسه إزاء العجائب التي كان يتوقع مشاهدتها، وبين اللامبالاة غير الإنسانية التي يتسم بها التابوت المزيف والسكون المنبعث من الاستقامة الهندسية التي شيد بها الصرح في جميع أجزائه المرئي منها والخفي.

بعد أن تسلق «فيثاغورس» الرواق الكبير ووصل منهك القوى إلى هذه الحجرة البسيطة السوداء، كان لديه إحساس بأنه بلغ أقاصي العالم، غاية رحلة طويلة شاقة، وجال في خاطره أنه يواجه الصورة المجردة لأمر مقضي. ومع بلوغه الرّدب مصطدماً بنهاية هذا الممر الأصم الذي لا منفذ له، أحس من ورائه أن فخاً أوصد عليه محيلاً دونه ودون أوهامه. وفي هذه الحجرة المطلة على الأبدية لم تفتأ الحياة، شأن الأمواج المتلاطمة على حاجز الميناء، تلقي الواحد بعد الآخر عبر القرون، رجالاً مشدوهين مذهولين أمام هذا الموت الماثل في ترتيب محكم خال خارج عن الزمن قدر لهم وحدهم أن يتأملوه. وفي حين تكتظ المقابر الأخرى بطائفة من الأشياء المنظمة وفقاً لطقوس معينة وعادات صارمة متصلبة درءاً لمهاول الرحلة الأبدية، فإن الداخل إلى هذه الغرفة غير راغب في تحطيم هذا الترتيب المقدس يتاح له أن يستغرق في تأمل الموت فيراه في صلبه ومبدئه. فها هو «فيثاغورس» الذي مرّسه الزهد وأنضجه التقشف، يفتتن لبّه ويأخذه الدوار لرؤية هذه الحجرة العارية من كل زخرف، تشل حركته غياهب صمتها السحيق.

هذا الخلاء ولا شك لم يصمم اعتباطاً وإنما صمم لتحويل انتباه المشاهد عن سر يخفيه، يكمن مفتاحه في انعدام المعالم. يوقن «فيثاغورس» أنه جيء به أمام لغز عليه أن يجد له حلاً، وأن في مقدوره أن يحله ما دام الكهنة الذين أمضى سنوات معهم يتلقى تعاليمهم ويمارس طقوسهم أذنوا له أخيراً بأن يواجه ليل الهرم الأكبر وأن يدخل في "دار الأسرار" كما يسمونها بحق أو "أخيت خوفو" أي "الأفق الكبير" ويسمونها أيضاً "عين خوفو".

لعلها المرحلة الأخيرة التي على المريد اجتيازها؟ مرحلة الإمتحان الأخيرلصلابة جأشه، إن استسلم لشعور الخيبة مني بالهزيمة وانتهى إلى الضياع. خرج فيثاغورس من الغرفة لحظة ثم عاد إليها بنظرة جديدة. دار حول الحجرة دورة كاملة ببطء شديد ماسحاً

بكفه على صفحة الجدران الملساء. لديه اعتقاد بأنه فكّ اللغز ولكنه مصمم في هذه المرة على كبح جماح لهفته. يتكشف له في الحال جانب من الحل في فجاءة التناسب بين أبعاد هذه الحجرة البسيطة. ولكن هذا التناسب لا يتسنى إدراكه إلاّ لمن ينتزع من نفسه غريب الشواغل، كأن يروم جثة فرعون أو كنزاً مكنوناً في أركان الغرفة. فالعقل المتحرر من تلك القيود هو وحده القادر على أن يتأمل من الداخل ذلك الشكل الخالص المجرد.

بادر «فيثاغورس» إلى قياس أبعاد الحجرة بالإبهام والسبابة، ثم فك من حول وسطه حبلاً من السعف المجدول وواصل قياساته على ضوء الشعلة التي يحملها العبد. يجدّ في نقل الطول والعرض والارتفاع والقطر على مخطط صغير يستعين به فيما بعد لتذكر تلك البيانات وتفسيرها.

يتجهان نحو الباب ويطفئ العبد الشعلة دافعاً بها إلى الأرض فيعم الظلام من جديد، وتسود «فيثاغورس» غمرة من الرضا ما كان ليشعر بمثلها لو أنه دخل حقاً قبر الملك خوفو، يدرك أنه اجتمع لديه ما يمكنه من اكتشاف مبدأ هذه القوة المجردة التي هي أصل الكون والتي تضم عناصره في أكمل صورة.

عندما نفذا من الفجوة وتدحرجت وراءهما الحجرة تغطيها الرمال والأنقاض من جديد، كان بياض السحر يلوّن خط الأفق وينشر ضوءاً هزيلاً لم يحتمله «فيثاغورس» على ضعفه فأدار اللجام غير عابئ بالعبد وانطلق عائداً إلى هليوبوليس قبل أن تلحق به الشمس.

أمضى عدة أيام حبيس منزله بين يقظة ونوم يتحقق من حساباته، ثم ينقلها على مخطط مصغّر، وخلص إلى أن كل القياسات تستند إلى وحدة أعلى تنسقها جميعاً، فارتفاع حجرة الملك مثلاً يعادل نصف قطرالمربع المزدوج الذي يؤلف قاعدتها، كذلك فيما يتعلق بالنسبة الهندسية بين موقع حجرة الملك وموقع حجرة الملكة وميل الرواق الكبير، كان يخلص باستمرار إلى نتيجة واحدة هي أنه، أياً كانت وحدات القياس المستعملة ينتهي الحساب دائماً إلى عدد من الثوابت، توحي بأن المبنى إنما هو الصورة المعمارية لبضعة أعداد رئيسية. وهذا ما يضفي على المبنى في نظره اتساقه الطبيعي، كأنه يشع من داخله، يتجلى فيه حضور العدد ويجسده في صوره المختلفة. فالهرم ممهور بالقوة السحرية الكامنة في النسب المثالية التي تحكم أبعاده، عليه أن يسهر على الفراعنة القدماء في رقادهم المفروض وفي خلودهم، وعليه أن يتحدي الزمن رابضاً بزواياه المنفرجة، منيعاً غير آبه لصروف الدهر، حتى أن الملك أمون امحت الثالث قال إنه "يروّع الخلود". استعاد «فيثاغورس» عبارة شاهدها في معبد من معابد رمسيس الثاني تقول إن "هذا المعبد صنو السماء في جميع نسبه" فتصور وجود علاقة قائمة بين اتجاه الهرم والمحور الذي تدور حوله بعض الكواكب وعلاقة بين هيكل المبنى ذاته والنظام المحرك للقبة السماوية.

في حالة تشبه الهذيان أو الرعدة الذهنية، حضرته صورة الهرم بسطوحه المحددة

وزواياه القاطعة وأضلاعه الحادة، كثيفا كثافة الكتلة المادية المتراصة بين جوانبه، كأن العدد تجسد بغتة في الحجر وتحقق أمام عينيه في صورة تخرق الظلام باشعاع كمالها. تلاحقه في لياليه الصورة الجوهرية لمثلث أسقط في الفراغ هرماً رباعي السطوح، عظيماً ثابتاً متألقا.

يكفي إذن ربط بضعة أعداد أساسية بعلاقات نسبية حتى تمثل في الوعي القوة المجردة التي يحتويها العدد في ذاته، إله كامن منبعث من ثنايا تناسب الأشياء يتجلى في شكل هندسي بسيط لا يسع المرء إلاّ أن يخر أمامه ساجدا.

الوثيقة رقم ٥

يتفق بعض الشراح على أن «فيثاغورس» لما أدرك أن جيوش فارس بقيادة الملك قورش على وشك اجتياح مصر وتدميرها، هرب عن طريق بلوزيوم إلى فلسطين ومنها إلى بابل. بينما ذهب آخرون إلى أنه شهد سقوط مصر، ولكنه نجا من المذابح بصفته مواطناً إغريقياً واقتيد سبياً إلى بابل. ولا يزال من العسير في الحقيقة التوفيق بين هذه الوقائع وتاريخ حدوثها، غير أن الكثيرين يعتقدون أنه اختلط أثناء إقامته المفترضة في بابل ببعض أفراد الجالية اليهودية المهجَّرين من أورشليم بعد غزو نبوخذ نصر لهذه المدينة، ويظن أغلب المفسرين أن اتصاله بهؤلاء قبيل تحريرهم على يد قورش والسماح لهم بالعودة إلى وطنهم، كشف له عن مبدأ التوحيد، وهو مبدأ يتفق ومنطق الأعداد وحقيقتها ويسمو بذلك على التصوّرات التعددية السائدة آنذاك في بلاد اليونان بل وفي مصر.

وظلت هذه الرواية متواترة لدى الكثيرين وخاصة في مدينة الأسكندرية التي أصبحت في أواخر عهد الجمهورية الرومانية من أنشط مراكز الدعوة الفيثاغورية. بل شارك اليهود أنفسهم في إحيائها وكانوا يشكلون جالية كبيرة فيها. فإلى جانب فيلون اليهودي، الذي كنّاه كليمانت الاسكندري فيما بعد بالفيثاغوري، والذي حاول التوفيق بين التوحيد والفلسفة الهللينية الموروثة عن أفلاطون، تذكر فلافيوس يوسيفوس مؤلف "حرب اليهود" حيث أشار في معرض حديثه عن انقسام الجالية اليهودية إلى فريسيين وصدّوقين، إلى وجود طائفة الأسينيين (وعرفوا باسم "الانطوائيين" أو "الصامتين")، وذكر أنهم كانوا يلتزمون في معيشتهم مبادىء «فيثاغورس»، فانصرفوا إلى التنسّك وعزفوا عن الزواج ومارسوا شيوع الأموال وتبريك الطعام قبل تناوله جماعة ودرجوا على ارتداء الملابس البيضاء.

وفي عهد أغسطوس وتيبيريوس جاء أيضاً ذكر جماعات من النسّاك، انتشروا خاصة في المناطق المقفرة المجاورة لبحيرة ماريا (مريوط) حيث أنشأوا الأديرة، وكانوا يسمون "المطببين " أو "الفلاسفة النظرانيين"، وانصرفوا إلى التأمل في الأعداد ومارسوا ديانة قائمة على علم الأعداد وحساب القياسات. ومن عباداتهم تكريس "اليوم السابع" (الدائم النقاء) واليوم الخمسين (المحسوب وفقاً للنظرية المسمّاة "نظرية فيثاغورس" بجمع مربّع أضلاع المثلث القائم الزاوية $٤^٢ + ٣^٢ + ٥^٢ = ٥٠$).

فيبدو إذن أننا نستطيع إسناد النص الوارد فيما يلي إلى أحد أعضاء طائفة "عبدة الصفر "من اليهود، الذين أنقذهم انتماؤهم إلى هذه الجماعة السرية مما وقع بإخوانهم من تقتيل وتشريد بأمر البطريرك كيرلّوس. فوصف بعبارات مفعمة بالحياة إقامة «فيثاغورس» في بابل جامعاً على الأغلب بين عدة تراجم مختلفة لحياته. ويرجح أن

الفصل الأخير الذي يصف فيه كسوف الشمس قد أضيف في زمن لاحق، في أواخر عهد الطائفة، وقصد به دون شك الدلالة على أن المعلّم قد أدرك من خلال هذا الحدث، كيف أن العالم معرض في كل لحظة لأن يغرق في الظلام، إذا ما أمكن طرح قيمة ما من أخرى مساوية لها تماماً، واستشعر من ثم وجود الصفر واحتمال زوال الإله إذاك زوالاً نهائيا.

تحوّل «فيثاغورس» عن الدلتا متجها إلى مدينة بيلوزيوم، وهي الموقع الحيوي والمركز التجاري الذي تتجمع فيه القوافل المنطلقة إلى فلسطين وبلاد بابل. كان الطريق شاقاً طويلاً يخترق بلاداً عانت طويلاً من ويلات الحروب. وتجنباً لغارات اللصوص وقطاع الطرق المنتشرين في هذه البقاع السورية، قرر قائد القافلة أن يخرج بها عن الطرق المألوفة ويسلك دروباً أأمن وإن ندرت فيها منابع المياه. لم يكن ثمة ما يهتدى به في تلك البراري الشاسعة اللهم إلا بعض صوى من الحجارة نصبت بين الحين والحين. واجتازت القافلة قفاراً واسعة، حصباء مفروشة على مدى البصر بحصى سوداء قاطعة تكثر فيها العقارب والفئران السمية، وتموج وكأنها البحر تحت وطأة أشعة الشمس الحادة. وعلى الرغم من الحر الذي أضنكه حتى أنساه ظمأه ولسع القروح الدامية في قدميه، حثّ «فيثاغورس» الخطى خوفاً من اتساع المسافة بينه وبين الناقة المتمايلة بأنفة ورشاقة أمامه، وهي نقطة هدايته الوحيدة في هذه الفلوات الصلدة المشوّهة الأبعاد.

ولما أفرغ القوم آخر قطرة من الماء الآسن الباقي في قعر القرب، لاحت أولى بساتين النخل الممتدة على ضفاف الفرات وارتسمت وراءها في الأفق البعيد ملامح مدينة عظيمة بأسوارها وأبراجها الضخمة هي مدينة "أري – شار" كما يسميها قواد القوافل أي "مدينة الكلية"، تحف بها سهول غنّاء ترويها وتزيدها طلاوة شبكة هائلة من الأقنية طالما شقي إخواننا اليهود المهجّرون على يد نبوخذ نصر في حفرها وكسح الرمال عنها. وفيما كانوا يستريحون ويروون عطشهم عند أطراف أرباض المدينة بين الدور الأنيقة والبساتين الغنّاء، بلغهم أنها استسلمت لتوها لجيوش الفرس دون إبداء مقاومة تذكر. ذلك أن قورش كان قد وعد برد سلطان وعبادة بعل مردوك كبير آلهة بابل الذي طرده نابونائيد ، فاستقبل أهل المدينة فاتحها في سرور وبهجة استقبال الظافر المنقذ.

كانت المدينة عظيمة حقاً، تمتد على طرفي مجرى الفرات، يزنّرها سور مزدوج هائل يتسع لعربتين تسيران جنباً إلى جنب، فتحت فيه أبواب محصّنة بمتاريس ركنية ومجازات محكمة للتفتيش والمراقبة، وتعلوه أبراج خارجة منيعة. وبدا من وراء هذا الخط الدفاعي الأول منظر مشوش لأبنية تداخلت في غير نظام لا ترى منها عن بعد سوى قراميد معابدها الكثيرة، وسلالم جانبية ترقى إلى أسطح مزدانة بشرفات مسننة، وقصور وحدائق معلقة ترتعش سعف النخيل من فوق جدرانها العالية. ولما تعذر على القافلة دخول المدينة لاكتظاظها بالجموع التي احتشدت للاحتفال بعودة الإله مردوك المظفّر، اضطر «فيثاغورس» إلى تركها والتحق بأفراد الجالية الإغريقية الصغيرة المقيمين في بابل

يعملون في التجارة أو في البلاط الملكي. فرافقه الطبيب ديموقيدس عبر الشوارع المرصوفة بالحجارة الصقيلة حتى بوابة عشتار التي سيلج منها الموكب إلى المدينة. وتحت بابها العظيم الذي فتح مصراعاه الثقيلان المكسوان بصفائح النحاس المطرق بدت طلائع الموكب تتقدم تحت تهاليل الجماهير وزغاريدهم، بدءاً بثلات الجنود المدججين بالحراب والتروس تتبعهم عربات النبلاء بجيادها الأربعة يحف بها الرماة من كل جانب. لم تكن نفس «فيثاغورس» لتأنس لمظاهر القوّة الغاشمة هذه فانتحى في ظل بوابة يتأمل تلاعب أشعة الشمس في زرقة الطوب المزجج التي كسيت به الجدران الممتدة على جانبي الدرب المقدس، ويعجب لتلك التنانين المجنحة التي برزت من سماكة الحائط في شكل أسود وثيران مخيفة من الخزف المبرنق، وبدت بين شريطي الإفريز المزخرف بسعف النخل والتويجات البيضاء وكأنها تسير هي الأخرى مع الموكب وترافقه.

ما أن استولى قورش على بابل حتى أمر بإعتاق جميع الشعوب الأسيرة المستعبدة، وسمح للجالية اليهودية بالعودة إلى أورشليم. وأتيح «لفيثاغورس» بواسطة أصدقائه الإغريق الإختلاط بالمجوس والمنجمين الكلدانيين، وقدر له أن يحضر الأعياد التي أقامها كبار الكهنة احتفالاً بعودة شعب إسرائيل إلى وطنهم، وهنا تكشّف له مبدأ التوحيد، وهو الركن الأساسي لديانة العبرانيين، إذيعتقدون أنه لم يكن منذ البدء ولن يكون إلى الأبد سوى إله واحد، لا إله غيره هو الإله القدير العليم.

وتروي بعض الأساطير أنه ابتعد ذات يوم عن صخب المدينة وساحل النهر يبحث بين النباتات المائية وأغصان القصب عن ركن هادئ يستحم فيه ويريح جسده المنهوك. وما كاد يتجاوز وحل الضفة الفاتر ويتوغل في مياه النهر الثقيلة المنعشة حتى أشرق عليه نور الوحي، فأيقن أن كثرة الأعداد ليست البتة دليلاً على تعدد الآلهة، بل أن في إحكام نظامها ذاته ما يوحي بوجود مبدأ واحد هو صورة واحدة لا شريك لها. فالأعداد لا تنتشر في الخلاء انتشاراً فوضوياً لا ضابط له، بل هي تتوق جميعاً إلى الإلتقاء في محل مركزي ربما كان هو ذاته عصيًا على الإدراك. ففي المنطق الداخلي للأعداد التسعة الأولى التي تحتوي "بالقوة" سائر الأعداد، ما يدعو إلى الإعتقاد بوجود قوة فاعلة تشدّها جميعاً إلى "الواحد الأوحد"، وتسعى إلى ردّها إلى عدد مطلق يتضمنها كافة. أوليست الأعداد بمنطقها الداخلي هذا دليلا على كمال النظام الإلهي وتمامه، وفيها تتجلى آياته وتكمن رمزيتة المجردة!

في ذلك الوقت كان اليهود يتقاطرون من شتى بقاع البلاد، ويتهيأون للرحيل على عجل للانعتاق أخيراً من أسر مدينة هي بحق المدينة الفاسقة، مجمع الأمم ومنزل الأصنام الرحب، وهي بلا شك "البغيّ المشهّرة". فساد الهرج والمرج دون أن يثني ذلك «فيثاغورس» عن ملاحقة الكهنة والإلحاح عليهم بالسؤال وليس من جواب يشفي غليله، فيسير بغير هدى وسط فوضى الإستعداد للرحيل يتعثر في الخيام المطوية وصرر المتاع،

تعصف في رأسه الحمى المحيطة به وتعن له صور وطنه فيشتاق ويجيش قلبه بالحنين. ولكنه في نفس الوقت وبنفس الحمية يستنجد بكل ما أوتي من حذق رياضي، ليترصد بلا هوادة ذلك الحضور اللامادي المجرد كل التجريد، المترائي له غامضاً خلف رشاقة البراهين الهندسية وصرامة القوانين الفلكية. فينكب في ضراوة على الأعداد ينسقها ويعالجها في تراكيب وإنشاءات شتى إلى أن يصل بها، من خلال واحدة من تلك العلائق المثلى التي تجعلها تتداخل وتتراكب في انسجام شبه سحري، إلى النقطة التي ترتد فيها على ذاتها وتتكشف له في حركة استدارتها، فيخيّل إليه عندئذ أنه ضبط على حين غرّة صورة ذات الإله.

وفي خضم تلك البناءات المعقدة، يلفي نفسه يعود دائماً الى أول الأعداد الذي يحتوي بالقوة سائرها وعنه تفيض سلسلة الأعداد اللامتناهية، يعود إلى الواحد، اللامنقسم الذى لا يختصر إلى ما عداه، كشأن كل ما يأتي بعده في السلسلة اللامحدودة من الأعداد الصحيحة، وكلها ترجّع عبر المكان والزمان أصداء ألوهيته. هو الواحد الذي فيه يتذكر أصل العالم نفسه: لا شيء قبله، وكل ما يأتي بعده ليس سوى تكرار لذاته، أضعافاً أضعافاً إلى ما لا نهاية. وإذ "بالموناد"، الجوهر الأول والأبدي، يتحد في ذات صورة "الكل"، صورة "التام" " الكامل في ذاته"، الذي لا يعقل شيء قبله ولا شيء يعقل بعده.

ولما كان الله يتجلى ويتجسد في الأعداد، وكان في اتساقها برهان ملموس على وجوده كأنها هيكله المنطقي بل صورته المادية، فالله في كليته لا يمكن إلاّ أن يكون معياراً. فمجرد وجوده كفيل وحده بتعريف العالم المتجسد فيه بحدود العالم التي تمتد وراءها مملكة الشواش واللاتعيين. وعقل الإنسان عاجز عن تصوّر هذه البقاع الخارجة عن سلطة العدد المتروكة من ثم في حالة متوحشة مضطربة، فريسة للعماء، بل هي مملكة اللامعقول المقيتة. هنا يسود سلطان ما لا قياس له ولا أبعاد. ويستشعر «فيثاغورس» بغموض أن حدود العالم هي تخوم المعقول التي يتعذر على العقل تجاوزها، وكل ما وراءها ظلمة بلا معالم ولا نظام، عالم المادة الخام، غمر مسكون بكائنات مرعبة، وأغوال مبهمة مغلّلة إلى الأبد في قيود نقصانها، لأنها بعيدة عن روح الله القادرة وحدها على تزويدها بالشكل. ربما كانت أيضاً الإمتدادات الشاسعة للعدم ومملكة اللاشيء الخارجة عن نطاق الزمن، وهذا ما يأباه عقل «فيثاغورس» وينفر منه، وهو أبغض إليه من كل ما يمكن أن يصدر عن خيال العامّة من تصورات. فوفقاً لمبادئ الديانة الحسابية التي هو بصدد إنشائها، لبنة لبنة، يظهر الله في صورة "المصالح الأكبر"، الكفيل وحده بأن يتغلب على فوضى اللامنطق، هو السور المنيع القادر دون غيره على التصدى لهذا الخلاء الذي يبدو محيقاً بالكون من كل صوب.

بقي «فيثاغورس» فترة في بلاد الرافدين بعد رحيل اليهود عنها، رغبة في

مشاهدة الكسوف الكلي الذي تنبأ به الفلكيون الكلدانيون منذ زمن. صعد معهم عبر سلالم لا تكاد تنتهي إلى قمة الزقورات، وهي عبارة عن أبراج عظيمة مبنية بالطوب المشبّك بالقار تشرف بقامتها الشاهقة على أهم حواضر بابل وتعلو بالمشاهد فوق طبقة الغبار الآتية من الصحراء. وسهروا ليال طويلة على أسطحها يترقبون هذا الحدث الذي يعتقد العرافون والمنجمون أنه ينذر بشر مستطير. ولما وقع الكسوف، وعلى الرغم من اتفاقه التام مع حسابات «فيثاغورس» مما كان من شأنه أن يطمئنه، لم يسعه إلا أن يقف مصعوقاً أمام زحف ذلك القرص الأسود في مجال الشمس ليحجب عين نورها ثم يطفئها تماماً، مرسلاً على الأرض نفحات باردة قارسة شلّت حركة الدواب ودفعت بالناس حشوداً إلى المعابد يسجدون لآلهتهم مستعطفين مسترحمين.

ففي هذا النظام الكوني، وهو النظام الأمثل في تصميمه والأحذق في ترابطه واتساقه، توجد اذن في مكان ما نقطة عمياء، زاوية ميتة تحمل الموت بدورها، يلغي النور فيها نفسه، يوجد عنصر ما، أكمد قادر في كل لحظة أن يقف حاجزاً بين الإله ونور الإله. اضطربت نفس فيثاغورس إذ لمس وجود تلك القوة المولّدة للظلام متوارية في زرقة السماء اللامحدودة، وساوره الشك للحظة في إحكام نظامه نفسه. أفلم يتعجّل في افتراضاته المحضة في تخليص بنائه الرياضي والديني القائم على كمال الأعداد وانسجامها من تلك القوة اللاغية غير المنضبطة المماثلة تماماً للظلام المتولد في هذه اللحظة عن كسوف الشمس، والكفيلة بالإطاحة يوماً بأبلغ البناءات المنطقية إحكاماً، مقوضة أسس يقينياته الثابتة الراسخة!

ما هي هذه القوة اللاغية ومن أين جاءت؟ هل نجمت عن مجرد عيب في آلية النظام ومن ثم فهي حادثة عارضة، أم أنها في حد ذاتها جوهر متميّز، مظلم وشفاف معاً، قابع أبداً في قلب أشد النظم كمالاً، بل ربما كانت متولدة بالذات من فرط هذا الكمال؟

الوثيقة رقم ٦

عندما غادر «فيثاغورس» بابل عائداً إلى وطنه لنشر تعاليمه في ساموس نفسها كان قد خلص على حسب ما نعلم إلى نتيجتين: الأولى أن الأشياء هي ظواهر الأعداد،[١] أي أن كل ما في الكون خلق بناء على النظام الأصلي المتجسد في الأعداد، والثانية أن اتساق الأعداد ومعقوليتها المطلقة تفترض وجود إله واحد، هي مجرد وسائط له وشواهد عليه.[٢] والعالم خاضع في كليته إذن لمبدأ توحيدي يضفي على كل شيء أبعاده ونسبه، وينبذ بعيداً قوى العدم والظلمة دون أن يلغيها تماماً، بل يدفعها إلى أقصى أقاصي الكون كلما تجلت الأعدادالصحيحة في أتم وجه وأجمل انسجام. ففي عالم يحمل في ذاته كل أسباب كماله، يكفي لبلوغ الكمال الأخلاقي والسياسي الإنفتاح على الأعداد وجعلها القوامة على سلوك الفرد وتنظيم المجتمع.

تلك كانت العناصر الأولى للعقيدة التي رغب «فيثاغورس»، وفشل للأسف، في إنشاء أولى جماعات تلاميذه على أساسها، بدءا بساموس نفسها. فالمدينة كانت قد تغيرت، وكان الطاغية بوليقراطيس وقتها في أوج سلطانه فباشر مشروعات انشائية عملاقة أدت إلى نشر الفساد والروح المادية بين أهلها، فانصرف هؤلاء إلى عبادة المال والإنغماس في ملذات الحياة ناسين التقاليد العريقة في الزهد والتصوف التي عرفت بها ساموس حتى ذلك العهد. ولما أدرك فيثاغورس عبث تعاليمه ووجد نفسه معزولاً عن حياة مجتمع مدينته، قرر الرحيل عنها أسوة بالكثيرين من أسر ساموس العريقة، الذين اضطروا إلى ركوب البحر مهاجرين إلى مراكز بيرانتة وبيزانثة وهيرايون تيكوس في اقليم بروبنتيدة.

وهنا تدور أحداث هذه الرواية المتنازع فيها إلى حد ما والتي تروى هبوط «فيثاغورس» إلى العالم السفلي. فيقال إنه اضطر إلى النزول في ديلوس بعد أن كادت عاصفة عاتية أن تحطم مركبه مراراً على صخور جزر سيكلاديس. وفي ديلوس التقى بابيمينيدس الفاوستي ودعاه هذا إلى مرافقته في حجته إلى كريت والنزول معه إلى كهف جبل ايدا. ففي هذا الكهف هيكل مكرس للإله زوس، الذي يحكى أنه قضى في ذلك المكان ردحاً من الزمن بعد أن انتزعته أمه من براثن أبيه كرونوس، وعاش فيه يقتات من لبن الماعز أمالثيا. ووراء الهيكل ينتهي الكهف بمدخل يحرسه الكهنة، ويعرف بأنه واحد من المداخل القليلة التي ينفذ منها عبر باطن الأرض إلى مملكة الجحيم و"منازل العالم

---

(١) وهي الصيغة التي استعملها تلاميذه فيما بعد في كتاب «الكلام المقدس».

(٢) أوضحت زوجته تيانو هذه الفكرة بعد موته بزمن فقالت «إنه لم يقل إن كل شئ صادر عن العدد، بل إن كل الموجودات شكلت وفقاً للعدد لأن العدد كامن في النظام الأصلي».

الآخر".

وتعددت التفسيرات الخيالية لهذا الحدث ومنها مثلاً تفسير ديوجين اللاترسي الذي قال :" يقول هيرونيم إن «فيثاغورس» نزل إلى الجحيم ووجد هناك روح هيزيوديس مقيّدة إلى عمود تصرخ ألماً، وروح هوميروس معلّقة على شجرة تحيط بها الثعابين، وعلم أنهما استحقا هذا العذاب الأليم لما اختلقاه من قصص وروايات عن الآلهة."

واهتم عبدة الصفر بطبيعة الحال بهذه السيرة وفسروها تفسيراً خاصا بهم، إذ وجدوا فيها أفضل وسيلة لتأكيد انتمائهم المباشر إلى معلم ساموس. فهم يعتقدون أن «فيثاغورس» وجد نفسه أخيراً من خلال هذه المحنة في مواجهة العدم الأصلي الموحي بفكرة السفر. ولأول مرة تجلّى له في هذا المكان وجود عدد ليس بعدد، وجود خاو احتفظ بسره حتى آخر لحظة من حياته، بل لعلّه كبته في أعماقه لأسباب غامضة معقدة سوف نعود إليها في وقت لاحق.

ومن العناصر التي وجدناها في معبد الطائفة عنصران يؤيدان هذا التفسير الذي تبناه فيما بعد في القرنين السادس عشر والسابع عشر بعض الفلاسفة الإنسانيين، مثل داسيبوديوس وايريبنيوس وهويت، الذين أرادوا إنكار الفضل في كشف بهذه الأهمية على غير الرياضيين الإغريق، ويقصدون الهنود كما سنرى. وهي نظريات نقضتها البحوث الحديثة كما نعلم.

العنصر الأول هو لوحة من النحت البارز منقوشة على أحد جوانب تابوت الحث الوردي الذي يتوسط المحراب واستعمل في الغالب مذبحاً لطقوس الطائفة. ونورد فيما يلي وصفاً موجزاً لهذه اللوحة.

عند مدخل الكهف جرّد « فيثاغورس» ورفيقه من ملابسهما وأدّيا باشراف الكهنة القائمين على حراسة الكهف جميع الطقوس التطهيرية والأضاحي التي تفرضها الشعائر. وبعد أن تجرعا أكواب الأشربة المقدسة، دخلا من منفذ ضيق إلى قاعة فسيحة في جوف الأرض تزينها نوافير تتدفق فيها المياه من حوض إلى حوض، وتبيّن بعد إمعان النظر أنها متكلسة جامدة وكأنما سيل الزمن نفسه توقف في هذا المكان. ووجد المريدان أمامهما طريقين : طريق إلى اليسار يؤدي إلى "الليثه، نهر النسيان والشرور" وآخر إلى اليمين توجه نحوه الشخصان، يفتح على رواق عريض مظلم تتوسطه شجرة سرو مغشاة بالملح، تمتد وراءها بحيرة "الذكرى" مرآة لماعة صقيلة بمائها الرائق الشفاف المثلج . جثيا على ركبة واحدة وشربا منها بيد واحدة ثم لفظا العبارات الشعائرية وتدثرا بفروة خروف أسود كانا أودعاه عند المدخل ليحميهما من هذا البرد القاتل الذي غمرهما فجأة، فما كان منهما إلاّ أن استلقيا على الرمال الناعمة الرطبة المحيطة بمياه البحيرة الداكنة.

وفي داخل التابوت عند موضع رأس الميت نقش يردد العبارة التي يلفظها المريدون قبل التوغل في غياهب الموت :

أنا ابن الأرض والسماء المتلألئة
اغفري لي يا «ريا» جرأتي وظمئي،
فما يحدوني على آثار أورفيا
وحتى منازل الظلمات والموت
سوى شغفي بالحقيقة وليدة العدد.

ذلك هو العنصر الأول، وهو لا يبدو لأول وهلة بذي شأن ولكننا وجدناه مطابقاً تماماً للروايات المتواترة التي بلغتنا. يضاف إلى ذلك النص التالي المستمد من محفوظات الطائفة ولعله أكثر إفصاحاً وايضاحاً. وقد أدهشنا فيه الدقة في اختيار العبارات والألفاظ لوصف الرحلة الباطنية، بل غياب الحشو الميثولوجي الذي يزخر به عادة هذا النوع من الروايات، مما يوحي بأنه كتب في وقت متأخر عندما كف عبدة الصفر نهائياً عن الإيمان بوجود أي إله وإن ظلوا متمسكين بتقاليد الزهد والتصوف في بعض جوانب فكرهم. وهذا النص وعنوانه "حلم فيثاغورس" لكاتب مجهول الهوية، وهو يندرج ضمن محاولات عديدة تكررت عبر القرون لإعادة كتابة سيرة المعلم بما يتفق مع التطورات الحديثة التي شهدها علم الرياضيات على مر العصور.

ففي ذلك الوقت انشقت الطائفة إلى تيارين متنازعين: تيار يعتقد أصحابه أن تعاليم فيثاغورس أصبحت بالية ولا تترك أي مجال لتصوف حقيقي قوامه "العدد الخالي" أي لعبادة الصفر، ورغبوا من ثم التخلص نهائياً من هذا التراث الذي أصبح متناقضاً مع معتقدات العصر، ومن جهة أخرى أولئك الذين يزعمون بعكس ذلك أن كل التطورات الجديدة تجد بذورها في تعاليم المعلم، سواء أدركها بالحدس أو كتمها سراً في طيات نفسه حفاظاً على وحدة الجماعة، فحاولوا إثبات مزاعمهم وإن كان ذلك على حساب تحوير بعض النصوص واعادة كتابتها.

في جوف الكهف المقدس لفظ «فيثاغورس» العبارات الشعائرية، فشاع خدر الموت في أوصاله واجتاحه مد عارم يحمله برفق على موجات مركزية متلاحقة ترفعه تارة ثم ترميه لتشده ثانية في دوامتها... موجات خالها نابعة من أعماق ذاته تدفعه في حركة متسارعة مطردة إلى نقطة نور ضبابية تبتعد بلا هوادة إلى ما لا نهاية. أحاسيس لا تكاد تعدو أصداء رفيف أو ومضات ضياء توحي له بأن طريقه محفوف بكائنات نورانية أو قوى مبهمة، لعلها صادرة من لحمه ودمه، من جسده الرازح تحت عبء الخدر الثقيل، صور غامضة ملغزة تنثني عليه في رقاده حانية تارة وجافية أخرى.

راوده فيما يشبه الحلم أنها ربما كانت الصور المحسوسة للأعداد تسعى إلى لقائه، أو لعلها انفلتت من كيانه المتحلل إلى عناصره وانصدعت إلى جواهر أولية هجرت مادة بدنه،

فآل هذا وقد فقد النفحة اللامّة لأجزائه إلى مصيره المحتوم إلى غمار الفساد والفوضى : الأعداد الزوجية والفردية، الأولى والصحيحة ثم العدد الذهبي المتألق، تحدق به جحافل اللامعيّنات المخيفة تتحدى بفوضاها المنطق والعقل. رحلة عبر عوالم نور وضياء وصخب واضطراب ونشوة وافتتان، ثم بحور من الظلمات تميد فيها الأرض ويغور كل شيء... أساجيع لحوحة ممضّة، هدهدات رتيبة تتأرجح به إلى حد الغثيان والتهوّع لتلقيه فجأة في أحضان عناق صقيعي يحاول يائساً الإفلات منه، لمسات رفيقة ثم لسعات مرّة، تطويق، تشبّث، ثم شحنات عنيفة يتعذر تحديد مصدرها، وعود أخيراً إلى أكناف الدثارات الرحيبة الدفيئة... رحلة دامت سبعة وعشرين يوماً شهدت صراعات بين النظام والفوضى، البارد والحار، الأيمن والأيسر، المذكر والمؤنث... .

وانتهى المطاف إلى فترة هدوء شهدت من قلب فورة الألوان وصخب الأصوات انبلاج النور الأول مشرقاً ساطعاً ظافرا. خيل «لفيثاغورس» أنه سيفنى إلى الأبد في تأمل هذا الحضور المنتصر "للواحد" السرمدي الأزلي الباقي. ولكن ما كاد يتراءى له حتى راح يفقد قوامه وينحسر على ذاته كأنما أتت عليه ذات رهافته ورقته وانهزم أمام ذلك الجمود الذي احتواه فعجز عن التماسك في قيد سكونه.

وتتساح أفلاك تنسخ أفلاكاً، مدارات تتسع تنفرج تتبدد - هي صور الزمان المعطلة- أحس أنه بلغ مشارف فضاء صفر يرتد عند حدوده كل ما شاهده من قبل مهزوماً مضطرباً، أو يتهافت ويهور في مكانه كأنما صعقه مس ذلك النفث العظيم العاصف الماحي المولد الفراغ. ليس هذا بحيز ولا مكان هو أشبه بقوة عدوى جبارة تنال كل وجود، صورة العدم ونداؤه، مسامية نافذة لا سمك لها ولا قوام، صمت غريب يضيع فيه كل يقين.

نور لا شعاع له ولا ائتلاق، خلاء صاف ما كان ليتصور لحظة وجوده لو لم يجد نفسه منقاداً بلا مقاومة إلى هوّته الفاغرة، وما لم يحس في أوصاله قوة الامتصاص الهائلة المتولّدة من ذات الانحلال المتواصل لكل واقع يقترب منه. لا شيء هنا قادر على التعبير عن اللا شيء، وكل التصورات والتجريدات الإنسانية تظل عاجزة عن وصف فقدان الواقع ونفي الوجود، فما من كلمة ولا من رمز رياضي يوحي ولو بأدنى إيماءة ويعطي أقل فكرة عما هو، تعريفاً، مستعص على التعريف غير قابل للإدراك، عن هذا الإلتهام الدائب للمكان والزمان. أهو صورة الله المعكوسة وصفحته الخفية؟ وانتاب فيثاغورس اضطراب عظيم إذ أدرك أن ذلك خارج عن سلطان الأعداد، تلك الأشكال المليئة التي طالما صمتت عنه وأغفلت قوة التفريغ، هذه القاضية بلا هوادة على كل وجود الماحية للواقع المجردة الأشياء قوامها وكثافتها.

وعند الحد الفاصل بين عالم المعقولات وعالم الأهوال وقف «فيثاغورس» مضطرباً ذاهلاً أمام هذا الفراغ في ذاته، الباقي الى الأبد بعيداً عن الأفهام، والقياسات والمقادير وإن كان يضم في جوفه كالقضاء المبرم كل عوامل الإبادة والفناء. وأمام فوهة الظلمات

الفاغرة، والواقع ينهار ويزوع تحت قدميه وجد «فيثاغورس» نفسه منجراً لا محالة إلى الغمر الرهيب ، فاستجمع قواه وارتد بحركة لا شعورية إلى الوراء، وانتفض انتفاضة النائم الذي يخيل له لحظة الاستغراق أنه يوشك السقوط، واعترته رغبة غامرة في انتشال كل كيانه من إغواء الذوبان في هذا الرحم الصامت الذي لا قرار له، واقتلع نفسه من حلم الموت.

الوثيقة رقم ٧

هذه القصيدة الرديئة المتعثّرة الأوزان من نظم شاعر لا نعرف عنه إلاّ أن اسمه أستاريس الأثيني، وهي مجتزأة من سيرة كاملة لحياة «فيثاغورس» كتبت شعراً ولم يبق منها إلاّ هذه الأبيات. وما كنا في الواقع لنعيرها أدنى اهتمام لولا أنها تشهد بغزارة هذا النوع من الكتابات في أوج ازدهار التيار الفيثاغوري الحديث في روما أولاً ثم في الاسكندرية . فقد كتبت كما نعلم مؤلفات كثيرة تناولت هذه السيرة، ولكنها نادراً ما كتبت شعراً، وكان جلّها عبارة عن مختارات لمصنفات فقدت اليوم من وضع كتّاب معاصرين «لفيثاغورس» ولأفلاطون، من أشهرهم تيماوس التاورميني وأريستوكسين التارنتي وهيرقليدس البنطي.

وزخرت الفترة فيما بين القرنين الأول والرابع بالنصوص التي تمجد معلم ساموس ، خالطة بلا أدنى تمييز بين الحقيقة التاريخية وكل ما نسج حوله من أساطير. ونذكر منها مؤلفات أبولودور القوزيني وبورفير الصوري، اللذين لم يبق من آثارهما شيئا. ولكن من المؤلفات الهامة التي وصلتنا أعمال ديوجين اللائرسي، وبالأخص سيرة «فيثاغورس» الشهيرة بقلم يامبليقوس الخلقيسي الذي عاش في روما نحو القرن الرابع الميلادي.

وإننا ندرج هذا النص إذن لمجرد الإشارة إلى تلك الحقبة، ولأنه بدا لنا يشكل نقلة ضرورية ومناسبة للربط بين الوثائق السابقة والنص اللاحق.

في دلفي استنبأ فيثاغورس الوحي،
ثم عاد أدراجه إلى ايتيا،
ليركب البحر من كورنتا إلى قرقوريا.
ركب على ظهر سفينة من تلك السفن القصار
المربعة الليّنة المتينة الشراع،
القادرة وحدها على التصدى للصعاب،
تتسلل بجرأة بين التيارات المتعاكسة،
لا تعبأ بالثبج المزبد المغضّن لصفحة الفلوات المائية،
يسعى ملاحوها بلا وجل في مواجهة الزوابع العاصفة،
يعبّون في كل هبّة من هبّاتها
نفساً من أنفاس الإله الغاضب.
وعند المنحدر الآخر للعالم،
أرسى الربان مركبه – سهواً أم خدعة –
على سواحل سيباريس الغنية،

المدينة العامرة التي تغص موانيها
بالمراكب والصنادل المتزاحمة لتفريغ حمولاتها
خوفاً من مزالق المضيق
وكمائن كاريبد وسيللا المريعة.
لما بدت له المدينة على حقيقتها
أشد فساداً من ساموس العتيقة،
غادرها مع بعض تلاميذه إلى الجنوب
فساروا بمحاذاة شواطئ محصبة،
تنقضّ عليها الأمواج الضارية،
قاصدين قروطونيا في الطرف الآخر لخليج تارنتنا،
حيث سبقته شهرته في الحكمة والإطلاع.
أربع خطب ألقاها
في الآغورا ومجلس الشيوخ
استقطبت إعجاب الجموع
فكرمته المدينة الغنية.
منحته أرضاً في أعاليها
لإقامة معبد وتشييد مدرسة
منها تنتشر تعاليمه
في الجهات الأربع
فتفخر به مدينته
أمام العالم أجمع
وفي طول بلاد اليونان وعرضها.

الوثيقة رقم ٨

في هذه اللحظة من عملية فرز الوثائق المودعة في الجرة، عثرنا فجأة على نص واجهتنا صعوبات شديدة في سبيل توثيقه وتوضيح سياقه وتقييم مضمونه. وربما كان ذلك أكثر ما عانينا منه على الإطلاق. والنص فيما يبدو مخطوط كان مكوناً في الأصل من شذرات جرى تجميعها من مصادر مختلفة حتى تتخذ شكلاً موحداً، فخرجت في النهاية في ثوب «رسالة حقيقية» تضم أبواباً يتوالى فيها فن المعمار والفلسفة والأخلاق والطقوس والسياسة والموسيقى إلى غير ذلك، أي أنها رسالة تتضمن جوهر المذهب الفيثاغوري.

ولم تقتصر الأمور على ذلك إذ جاء النص على غير عادة أهل ذلك العصر مكتظاً فى هوامشه وبين سطوره بالحواشي والملاحظات التي حالت دون قراءته في أكثر من موضع، حتى أننا ذهبنا أحياناً إلى ترجمة الإضافات على أنها جزء من المتن أو العكس فزادنا هذا الاضطراب بلبلة والتباساً.

والآن وقد استجلينا ما قدر لنا استجلاؤه، يمكننا أن نؤكد ما يلي: هناك أولاً كما قلنا رسالة مكوّنة من عناصر متفرقة ولكنها مستقيمة تماماً مع المبادئ العامة للمذهب الفيثاغوري. ثم يقترن بهذا الأصل نص ثان هو عبارة عن قراءة له تنبسط نقداً وتعليقاً بلغة تبدو حديثة نسبياً مقارنة بلغة الرسالة، إذ تتخللها نبرة وجدنا أصداء لها فيما قدمنا من نصوص حتى الآن.

يرد في هذا التفسير الذي وضعه بطبيعة الحال بعض من أعضاء طائفة عبدة الصفر، كما ورد في إشارات سابقة، أن فيثاغورس لابد أنه بطريق التجربة أو الإشراق أدرك على نحو مبهم وجود عدد لا مقدار له ذي كمية صفر، وأن المعارف الرياضية السائدة فى عصره لم تكن لتتيح له تعيين هذا العدد بدقة أكبر. فلما لم تكن لديه لغة ملائمة محكمة تفي بصياغة مصطلح لهذا المدرك، ولما لم تكن نفسه لتطاوعه على أن يأخذ في حسبانه اكتشافاً مناقضاً تماماً لتصوفه العددي وما يترتب عليه من دين قائم على علم العدد، فإنه مذ ذاك لم يسع إلى فهم هذا الاكتشاف واستيعابه وإنما آثر أن يبقى حتى الموت محتفظاً بالقليل الذى يعرفه عن هذا السر الرهيب.

من هنا يتضح لنا مشروع هؤلاء المفسرين الهراطقة، ألا وهو أن يطاردوا كلمة كلمة وسطراً سطراً المعنى غير المباح حتى يظهر لا محالة من خلال ضعف فى حجة أو عيب فى دليل، أو أنهم، باعتبار الصفر يتعارض تماماً مع صوفية الأعداد، يقومون بعكس كل القول عكساً يعيد إلى حقيقته الفكر السري المقنع– أو ربما اللاشعوري– للمعلم.

وإذا كان القارئ فى عجلة من أمره، فله إن أراد، أن يهمل هذا الفصل بعناصره

المتنافرة وعباراته المضطربة. فهو لا يعدو أن يكون مدوّنة تضم مختلف فروع المعرفة التي كانت تعلّم في الجمعية السرية للفيثاغوريين في مدينة قروطونية، وأعيدت قراءتها وجرى تصحيحها وتعديلها في القرن السادس أو السابع بعد الميلاد على ضوء الاكتشاف العظيم المتمثل في ظهور الصفر بوصفه عدداً. ومنذ ذلك الوقت لم يعد ممكناً أن يكون أي شيء كما كان فقد حصلت القطيعة وتمت. لقد أقدم أصحاب هذه المحاولة على أمر جلل يتعلق بمعرفة ما إذا كان يمكن لتعاليم فيثاغورس، مع عكس مقولاتها أو تحويرها إذا لزم الأمر، أن تظل أساساً لبقاء الطائفة واستمرار فكرها أم أن المقتضيات النظرية تستدعي «عوداً على بدء من الصفر».

كانت الجمعية التي أسسها «فيثاغورس» تحتل قمة رابية مطلة على البحر تظللها أشجار البهش والسرو، في منأى عن مدينة قروطونية الحافلة بالنشاط والحركة. وكانت تعلم في الجمعية جميع فروع العلم بناء على مبدأ وحيد هو: تحديد النسبة السليمة في كل شيء، أي العلاقة الرياضية المثلى مصدر جميع الكمالات.

١- في تنظيم الأماكن

حرص «فيثاغورس» على أن يشرك في بحوثه عن علم الأعداد تلاميذه، الذين كانوا بعض الشباب من علية مجتمع قروطونية، وعلمهم بالهندسة خواص بعض المجسمات المنتظمة، فأطلعهم بذلك على عناصر معمار مبدؤه القيمة الكامنة في الأعداد، ومنزعه تجسيد هذه القيمة في الحجر. فأخذوا يخططون رسومات للصروح والمعابد، يشرفون بأنفسهم على تشييدها منتبهين إلى أن يلتزم الترتيب بينها والعلاقة بين نسبها بالتوافق الإلهي الذي منه ينبعث جمال وأناقة تلك المباني التي شوهدت ترتفع شيئاً فشيئاً تحت الشمس. هو جمال لم يصمم لذاته، إنما لأن الإنحناءة التامة في نصف دائرة أو في عقد مقوس من شأنها أن تحث على التأمل عبر الإستغراق في العدد المجرد الذي يتحقق فيها.

إن هذا التطلع[1] إلى بلوغ نوع من الكمال في التنظيم المعماري للأماكن التي تقطنها الجماعة، يشهد منذ البداية على القرار الذي اتخذه المعلم بألا يترك مجالاً في الحقيقة الواقعة لظهور ذلك القلق الذي انتابه لا ريب عندما نزل إلى قاع الحجيم في رحلته السابقة، ولا لظهور تلك المهنة التي استشعر وجودها في بطن الكون ذاته، ولاحقته دون أن يقدر على التفريق بين ما هو حلم وما هو واقع ليس إلاّ. تسلطت عليه رؤية مانعة مهيبة بسبب صمتها وما أثارته في نفسه من ذهول، رؤية التفريغ الذي أدركه فجأة في لب الملأ بل في ذات قلب الوجود والواحد.

في حين تحيط بفيثاغورس الصقالات، وترتفع من حوله الصروح الشواهق المتلاحمة

(١) أردنا أن نميز باختلاف حروف الطباعة بين النص ذاته والتعليقات المصاحبة له.

تعكس ضوءاً يبهر البصر وميضه، يتأمل زواياها المصقولة المقصبة، فيتخيل أنها أسوار حجر عظيمة أقيمت لتحول دون هذا الحضور البكر الأصم، كأنها تتحدى ذلك الخراب الداخلي الذي لا يزال محجوباً عن أنظار غير العارفين. ثم يفيء إلى ظل المقابر المفروشة بالأتربة المتخلفة من أشغال النحت والبرادة لا يني يتساءل عن حقيقة ذلك المشهد الذي شهده، دون أن يظفر أبداً بالعثور في نظام الطبيعة من حوله على ما يشفي تساؤله إزاء صورة الكابوس الماثل له، يخرق أرسخ يقينياته بنوع من الشك الوخاز، نوع من الجرح في نفسه يرغب ألا يبوح به أبداً، يعزم أن يضم بين جوانحه وللنهاية رهبته وعبئه الثقيل.

٢- في مبادئ الأخلاق

كان إذاً على من يتطلع من المريدين إلى اجتياز دروب المعرفة أن يخضع لنظام من أقسى نظم الآداب، التقشف هو قانونه وقاعدته. فانطلاقاً من مبدأ «خير الأمور الوسط»، وهو المبدأ البسيط المنحدر من نظرية الأعداد بطبيعة الحال، سعى فيثاغورس إلى الاتقاء من كل إفراط حتى يضمن لتلاميذه حياة تطابق ذلك الإنسجام الذي ينظم الكون. فمجاورة الحد في المأكل والمشرب وأكل اللحمان ومزاولة الغلمة والشهوانية كلها أمور محظورة تماماً لأنها تلغي التوسط في النفوس.

فالشهوات في نظر معلم قروطونية ينابيع جميع ألوان الفوضى، تحيق بلا هوادة بميزان الحياة الرهيف تكاد تحطمه، وتحمل في طياتها من أشكال الإفراط ما يوشك في كل لحظة أن يعيد الخلاء إلى جوف الضمير. أما نحن عبدة الصفر فتلك هي غاية مسعانا. وإذا كنا نمارس الفجور والإفراط فليس ذلك لما نجنيه من اللذة بقدر ما هو من أجل أن نذوق الحالة التي تعقبهما في العادة: هذا الحضور المفاجئ للإحباط والنقصان في الذات، هذا البعد المستور للغياب الذي يحملنا إلى أقرب ما يكون من تلك الثغرة التي هي علة وجودنا أو فنائنا والتي نحن منصرفون لعبادتها.

وإذا كنا نعرف بالخبرة أن هذا الوعي باللاشيء يدفع إلى الارتياب في جميع النظم، مهما أحكم مبناها، فإننا نعتقد في المقابل أن «فيثاغورس» شعر بالحاجة إلى أن يقاوم بأي ثمن هذه العملية المدمرة، وأن يواجه بمزاولة الزهد الدمار الإنساني الذي تولده اللذة، وأن يعزز عند تلاميذه قوة الفضيلة حتى يسعهم أن يكافحوا القوى الطاردة، قوى الموت والتشتيت.

ما دام الكون خاضعا لنسب رياضية تحددت نهائياً فإن الفوضى مستبعدة منه بالضرورة. والأخلاق في نظر «فيثاغورس» ليست على المستوى الروحي إلاّ صورة مطابقة للقوى الخارجية التي تسيرها الأعداد تسييراً قوياً. فينبغي للذات في داخلها أن تسعى إلى تحقيق التوازن بين جميع النوازع المتضادة، وإلى بلوغ تلك النقطة المتميزة التي تلتقي فيها جميعاً ويلتغي عنفها، ينبغي للذات بلوغ ذلك «المحل الهندسي» الذي يتسنى لها

فيه أن تسيطر على هذه النوازع، وتبقى خارج نطاق تأثيرها فتسلم من الأهواء وتصلح للبقاء وتسترد سلطانها على ذاتها. وهيراقليدس البونطي لم يقل غير ذلك عندما أكد أن «سعادة النفس هي في علم كمال الأعداد».

فالزهد الفيثاغورى إذاً قصاراه التوفيق بين الأضداد في صموت التفكير والتأمل بدلاً من فتح أبواب الذات على مصراعيها أمام قوى الخلاء، وحث التلميذ على الاستغراق في تقييم دقيق وموازنة صبورة بين قوى الموت، في محاولة للاستيعاب المطلق والنهائي لتلك الرخاصة التي يلمحها في كل شيء، والتي توحي بالعماء الأصلي الذي هو الشر ذاته والصورة الأولى لعالم بلا إله، وفي ذلك ما دعا أرسطوطاليس إلى أن يقول (في الأخلاق إلى نيقوماخوس): «الشر ينتسب إلى اللامحدود، كما اقترح الفيثاغوريون، والخير ينتسب إلى المحدود».

٣- في صرامة الطقوس والمحظورات

أهم أوقات النهار موسومة بطقوس شديدة الصرامة، وعلى المريدين أن يصدعوا لقانون حياتي قاس، لا يترك فيه للصدفة مجال في كل ما يتعلق بتنظيم الزمن أو اختيار الغذاء. وفيما يلي بعض ما أورده ديوجين اللاثرسي من أهم هذه المحظورات: «لا تنفض الرماد عن الجمر بسن السكين، ولا ترجح الميزان، ولا تجلس على صاع من البر، ولا تأكل من القلب، ولا يجوز أن يرفع اثنان حملاً واحداً بل يضعاه، وليكن الزاد جاهزاً دائماً، ولا تحمل صورة الإله على خاتمك، وعليك بمحو آثار الرماد من القدر، ولا تمسح مقعدك بحزمة من القش وعليك ألا تبول وأنت ناظر للشمس، وألا تسير في الطرقات الواسعة، وألا تطلق يدك عفواً، وألا يكون في بيتك طير من طيور السنونو، وألا تربي من الدواجن ذوات المخالب المعقوفة، وألا تبول أو تمشي على قلامة الأظافر أو قصاصات الشعر، ودونك الأنصال الحادة، وإذا غادرت أرض الوطن لا تلفت النظر إلى تخومه»[(١)].

ما من شيء أكثر توطداً في أرض الواقع سوى الفعل المحظور؛ فالعقل البشري نزّاع إلى الإلتذاذ بألوان الفراغ، وتلك هي النزعة التي نحن نقيمها اليوم مبدأ لتزهدنا الجديد، أما «فيثاغورس» فكان يعلم أن المحظورات مهما كان اصطناعها وتعسفها هي خير ما يشد العقل إلى الأرض والمقتضيات الدنيوية. وبغض النظر عن معانيها الرمزية بل ارتباطها بممارسات السحر التى نحن اليوم تخلينا عنها، فإن ما يهم في الأساس هو أن ترمي هذه المحظورات بشباكها على الواقع، وتثبته في إسار من المعالم لتجتذب انتباه المريدين وتستثير يقظتهم إلى الكم المتناهي من الحركات المألوفة، حتى يكاد يستحيل المبادرة بأي حركة دون أن يمثل للذهن تواً المحظور الموكل بأن يلجم نطاق الفعل. يلازم هذا النسيج من

(١) «حياة الفلاسفة»

التقليدات احترام الطقوس الصارمة ودراسة العلوم المرغمة، فيسهم ذلك في تأريف يوم المريد بشواخص تضرب بجذورها في سمك الوجود، وبذلك يعود باستمرار إلى الحضور المصمت للحياة اليومية، حضور هو الحاجز الوحيد الذي يحميه من قوى التحلل القادرة في أي لحظة أن تبين عن نفسها. وهذه الوفرة من المحظورات التي تشبع الواقع اشباعاً، وتسد أقل فجوة فيه إنما تنطرز كأنها غرز الخياطة أو مواضع الكيّ على اللحم الحيّ لا يندمل جرحه.

٤- في أدوار سلوك سبيل المعرفة

حرص «فيثاغورس» بقدر كبير من الحكمة والعلم على أن يبسط في خمسة أدوار متدرجة علي طريق المعرفة مضمون الحقائق التي شعر لزاماً عليه أن يكشفها لتلاميذه... (...)[١]

... في ممارسة الرياضيات باعتبارها صنعة الوجد وطريقة الابتعاد عن عالم المظاهر حتى يبلغ المريد المعقولات المثلى الكاملة، ويصل في نهاية المطاف إلى تأمل العدد المجرد «فيعقل جميع الأعداد» على حد قول أرستوكسينوس التارنتي.

والغريب في الأمر أن «فيثاغورس» كان خير مَن يعرف أن من استرسل في دراسة علم الأعداد إلى شأو كاف ينتهي فعلاً إلى تفسير للكون عام ومحكم، بل قد يفضي إلى اليقين بوجود إله واحد متعالٍ. وكان يعرف أيضاً أن المضي بهذا النسق إلى غاياته يؤدي إلى خرق الحجاب الخفي لهذه الماهيات، والسقوط فجأة في الجانب الآخر والنفاذ إلى سفح مظلم، إلى لا مكان ليس فيه للأعداد سلطان، أو تصور- وإن كان ذلك محالاً في عصره- أن يؤدي إلى عدد لا مقدار له ولا حقيقة كما سلف بيانه، عدد لا يحتاج إدراكه إلى عملية العدّ لأنه هو بعينه النفي الضمني والنهائي لجميع الأعداد الأخرى، هو إلغاؤها البديهي الذي لا يمكن انكاره، هو على أية حال كائن ملعون رأى المعلم ضرورة ملحة في اتقاء شره.

عرف «فيثاغورس» أن مذهبه مهما كانت صلابته يحوي في مكنونه وفي طية من طياته المستورة نقطة تعتيم- كما قطعة الأرض المستصلحة المزروعة بعناية تظل في وسطها سبخة يستحيل تصريف مياهها- بقعة ميتة لاعودة منها إلاّ بالمشقة والعناء. هو ثقب مفاجئ، شرخ يلمحه خلسة في سدّة القضايا والبراهين وفي لحمة القياسات والاستدلالات. إن هو لم يلزم الحذر واقترب من حافته هوت فيه لا محالة نظريته الرياضية ونظريته الكونية ومن ورائهما المبادئ الأخلاقية التابعة لهما. وفي نظرنا أن حرصه الدائم

---

(١) وجدنا في هذا الموضع من النص طمساً وتمزيقاً ربما دعت إليهما الحاجة إلى إفساح المكان لغزارة التعليق الذي يلي. ودرجات سلوك سبيل المعرفة عند الفيثاغوريين معروفة في جملتها، لذا لم نر وجها لتكرارها ها هنا حتى نعالج نواقص المخطوط. وليتفضل القارئ بمراجعة الكتب الملائمة في هذا الشأن.

على أن يسد بكل ما أوتي من الوسائل سبل الوصول إلى هذا المكان المحظور، وأن يجعله منيعاً أبداً، هو الذي حدا به إلى إقامة الحواجز الأخلاقية وتكديس الممنوعات وهداه إلى وضع التعاليم والإختبارات على امتداد درب المعرفة، تنتظم بها حياة أهل الفرقة.

٥- في الموسيقى

في ساعة الأصيل والشمس غاربة إلى الأفق، كانت تصل إلى الأسماع منبعثة من ساحة قروطونية أناشيد الجماعة، بطيئة خفيضة يصاحبها نغم آلة اللير متفرقاً أو محمولاً على لحن الناي الذي يفيض خلفه رقيقاً ملحاً.

ذلك أن الموسيقى عند «فيثاغورس» نشاط متميز ينحدر من العلاقة المتناغمة بين الأعداد. فالصوت ينشأ من توتر الأوتار في مواجهة المقاومة المكافئة في خشب الآلة، كذلك الغناء يصدر من توتر النفس تصبو إلى العالم المثالي في مواجهة ثقل الجسد ومقاومته المادية والأرضية. وتهتز النفس كالوتر أمام القوى المتناقضة التي تمزقها، وتشطح حتى الوجد معبرة عما بها من ألم تعبيراً مصعداً لا يكل.

ويكتسي أيضاً هذا النشاط بعداً كونياً بما ادعاه «فيثاغورس» من أنه استطاع أن يسمع غناء النجوم وحفيف الفلك. فكما تمكن أن يقيم للأصوات درجاً تتناسب فيه تناسباً عكسياً وفقاً لما بين طول أوتار اللير وعدد اهتزازاتها، فكوّن سلماً يحدد لأول مرة بالمصطلح الرياضي نسباً ثابتة بين الأصوات، فإنه اكتشف بالمثل وجود نسب مناظرة بين مختلف الأفلاك السماوية، أي أنه باتخاذ الطبقة أو نصفها وحدة للقياس أمكنه حساب المسافات بين الأجرام بمصطلح موسيقي، يتأتى له مثلاً من القمر إلى الشمس ربع طبقة ومن الشمس إلى سماء النجوم الثابتة خمس، طبقة وينتهي إلى الطبقة الكاملة أو الانسجام الكامل لجميع الأصوات التي تبثها القبة السماوية.

هكذا تجسدت الأعداد في مختلف علامات السلم الموسيقي تجسدها الأكمل شبه السحري، تشكل قوام الطاقة الخفية لذلك الجمال المنبعث من دقة الرنين أو من صواب أداء اللحن. بل وصل الأمر أحياناً إلى اعمال المهارة في إخراج بضعة أصوات غير متناسبة تسفر عن ائتلافات خاصة تداني نفثة الانسجام الكامل وإن بقيت دونها فيدرك السمع إدراكاً شبه محسوس الصوت الملغز للعدد.

٦- الطب والسياسة

عند ألخميون الفيثاغوري، وكان طبيبهم، أن الصحة تقوم كلها على مبدأ «التساوي أمام القانون»، أي على المساواة التأسيسية بين العناصر المكونة للجسد ومراعاة الموازين التي تؤمن له وظائفه المختلفة. أما المرض، فلا يعدو أن يكون صدعاً يحدث في هذا

الترتيب القصيم بفعل خلط من الأخلاط أو عضو من الأعضاء يجاوزحقوقه ويتعدى اختصاصاته فيؤدى بتجاوزاته إلى هلاك الجسد كله.

كل شيء يقوم إذاً على التوازن السليم بين القوى. ففي السياسة تنتج صحة الجسد الاجتماعي من التوزيع العادل للثروات والحقوق بين مختلف فئاته. واعتبرت نظرية الأعداد علماً ليس فقط يسمح بتجاوز المظاهر للرجوع إلى المبادئ الأولى، وإنما يوفر أيضاً نماذج رياضية إذا طبقت على المجتمع أدت به، عن طريق وضع مختلف عناصره في معادلات، إلى أساس متين يضمن له نهائياً السلام الاجتماعي.

فكانت الممتلكات داخل الجماعة مشاعاً مشتركاً، وكان الإخوة ينذرون على أنفسهم ألا يمتلكوا شيئاً ينفردون به، حتى يخضعوا لمراتب التوزيع في صورتها الرياضية.

٧- مذهب التناسخ

إن الفقرة [١] الواردة أدناه هي في الواقع تعليق على نص إما فقد أو تلف، غير أن فيه من الدلالات ما يجيز نسبته إلى هيراقليدس البونطي. والنص المذكور كان يعالج في الغالب مسألة تناسخ النفس. وقد وجدنا في كومة الوثائق الممزقة قطعة رق كتبت عليها الكلمات الآتية المنقولة من ديوجين اللاترسي رأينا أن نضيفها هنا: «يقولون أيضاً إنه أول من اكتشف نزوح النفس، ترسم دائرة محتومة بالقدر، وتنتقل من موجود إلى آخر تتقمصه». كذلك ذكر ديويجين اللاترسي في موضع آخر غير هذه المحفوظات أن «فيثاغورس» لم يتردد في أن «يبوح لبعض مريديه بأنه يتذكر بكل وضوح مجرى كينوناته المتقدمة، فأكد لهم أنه باعتباره من النسل المباشر لأبوللو، أوتي له أن يتجسد في شخص ايثاليداس بن هرميس، ثم في شخص يوفوربوس الذي جرح بسيف مينلاس أثناء حرب طروادة، وفي شخص هيرموتين ثم بيرّوس الذي كان صيّاداً بسيطاً ولد في أرباض ديلوس».

لم يبق في حوزتنا إذاً سوى التعليق الذي خلفه عبدة الصفر، وكان انكارهم شديداً لهذا المذهب لأنه ينفي مبدأ التحلل النهائي لكل وجود، وهو المبدأ الذي يتعبرونه اللازمة الميتافيزيقية لاعتقادهم بتعالي «العدد الخالي».

(...)

سعى فيثاغورس إلى أن يسد بالمؤسسات وبالتماسك الرياضي الصدوع التي كان من الممكن أن تنجم في الواقع وتسفر في غفلة عن صورة العدم. سعى حثيثاً حتى بلغ به الأمر إلى استكمال نسقه بالإعتقاد في تناسخ النفس بعد موتها.

---

(١) تعليق المترجمين.

يالها من مفارقة عجيبة تلك التي أدت به إلى نفي الموت بالموت، وهو صاحب المذهب القائل بأن الموت ليس الحد النهائي لكل وجود. كأنها طريقة اتخذها للإحتفاظ بمنافع الموت المباشرة- الإرهاب الأخلاقي الذى يواصل ممارسته على الأحياء- مع استبعاد جوهر مبدئه أي السقوط النهائي في فقدان مطلق لكل وعي وفي تلاشي الوجود.

إن «فيثاغورس» وقد حاصرته بداهة هذه الحقيقة ظل معتقداً أن في وسعه تلافيها. ولم يفقد الأمل في نفي حدوث الموت المحتوم، فسعى إلى تحويل تلاميذه عن تلك القوة العاملة على تحليل الكون، قوة لا قوام لها ولا مكافئ رياضي. يريد أن يبعدهم عن هذا «العامل الصفر» الذي يثبت، مهما كانت فضائل ومزايا الأعداد التي يقابل بها، أننا بتضعيفنا شيء بلا شيء إلى ما لا نهاية إنما لا نفعل في آخر المطاف سوى أن نصل دوماً إلى العدم.

الوثيقة رقم ٩

يسهل من ملاحظة بعض الصيغ البيانية الواردة في هذا النص استخلاص صورته الأولى قبل أن تعمل فيه يد النساخ عملها. والأرجح عندنا أنه كتب في زمن معاصر للأحداث التي أدت إلى القضاء على جماعة الفيثاغوريين في قروطونية، ثم جاء من النقلة من عدل فيه وحوّر مما يفسّر افتقاره إلى وحدة التركيب. والجزء الثاني من النص يلاحظ فيه أسلوب جاف وصفي بحت، مما يدعو كأنما كتبه مؤرخ متأخر اكتفى بترتيب الأحداث في تسلسلها الزمني. وعلى ضوء أحدث الاكتشافات يتفق الجميع في يومنا هذا على صحة هذه الأحداث. أما الجزء الأول فيتميز بابتكار الأسلوب وتعدد التفاصيل. فهو يروي قصة فرار فيليبوس، بعد أن أصدر الطاغية ثليس أمره بإبادة جميع الفيثاغوريين المقيمين في سيباريس. وثمة ما يوحي بأن الناسخ دوّن ما رواه له أحد رفاق فيليبوس ممن هربوا معه، إن لم يكن فيليبوس نفسه كما تشير إلى ذلك بعض الدلالات.

ذهب البعض عند قراءة النص إلى أنه نسخة منقولة من كتاب مفقود ألفه أرستوكسانس التارنتي تلميذ أرسطو عن «حياة فيثاغورس»، ويقال إن أرستوكسانس هذا خالط بعضاً من أواخر الفيثاغوريين المعروفين في ذلك العصر. وهذا الفرض خاطئ لأسباب عدة منها أن النص يخلو من الإشارات الميثولوجية التي زخرت بها سير «فيثاغورس» حتى وهو لا يزال على قيد الحياة فحولته إلى بطل من أبطال الأساطير والحكايات. أما هنا فلا نجد له صورة الرجل الملهم التي يقال أن هيراقليدس البونطي صوره بها في كتابه المفقود «أباريس»، وشبّهه بهؤلاء الجان الذين يعتقدون أنهم وسطاء بين الألهة والناس. فنحن هنا نجد «فيثاغورس» رجلاً غير ذي شأن كبير مضطراً إلى التشاجر حتى يسمع صوته في الجمع، مندهشاً أمام الهشاشة الواضحة للنظام السياسي الذي أسسه، فهو باختصار يظهر في صورة الرجل المرتاب الذي يغمره الشك.

والآن وقد بدأت تعرف عن عبدة الصفر مهارتهم الفذّة في تزوير النصوص، فالإحتمال كبير أنهم قاموا بإدخال ما يرون من لمسات على صورة معلم قروطونية لتتفق مع أفكارهم، فحطموا جلالها وخلخلوا هيبتها. ولأنهم في فترة من الفترات اتخذوا منه موقفاً نقدياً متشدداً يبدو أنهم آثروا هذه النسخة الرديئة من سيرة «فيثاغورس» لأنها توافق تصورهم له.

بلغ فيليبوس مشارف سيباريس، وكان الليل يغشى المدينة مخلفاً في صفحة السماء من جهة البحر غلالة نور رقيقة تجمعت فيها أشلاء النهار. أطلق عربته بأقصى سرعة على الطريق المؤدية إلى البوابة الشمالية، فاصطدمت إحدى عجلاتها بصوّة منتصبة على قارعة الطريق، وانفصلت عن العربة التي استمرت في انطلاقتها مسافة قصيرة وغدا محورها كالنصل يحرث التراب حرثا، وفيليبوس متشبث به بكل قواه إلى أن توقفت تماما. فاضطر

إلى البحث عمن يصلح له العربة ويؤوي الجياد حتى الصباح. ها هو قد تأخر ولابد أن الاجتماع قد بدأ بدونه. اتجه صاعداً إلى أعالي المدينة، بينما أصحاب البيوت القائمة على جانبي الطريق يضيئون المشاعل على واجهاتها لإرشاد المدعوين إلى الحفلات والولائم التي اشتهرت بها سيباريس.

وفجأة هُيّئ له أنه يسمع أصواتاً مكتومة لصدمات متوالية يشوبها ضجيج متصل يمزقه صياح وصراخ. ومع اقترابه أدرك أن الأصوات صادرة من الدار المجتمع فيها صحبه. فأسرع مهرولاً، ولما صار على بعد خطوات رأى لهباً يتصاعد فوق سقوف المنازل ملقياً بشعاعه على أشجار البساتين يبرزها من بين الظلام. لم يتوقف عن الجري ولكنه داني الجدران بحذر محتمياً بظلها من ضوء النار المستعرة.

ولما وصل إلى الفيللا، رأى في الساحة الصغيرة التي تشكل مع النافورة ومظلة البوابة مدخلها الرئيسي رجالاً مسلحين، بعضهم في وقفة تأهب يحملون المشاعل وآخرون يتجمعون في الساحة بعد أن أشعلوا النيران في قاعات المبنى وملحقاته. فاندفع إلى حلقة الضوء ليسألهم عما يفعلون وإذا بيد قوية تقبض على كتفه وتسحبه إلى وراء.

- قف عندك يافيليبوس! أنا فنثياس. كنت متأخراً شأني شأنك وأستعد لدخول البيت عندما رأيت هؤلاء الرجال خارجين منه، وأظنهم جنوداً متنكرينً اغتنموا فرصة اجتماعنا نحن فيثاغوريي سيباريس حتى يغتالوا كل أصدقائنا. ولما كنت أعزل من السلاح التزاماً بتعاليمنا لم يسعني أن أخفّ لنجدتهم ولذت بهذا المخبأ. سمعتهم يتحادثون، وهل أنت مصدقني، فقد تعرفت على بعضهم من أصواتهم، أتعرف من هم؟ وحق أبوللو!! هم قتلة استأجرهم ثليس طاغية سيباريس، حموك يافيليبوس! أبو زوجك!! وكنت أنت أول من كان مستهدفاً، انهم يبحثون عنك بالذات. لا تحاول أن تلجأ إلى بيتك، فإنهم هجموا على بيوتنا جميعاً وأشبعوها نهبا. علينا أن نغادر المدينة بأسرع ما يمكن.

ولج الرجلان فى الظلام لا ينبسان بحرف، يخترقان الأزقة والشوارع الضيقة حتى أتيا أسفل المدينة ولقيا نفراً من صحبهما فأنبآهم بالخطر. غمر الضوء أحياء كاملة في المدينة، إذ شبت النيران في البيوت وتصاعدت منها ألسنة اللهب، فهرع الناس إلى الأسطح ينظرون مشدوهين. وفي بعض المواضع أخذت النار تزفر وتندفع إلى أعلى في خط عمودي تجشأ به سقوف المنازل، ثم تنهار مرة واحدة مفجرة حزماً من الشرر تنتشر في السماء. وأعقب الاضطرابات انفضاض عن الشوارع التي لم يبق فيها سوى جماعات صغيرة من العسكر يقطعونها ذهاباً وإياباً، فيجبرون الهاربين على الاحتماء بالزوايا والاختباء في الوقور. واستطاع الفارون أن يخرجوا من المدينة ويتجهوا إلى البحر عبر الحقول والمزارع وبيارات الزيتون، ينهش الخوف صدورهم من أن تكون الكلاب أطلقت خلفهم حتى بلغوا شاطئ البحر تترقرق مياهه في صمت تحت ضوء القمر. لم يتوقفوا وواصلوا السير بمحاذاة الشاطئ متجهين شطر قروطونية ملجؤهم الوحيد. ساروا طوال الليل يتلفتون بين الحين

والحين ليسبروا جوف الظلام مخلفين من ورائهم أكواخ الصيادين المتناثرة على حواف الخلجان الصغيرة. وشيئاً فشيئاً توارى القمر وراء السحاب وانسدل عليهم سواد الليل. لم يعد الرمل ناعماً تحت أقدامهم فقد أخذت الحصى تتسرب في الأخفاف بينما الحصباء تحتك بالنعال محدثة صوتاً له عزيف أجوف، وظلوا جادين في السير حتى شقشق السحر فنزل عليهم برد قارس، وابتلت الأرض بمياه البحر كأنها الندى أو قطرات المطر. وتلافياً للصخور المتجمعة على الشاطئ أو الرؤوس الممتدة في البحر ابتعدوا شيئاً فشيئاً عن الساحل وتوغلوا في الأرض الأشبة والشعاب الشائكة، فمزقت سيقانهم أشواك الشجيرات والعوسج وجمّدت رطوبة الأعشاب أقدامهم الدامية.

عند الفجر كانوا على أبواب المدينة العالية البيضاء. وعلى الفور علم «فيثاغورس» بقدومهم وحذّرهم من العودة إلى سيباريس، لأنهم على أية حال خسروا قضيتهم فيها ما دام أهلها لم يحيطوهم بالتضامن والمساندة. فإن ألوان التقشف التي يمارسونها جعلتهم مصدر ضيق وازعاج للناس، ثم هم أيضاً يدفعون ثمن ولائهم لمجمع الفيثاغوريين في قروطونية التي أصبحت منافسة لسيباريس منذ أن قامت هي الأخرى بفتح طرق للتجارة مع ايطاليا. إن ثليس طاغية سيباريس، وقد أفل نجم مدينته، سعى إلى الاستفزاز حتى يستر محنتها ويخفي تدهورها. ولا شك أن الفارين لم يكونوا سوى أداة بين يديه استعملها متنفساً لغضب الشعب.

وفي الأيام التالية بعث ثليس برسل يطالبون بتسليم الفارين، وعلى رأسهم فيليبوس الذي تربطه علاقة نسب بأسرة الطاغية. ولم تكن قروطونية راغبة في الحرب ملتزمة في ذلك بتعاليم «فيثاغورس». لذلك كان على مجلس الشيوخ أن يجتمع كي يتداول أعضاؤه ويتباحثوا في الأمر. فالقرار الذي سيتخذونه سيكون ملزماً للجميع ويتوقف عليه مستقبل العلاقات مع سيباريس. عقد الاجتماع وساده الصخب والمرج، بسبب الشد والجذب بين الأحزاب المتنافسة التي كان يرى بعضها في قطع العلاقات مع سيباريس خطراً يحيق بمصالحهم التجارية. ولما لم يجتمع أمرهم وبدأ ينفذ صبر رسل ثليس المنتظرين في الخارج، استدعوا «فيثاغورس» ليبدي رأيه. وكان رأيه معروفاً قبل أن ينطق به لذلك صعب عليه إسماع صوته وسط الشغب الذي أحدثه بعض الشيوخ حتى أن عضواً في الحزب الديمقراطي سخر من مغامراته قائلا :

– في رحلتك القادمة إلى ظلمات الجحيم احمل مني رسالة لشقيقي.

فرد عليه فيثاغورس :

– أنا إن نزلت إلى الجحيم لا أزور الكفار ولا أعرج صوب الأشقياء الذين يسامون أشد ألوان العذاب.

وبعد أن طرد المعارض، ما كان من «فيثاغورس» إلا أن قال إن المدينة التي لا تحمي المستجير مدينة مصيرها الهلاك. وللآلهة في ذلك رأي لا لبس فيه. فإن سلمت قروطونية

الفارين لجلاديهم تنكرت لمبادئها وقضت على نفسها خزياً وعاراً، لا لأنها حنثت بالعهد بل لأن أهلها، وقد فقدوا شرفهم، يودون بها إلى التهلكة. طعن أعضاء المجلس في كبريائهم وخضعوا لرأي المعلم، فطيلة هذه السنوات كان نصحه نافعاً رغم صرامته وحقق في نهاية الأمر للمدينة ازدهارها.

في الحال شيع رسل ثيليس حتى أبواب المدينة على نحو يليق بهم ولكن مع حزم شديد اعتبروه إهانة لهم. وأكد أعضاء المجلس، ممن لم يوافقوا على قطع العلاقات مع سيباريس، أنهم سيبعثون برسلهم لشرح أسباب رفضهم.

وفيما بعد أرسل ثلاثون رسولاً إلى سيباريس ولم يعودوا أبدا. وأشيع أنهم قتلوا فور تأدية مهمتهم وأن جثثهم عثر عليها في الغابة أشلاء افترستها الكلاب والذئاب. ولم تحتمل قروطونية هذا العار وقررت أن تثأر لبنيها فأعلنت الحرب.

وانطلق الجيش القروطوني قاصداً سيباريس بقيادة المحارب ميلون، الذي كان مصارعاً من أبطال الألعاب الأولمبية الماضية وكان صهر «فيثاغورس». وفي نهاية اليوم الثالث جاءت أخبار تنبئ بأن فرسان سيباريس منيوا بالهزيمة في حين تجمعت شراذم الجيش المغلوب في داخل المدينة وتحصنوا فيها. ومرّ على الحصار سبعون يوماً حين قتل الطاغية ثليس داخل معبد الإلهة هيرا وكان ذلك ايذانا بنهاية سيباريس. فصارت دور الأثرياء من حزبه نهباً للأهالي الذين أعماهم جشعهم عن الإستمرار في الدفاع عن مدينتهم. والجنود أنفسهم تخلوا عند سماع الخبر عن مواقعهم على الأسوار وهرعوا ليحصلوا على حصتهم من الأسلاب والغنائم. فكانت المدينة تعمل السلب والنهب في نفسها عندما هاجمها قادة الجيش القروطوني واستولوا عليها. وأمام هذا الفساد الهائل قرروا أن يدمروا المدينة عن بكرة أبيها وألا يتركوا فيها حجراً على حجر، حتى أنهم أمروا بحفر قناة لتحويل مجرى نهر كراثيس لتطوي مياهه في جوفها ما تبقى من المدينة المنعمة.

هذا الفيض المباغت من الثروات والأراضي الذي تقاسمته مختلف أسر الطبقة الأرستقراطية أجج المطالب الشعبية والحركات الديمقراطية في قروطونية التي كشفت بعد انتهاء نشوة النصر عن حقدها على نفسها وتمزقها. بل أن «فيثاغورس» نفسه فقد السيطرة على مريديه وعلى المجلس الذي صار مسرحاً للصراعات وساد الجشع بين أعضائه إلى حد ارتاع له المعلم. بل أن سيلون الذي كان في يوم من تلاميذه وطرد من الجماعة لشدة نهمه غدا يؤلب الأهالي على الفيثاغوريين، غير متورع في نشر شتى الأكاذيب بحقهم وفي توجيه السباب إليهم. وكان يساعده سدنته هيباسوس وديودور وثياجيس في استمالة قلوب المواطنين، يمنيهم بالوعود ويلوح لهم بمنحهم جميعاً بلا تمييز بسبب الأصل أو الثروة أرفع المناصب في أعلى المجالس.

لم يلبث «فيثاغورس» أن أدرك أن الصرح الذي أسسه أوشك على الإنهيار. وبعد أن حذر تلاميذه للمرة الأخيرة وبصرهم بالفتنة التي تدبر ضدهم اصطحب نفراً قليلاً من

مريديه الأوفياء وغادر المدينة سراً إلى ميتابونطي.

جاءت الضربة من أوناتاس تينون القائم مقام سيلون. فقد قرأ على الشعب المتجمع في ساحة المدينة قصيدة نسبها زوراً إلى فيثاغورس مدعياً أنه يعبر فيها عن احتقاره للشعب وتعطشه للسلطة. فاستشاطت المدينة الواطئة غضباً وصارت المركز الرئيسي للفتنة. وكان من المعروف أن الفيثاغوريين مجتمعون في بيت ميلون مشغولون بمناقشة مجرى الأحداث. فمع الليل اعتدى المتمردون على البساتين ونهبوا المتاجر وأوصدوا جميع منافذ البيت الكبير قبل أن يشغلوا فيه النار فهلك معظم أعضاء الجماعة محترقين.

الوثيقة رقم ١٠

يعزى هذا النص إلى فيلوتاتس التراقي، ومع ذلك فالاحتمال الأكبر أنه نص مبتدع مزور، لأن فيلوتاتس هذا مؤلف مغمور لا يعرف عنه سوى أنه اشترك في غزوة حربية فيما وراء نهر الإستر[1] ضد شعوب الأسقوطيين. وكان مصيره وصحبه أن وقعوا في كمين وأسروا ثم دبرت لهم مذبحة لم يعرف لماذا لم ينج منها سوى فيلوتاتس. وقد استرقوه فمكث بينهم يتبعهم في ترحالهم عبر السهوب والفيافي. لازمهم وتطبع بعاداتهم حتى أنهم لقبوه بالتراقي. ويبدو أنهم أعتقوه فيما بعد فهو يعرف أيضا بالأسقوطي نسبة إليهم. وعلى أية حال يظن أنه توغل إلى أقاصي الشمال قاصداً بلاد «القاطنين وراء ريح الشمال» في مملكة الضياء الدائمة التي يسكنها أناس خالدون لا يعرفون ليلاً يسدل ستائره على جفونهم. ويقال إن أبوللو اتخذ له معبداً في هذه البلاد يحل به كل تسعة عشر عاما. ومن الطريف أن هناك أسطورة تنسب أصل «فيثاغورس» إلى هذا الأله الشمسي.

إن هذه الأسطورة وما يحكى من أن «فيثاغورس» عاد بعد مماته ليقيم في المعبد الدائرى الذي ذكرناه، ربما كان مما دعا فيلوتاتس التراقي إلى أن يغتنم وجوده في هذه الأصقاع ليسعى إلى اقتفاء أثر المعلم وإثبات بقائه وخلوده. ولربما كان يأمل في أن يؤدي به سعيه إلى خلود مماثل. وهو يؤكد على أية حال أنه طاف في أرجاء المنطقة دون أن يعثر على ضالته ودون أن يسوق أي دليل ملموس على رحلته المزعومة التي يعتبرها الكثيرون ضرباً من خياله. ولكن العنصر الوحيد الذي يضفي بعض المصداقية على مزاعمه هو لقاؤه بعد عودته إلى تراقيا مع زلموكسيس الشهير وهو آخر من تبقى من تلاميذ «فيثاغورس»، وإن كان هيرودوتس يرجح أنه كان من عبيده أيام إقامته في ساموس. ويضيف هيرودوتس أن زلموكسيس بعد أن أعتق وكوّن ثروة عظيمة عاد إلى تراقيا وأسس له بلاطاً فيها. وبعد عهد طويل أنزله شعب الغيتيين منزلة الآلهة وتعبدوا إليه: «يبعثون إلى زلموكسيس كل خمس سنوات برسول يقترعون عليه. وكى «يبعثوا» هذا الرسول يختارون ثلاثة من الرجال المسلحين برماح قصيرة ثم يمسكون بالرسول من قدميه ويديه ويأخذون يؤرجحونه ثم يقذفونه فوق أسنة الرماح. وإذا مات فذلك عندهم علامة على رضا الإله عليهم. أما اذا ظل حيا نهروه واعتبروا أن لا طائل من ورائه. وهم بعد ذلك «يبعثون» برسول آخر يحرصون على إبلاغه وصاياهم قبل أن يقضي نحبه. (تمحيص الأخبار).

فالمفترض إذاً أن يكون فيلوتاتس قد التقى أثناء هذه الزيارة بشخص لم يرد أن يبوح باسمه – هل كان زلموكسيس نفسه ؟– قص عليه الكلمات الأخيرة التي نطق بها

---

(١) الدانوب

«فيثاغورس» في لحظات احتضاره. وللوهلة الأولى ساورنا الشك في أصالة هذا النص لما يبدو فيه من اضطراب وتشويه. ثم ان له طابعاً تنبؤياً غريباً قد يكون هو الذي حدا بعبدة الصفر أن يحفظوه، فالكلام المنسوب إلى «فيثاغورس» الراقد على فراش الموت يفرد فجأة مكانة هامة لتلك المساحة الخالية التي لمحها بين مراتب الأشياء، والتي لا يبقى بعد ذلك للعدد «صفر» إلا أن يحل فيها ثم ينخرط فيها. غير أن مثل هذا الوعي والإدراك يستبعد تماماً حدوثه في ذلك العصر، والأرجح أنه ظهر فيما بعد في الدوائر الفيثاغورية المعاصرة لبلوتاركس الذي روى أن «أتباع فيثاغورس يؤكدون بالفعل أنه يوجد خارج العالم خلاء، منه وإليه يتنفس العالم».

أما فيما يتعلق بموت «فيثاغورس» فتختلف التفسيرات ولا يسعنا أن نذكرها كلها ها هنا. ومن البديهي أن هذه المسألة لم تخطر لفيلوتاتس على بال. ويروى أن فيثاغورس بعد أن لجأ إلى ميتابونطي حيث «أطلق الأهالي اسم معبد ديميتيرا على البيت الذي كان يقطنه «فيثاغورس» واسم ممر آلهات الفنون على الشارع الذي يقع فيه هذا البيت[1]»، وعلم بالنكبة التي حلت بقروطونية على لسان لوسيس وفيلولاوس اللذين نجيا منها، روعه الخبر وامتنع عن الطعام حتى مات جوعا.

يقال إن فيثاغورس لجأ إلى بيت صغير يقع في طرف ميتابونطي، ولم يعرف بالتحديد أين ومتى حدث ذلك، حتى أن الأمر اختلط على «فيثاغورس» نفسه، فهناك من يؤكد أنه في أواخر حياته كان يخلط بين حيواته المتعددة بل يعيشها كلها معا.

أصابت «فيثاغورس» في الصميم إبادة جماعة قروطونية، فامتنع بالتدريج عن تناول الغذاء. وفي اللحظة التي كان سيسلم فيها النفس الأخير جمع أوفي أتباعه حول فراشه ونطق بهذه الكلمات التي ألقت الذعر في صدورهم :

«يا أصدقائي، إن لم يكن من الموت بد فليكن سبيلي إليه تفريغ جوارحي من كل مادة، وكمن ينحني من قمة جبل لينظر إلى مهواة من تحته، أن أقترب من لحظة موتي أكاد أمسكها في قبضتي.

«هنا في رفقتكم، ورغم عنايتكم، عرفت يوماً بعد يوم تفاهة العيش وأدركت انحدار جماعتنا إلى مصيرها المحتوم. ورغم كل جهودنا لم نتغلب على عوامل الفناء والموت المسلطة على القوى الحية لمدينتنا. فكأنما الكمال الذي أقمته فيها جثم على صدرها وأخمد أنفاسها فلم يبق فيها مكان للروح. كأن الحسابات الرياضية الرامية إلى تأمين التوازن السياسي والعضوي لهذه المدينة أثبتت بفشلها أن اللامعقول مكنون في المعقول كالنصل في الكبد. كأن الموت والدمار عنصر من عناصر الحياة، وكل محاولة لردهما ما هي إلا استثارة لقواهما. وها أنا أضع بين أيديكم خلاصة تفكيري : لا بقاء لأي نسق ولا كائن

(١) ديوجين اللاترسي

حي إن هو لم يبادر بإفساح مكان داخله لمساحة تترك شاغرة، لوقبة يمكن أن تظهر فيها في كل لحظة وتنطلق قوى الخلاء والتحلل. ولأننا تجاهلنا هذه البداهة لم يتوان العماء في حياتنا وفي شريعتنا حتى استرد حقوقه وقضى على النسق بأكمله.

«فاعلموا اذن، أن الوعي الناقص بالعدم، وجهلنا المطلق به، هو الذي يبقي جذوة الحياة فينا، ويحملنا على الرغبة في الإنبعاث والسعي إلى إدراك الخلود من خلال عمل عظيم. فأن آخذ في الحسبان هذه المساحة المفرغة التي تنفتح أمامي، وأن أعترف بالموت غاية نهائية لما يخفف عني بغتة ويحررني من وجودي. وبعكس ما اعتقدت دائماً وعلى غير المبدأ الذي أقمت عليه تعليمي، وجدت خلاصي في إدراكي وقبولي بأنني في النهاية لا شيء. فإدراكي لهذه الحقيقة يسبق الواقع ولعله لا يليق بي أن أظهر ابتهاجي في هذا المقام. لا تذرفوا الدموع على فراقي ودعوني ألحق بموتي».

«كلمة أخيرة أقولها لكم : إني لأتساءل كيف أن نسق الأعداد الذي علّمته إياكم والمفترض فيه أن يعبر عن الكون في كليته لا يفسح مكاناً لحقيقة الخلاء ويعجز عن الدلالة عليها! من أين جاءت هذه الكمية الصفر التي تستعصي على كل صياغة رياضية؟ حلمت الليلة الماضية أني قادر على تجسيد هذه البداهة المستترة التي يقوم عليها العالم، هذه الحقيقة التي لم تنبس بها الألهة. وها أنذا أمضي ونفسي ممزقة لم يمهلني الموت لفك هذا اللغز المحيّر، هذا المبدأ الذي به ينطلق الكون من عقاله ويتنفس ...».

لم يتحمل أي من التلاميذ وقع هذه الكلمات، وقد رواها لي شاهد عيان أخذ علي عهداً بألا أبوح باسمه. وعلى أية حال، فإن تعاليم المعلم غدت تراثاً منقولاً لا يمسسه تغيير، تداولته الجماعات المتعاقبة. وتحوّل قبره في ميتابونطي إلى مزار مقدس يؤمه الحجاج من كل صوب. وبعد أيام من موت «فيثاغورس» جاء من قروطونية وفد لينبئه بأن الفيثاغوريين استردوا حقوقهم، ويدعوه إلى العودة لتولي شؤون المدينة. هكذا انطوت صحفات أسطورة «فيثاغورس» حتى أن بعضهم ادعى بما يناقض روايتي أنه لحق بالإله أبوللو في بلاد القاطنين وراء ريح الشمال وهي البلاد التي جبت أنحاءها دون أن أعثر له على أثر ثم أقمت في بلاط زلموكليس حيث جمعت الحقائق التي رويتها هنا.

الوثيقة رقم ١١

عند موت «فيثاغورس» تفرق تلاميذه وعادوا إلى أوطانهم يقيمون بين أهلهم فى صقلية أو على طول السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة الايطالية. وأخذت تظهر بين أفراد الجماعة بوادر البلبلة والشقاق حول بعض أركان العقيدة، مما حدا ببعضهم إلى إفشاء أسرار كان يفترض أن تظل علي الكتمان، وتأسست جماعات من المنشقين، منها الجماعة التي أنشأها هيبياس الميتابونطي جامعاً حوله نفراً من الأتباع أبرزهم هيبارخوس وهيبوقراطيس الخيسي وغيرهما.

ولكن الضربة القاصمة التي حلت بالجماعة بأسرها لم تكن بسبب الخيانات أو الخروج عن الطاعة والإنضباط، إنما نتجت عن خلل اكتشف فى داخل نظرية الأعداد وهدد بناءها الأخلاقي والميتافيزيقي كله، القائم أصلاً على مبدأ اتساق الأعداد وكمالها. ويتضح من قراءة مختلف النصوص والكتابات الواردة فى سجلات عبدة الصفر أن النظام الفيثاغوري ما انهار إلاّ لأنه رفض استيعاب الخلاء كعنصر مكوّن للعالم.

ولا يتناول النص التالى هذه القضية بالذات، بل مسألة شبيهة بها وملازمة لها، هي مسألة لامنطوقية بعض الأعداد التي لا يمكن حسابها وتتعارض من ثم مع ذات تعريف العدد بأنه قيمة قابلة للقياس. والواقع أن استيعاب فكرة الصفر ما بات ممكنا إلاّ عندما فقدت نظرية الأعداد اتساقها ووحدتها فغلبت على أمرها واضمحلت.

ومن الطريف أن هذا النص يحاكي نموذج المحاورات الأفلاطونية الذي تمرس عليه تلاميذ الأكاديمية، وأغلب الظن إذن أنه كتب في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد. ونورد هنا مطلع هذه المجموعة التي جاءت تحت عنوان «أوريتوس أو في لامنطوقية جذر ٢»، باسم الرجل الذي يصف نفسه بأنه المحاور الرئيسي لهيبونيقوس.

عندما علمنا بأن السفينة القادمة من ميتابونطي دخلت مياه الخليج توجهنا في وفد إلى الميناء. كان البحر هادئاً والريح ساكنة مما اضطر الملاحين إلى الإستعانة بالمجاديف لبلوغ الرصيف. هرعنا إلى القادمين نرحب بهم بالحفاوة التي اعتدنا أن نستقبل بها إخواننا وأفراد ملّتنا، وطفنا بهم في جولة لتعريفهم بمعالم المدينة ثم أصطحبناهم في موكب إلى معبد أبوللو. غير أن زوارنا بدوا لنا مغمومين منشغلين بل غير مكترثين بما أحطناهم به من الحفاوة والود. وعلماً منا بأنهم يحملون إلينا رسالة ذات شأن كنا نحاول أن نترصد على وجوههم فحواها ومدى خطورتها.

وعند انتصاف النهار انفردنا بهم أخيراً في القاعة الواسعة المنيرة التي كنا لا نفتحها إلاّ لكبار العارفين من اخواننا. وبعد الابتهالات والتحيات المعتادة انتصب هيبونيقوس واقفاً ونثر حفنة من الرمل الناعم على بلاط القاعة وخاطبنا قائلا:

– «أنتم يا من تتّحدون بالروح مثلنا مع فكر المعلم الراحل وتجلّون تعاليمه وتؤمنون بتسامي الأعداد وتحتفظون بسر عقيدتها، اسمحوا لي بمحاورة أحد أفراد جماعتكم لكي تأتي رسالتي إليكم في أوضح صورة وأبلغها».

أومأنا جميعاً بالايجاب فتوجه إليّ واستأنف قائلاً:

– يا صديقي أوريتوس، هل لك أن تعيد على أسماعنا آخر نظرية نقلها إلينا المعلم قبل رحيله؟

– بالتأكيد يا هيبونيقوس فما كان أسوأني تلميذاً لو أنني نسيتها! هاكها على بساطتها: مربع الوتر في المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربعي ضلعيه(١).

– أحسنت يا أوريتوس وصواباً قلت! ولعلك تذكر تلك السعادة التي غمرت المعلم عندما توصل إلى هذا الكشف العظيم، وكم كان يستحق من الذبائح و الأضاحي لو لم يتناف ذلك مع مبادئنا.

– أذكر كما لو حدث بالأمس!

– أفهل روادك الشك لحظة وقتئذ بأن هذا الاكتشاف يمكن أن يهدد جماعتنا بأسرها بل يؤدي بها إلى الانفجار والتشتت؟! أكنت تعلم أن هذه النظرية تهدد كل البناء المنطقي للأعداد وتعطل قدرتها على التعبير عن بعض حقائق علم الحساب؟!

– إنه لنبأ عجيب هذا الذى جئتنا به ويصعب عليّ فهمه. هات إذن واشرح قصدك.

– صبرك قليلا. ألست تعلم أن الأعداد الصحيحة وحدها قادرة على تفسير العالم في تعقيده، لأنها جواهر سامية ومطلقة؟

– بالتأكيد! فكل عدد هو عدد ولابد إذن أن يكون محدداً تمام التحديد ومعيّنا تمام التعيين.

– خذ إذاً حالة مثلث متساوي الساقين قائم الزاوية، يساوي ضلعه وحدة الطول، ألا تكون نسبة وتره إلى ضلعه ثابتة(٢)؟

– بلى، هذا ثابت بالبرهان.

– وهل استطعت يوماً أن تحدد هذه النسبة بدقة تامة؟

– لست أدري. ولكن بإمكاني للوهلة الأولى أن أسقط الضلع ب جـ على المحور الأفقي ب س، فأجد أن هذه العلاقة محصورة بين ١ و٢، بل بالأدق بين $\frac{١١}{٨}$ و $\frac{٣}{٢}$ (٣)

– أفليست هذه هي الكمية التي اتفقنا على تسميتها جذر٢؟

---

(١) راجع الشكل (١) في نهاية هذا الفصل.

(٢) انظر الشكل (٢) في نهاية الفصل.

(٣) انظر الشكل (٣).

- بلى!

- فاعلم إذن يا صديقي أوريتوس أنه تعذر علينا على الرغم من محاولاتنا واجتهادنا، أن نجد قيمة بعينها يمكن أن تكون مشتركة بين هذين الضلعين (أب و ب جـ) وأن نصل إلى عدد حقيقي يمكنه تحديد هذه النسبة، باستثناء تلك الصيغة الغامضة المبهمة أعني بها جذر٢؟

- واصل حجتك!

- يبدو من أبحاثنا أنه لا سبيل إلى ايجاد كمية مشتركة للمقارنة بين قطر المربع وضلعه. وباصطدامنا دائماً بالصيغة الثابتة جذر ٢ نجد أنفسنا أمام مرتبة في القيم تفلت من بين أيدينا، ويستحيل حسابها ما لم ندرج الأعداد الصحيحة في متوالية تبدو لا متناهية.

- ماذا تقصد!؟

- ما أقصده يا عزيزي أوريتوس هو أن قطر المربع يتعذر حسابه بالنسبة الى ضلع المربع.

- (...)

- ولكن قل لي أيضاً، أما عرّفنا المنطوقات سابقاً بعلاقة معيّنة بين حدّين؟

- دون شك. فهذا شرط لازم للمعقول!

- أو لم نتفق بالمثل على أن الانسجام يتأتى من التناسب التام بين الكل والجزء، وفقاً لعلاقة مثالية قابلة للقياس؟

- هذا صحيح!

- أفلا ترى إذن أن جذر٢ لا يتفق مع أي من هذه التعريفات وأنه باعتباره نسبة مستحيلة القياس بين ضلع المربع وقطره فهو بالتالي مقدار لا معيّن يتنافى مع العقل ويخرج عن ضابط اللب والمنطق؟

- صدقت!

- ولما كان هذا المقدار غير متناه على ما يبدو، فهل يسعنا معرفة ما إذا كان هذا العدد الكسرى في نهاية المطاف زوجياً أو فرديا؟

- هذا مستحيل!

- أو لعله الإثنين معا!؟

- وكيف لنا أن نعلم حقا؟!

- أفلا ترى معي أن بين القول إن جذر٢ عدد مستحيل لأنه لا يتفق على الإطلاق مع التعريف التقليدي للعدد وبين إعلان استحالة وجوده قيد خطوة؟!

- يسهل اجتيازها أي والرب زوس! ولكن استنتاجك هذا يخيفني!!

- حق لك أن تخاف يا أوريتوس ويضطرب قلبك! فهل يمكننا أن نقول أن جذر٢ لا وجود له في الواقع في حين كل الدلائل تشير إلى عكس ذلك؟

- إن في ذلك انكاراً للواقع البديهي!!

- وهل يمكن لشيء ما في نفس الوقت أن يكون ولا يكون؟!

- هذا مستحيل!!

- هذا ما وصلنا إليه يا عزيزي أوريتوس. فان جذر٢ باعتباره كمية لا متناهية، وخارجه عن كل علاقة نسبية، هو إذن مسخ رياضي قبيح يتحدى الحس المشترك ويهزأ بنظرية الأعداد، هو صدع يهدد انسجام الكون وكماله المفترض.

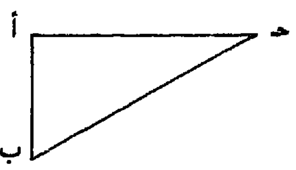
- وأن لا منطوقية جذر٢ تعني إذن أنه يوجد في علم الحساب نفسه مقادير - أهو أعداد يا ترى؟ - لا متناهية تخرج عن سلطان الأعداد ذاتها!!

- فهمتني يا عزيزي أوريتوس. فمنطقك أصابه الخلل كما أصاب منطق أصحابك ومنطقنا جميعا. هذا ما دعانا إلى الطواف على كل جماعات إخواننا نتوسل إليهم أن يوحدوا الجهود لايجاد حل لهذه المسألة. فبهذا الحل يرتهن بقاء الجماعة بأسرها. فان جذر٢ يخذل نظرية الأعداد ويثبت عجزها عن التعبير عن جميع الظواهر، ويقوض من ثم البناء الأخلاقي والميتافيزيقي المرتبط بها. ابتهلوا إلى آلهتكم وتضرعوا فعسانا نكون جميعاً أسرى وهم من الأوهام، وعساها ترشدنا إلى عدد - مهما كان كبيراً - يكون متناهياً ويستوعب جذر٢ في كليته.

(...)

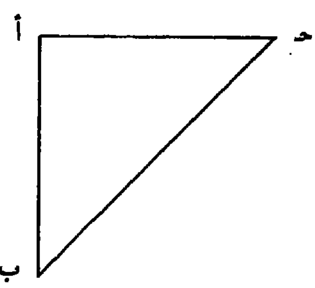
حاشية:

الشكل ١: فلنفترض المثلث أ ب جـ

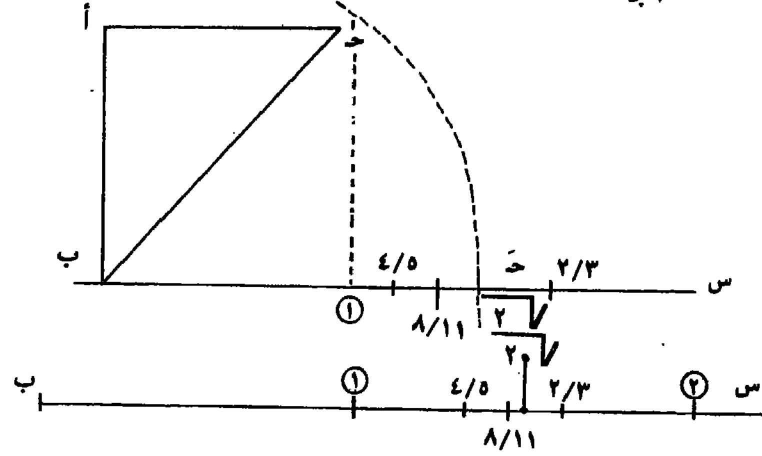


أ ب^{٢} + أ جـ^{٢} = ب جـ^{٢}

الشكل ٢: فلنفترض المثلث قائم الزاوية المتساوي الأضلاع أ ب جـ، أياً كان طول الضلع أ جـ تظل العلاقة: $\frac{\text{أ جـ}}{\text{ب جـ}}$ ثابتة دائما.



الشكل ٣: فلنسقط الضلع ب جـ على المحور ب س لنحدد تجريبياً نسبته إلى أ جـ. نجد أن النسبة $\frac{\text{ب جـ}}{\text{أ جـ}}$ تساوي جذر٢ مقداراً منحصراً بين ١و٢، وبصورة أدق بين $\frac{١١}{٨}$ و $\frac{٣}{٢}$



الوثيقة رقم ١٢

وصلتنا هذه الوثيقة في آخر لحظة عن طريق أحد ورثة الكونت دي كاستيليا كنت التقيت به صدفة أثناء رحلة لي في صقلية لمتابعة أبحاثي وكاشفته في معرض الحديث بأعمالي. فأخبرني عن جد له توفي في ١٨٦١ كانت له أطيان واسعة في كالابريا وفي صقلية، اهتم هو الآخر بالفيثاغوريين وانشغل في أوقات فراغه بفكرهم ودرس عن كثب بعض الآثار التي خلفوها.

وبينما كان في نواحي تارنتا يتفقد مع ناظر أعماله بعض الأراضي التي كان يرغب في امتلاكها، وقع على أطلال بناء دائري نصف متوار في الأعشاب والعليق أثار فضوله، فعاد إليه بعد شراء الأرض وشرع في التنقيب في الموقع لحسابه الخاص ولمجرد إشباع رغبته في المعرفة.

وقد أرسل إلينا ايمانويل دي كاستيليا المذكرات التي دونها جده في صورة يوميات لحملة تنقيب الموقع المذكور، وطرح في مقدمتها عدة تساؤلات عن طبيعة ذلك البناء الذي يوحي لأول وهلة بأنه برج من أبراج المراقبة، في حين أن تشييده بعيداً عن المدينة بل وفي منخفض من الأرض يتناقضان تماماً مع هذا الافتراض.

وإذا كانت النتائج التي خلص إليها في هذه اليوميات - ولا نورد منها إلا الجزء الأخير - قد تبدو للبعض على جانب من الغرابة، فإن الحجارة نفسها التي ظلت دفينة التراب لعدة قرون وعكف في صبر وعناية على استخراجها وترقيمها وفك رموز النقوش المحفورة على وجهها الباطني، هذه الحجارة تشهد على حقيقة عدد من الوقائع المثيرة، وقد أذهلني ما وجدته في هذه الخلاصة من مصادفات تتطابق مع النص السابق، فلم أقاوم الرغبة في ادراجها في هذا الموضع بعد أن تكرم ورثة الكونت دي كاستيليا بمنحني تصريحاً بنشرها.

(...) إن النتائج الأخيرة التي وصلت إليها تحملني إذن على الاعتقاد بأن البناء ليس على الإطلاق برج مراقبة كما ظننت في بادئ الأمر إنما شيد ليؤدي وظيفة ذات طابع خارق ومقدس.

وأظنني أستطيع بشيء من الدقة أن أرد تاريخ بنائه إلى أواخر القرن السادس وأوائل القرن الخامس قبل الميلاد. وتشير بعض الآثار التي وجدتها في الموقع، من بقايا جدران وأساسات أبنية قديمة، إلى أن المكان كان في يوم من الأيام مقر إحدى جماعات الفيثاغوريين التي انتشرت في ذلك العصر حول البحر المتوسط كله وفي هذه المنطقة بالذات. وقد صممت الأبنية، كما تبين لي من مسح معالمها، استناداً إلى رسوم هندسية خطت على الأرض في أشكال رمزية واضحة يسهل تفسيرها، ولا سيما النجم الخماسي

الذي يعد من الرموز النموذجية الدالة على وجود هذه الجماعات ومعتقداتهم، وبناء على المعلومات التي جمعتها ووجدتها مطابقة لنتائج أبحاثي والكشوف التي عثرت عليها في الموقع أستطيع أن ألخص تاريخ هذا البرج على النحو التالي:

لا ريب أن المعضلة التي واجهها الفيثاغوريون إزاء استحالة استخراج جذر٢، وما يترتب على ذلك في نظرهم من أن بعض أجزاء الكون وعالم الواقع تخرج عن سلطان الأعداد وتخرق قانونها، قد حدت بهم إلى صرف كل طاقاتهم إلى إيجاد منفذ لهذا المأزق النظري الذي يهدد الجماعة بفقدان سطوتها والحط من شأنها في نظر العامة، وأبى الكثيرون الأنصياع لهذا المصير المحتوم معتقدين أنه إذا تعذر ايجاد عدد يعبر تماماً عن جذر٢ فما ذلك إلا لأن أحداً لم يستنفد عملية الحساب ولم يذهب بها إلى منتهاها. فانبرى عندئذ كبير جمعية تارنتا الواسعة النفوذ آنذاك - والبعض يقول إنه هويسيكليس الطيبي بينما يذهب آخرون إلى أنه أناخيلاوس الأبديري - وعقد العزم على وضع حد نهائي للمزاعم القائلة باستحالة قياس جذر٢.

فأمر لهذا بإقامة برج عظيم يتوسطه سلم لولبي صمم وفقاً لمخطط معماري حاذق يجعله مستقلاً تماماً عن الحائط ويسمح في نفس الوقت بالوصول إلى كل شبر فيه تاركا الوجه الباطني حراً تماماً أشبه بجدار برميل عملاق. وصقلت حجارته بعناية حجراً حجراً بحيث أصبحت مساحة جدار البرج من الداخل صفحة ملساء متجانسة تماما. وأغلب الظن أنه عندما أنجزت أعمال البناء ورفعت درجة السلم الأخيرة فكانت بمثابة سطح يطل مباشرة على الفراغ، توجه أعضاء الجماعة في موكب رسمي إلى مدخل الصرح ونقشوا إلى يسار الباب قيمة جذر٢ وأعلنوا العزم على استخراجها حتى ولو اقتضى الأمر الوصول بالحساب الى قمة البرج.

وبحسب القليل الذي نعرفه يعتقد أن الجماعة شكلت فريقين يتناوبان للقيام بهذه المهمة بلا انقطاع يضم كل منهما ثلاثة أفراد نقشت أسماؤهم في أسفل ساكف الباب. ففي كل فريق، يبدأ الحاسب بإضافة عدد عشري إلى حاصل القسمة، يليه المحقق فيعيد الحساب بالاتجاه المعاكس للتأكد من صحة العدد الذي وجده الحاسب، ثم يأتي المدوّن فينقش بإزميله الحاصل على إثر الأعداد السابق تسجيلها، وفقاً لرسم لولبي يمتد طوال الحائط في خط متصل يمكن أن يصل إلى القمة.

وتعاقبت السنون وأفراد الفريقين منهمكون في مهمتهم يرقون السلم شيئاً فشيئاً دون استنفاد سلسلة الأعداد اللامتناهية المكونة لجذر٢، مع اعتقادهم الراسخ بأنهم يقتربون يوماً بعد يوم من النهاية، وتزداد حساباتهم دقة مع كل خطوة. ومات في غضون ذلك رئيس الجماعة الذي أمر بهذه الأعمال دون أن يشك لحظة في نجاح مشروعه، إذ أن في فشله تشكيك في سلطان الأعداد وقدسيتها وتقويض لأساس العبادة والطقوس التي تنتظم حولها حياة الجماعة بأسرها.

وتؤكد الروايات أن هذه الأعمال دامت حتى عهد أرخيتاس قائد تارنتة وطاغيتها الذي كان فيثاغوري المعتقد وصديقاً لأفلاطون. ويبدو أن العملية توقفت بعد موته ربما لقلة المال أو لفتور أصاب الجماعة. وتروي الأسطورة أن أحد أفرادها أصر على مواصلة المهمة وحده رغم كبر سنه وعزلته العظيمة، إذ تخلى عنه الجميع إلاّ بضعة فلاحين ورعاة عطفوا عليه ومدّوه بما يقيم أوده. ودارت الأيام وأقفرت المدينة وانتشرت الوحشة في جنباتها وهو مثابر في حساباته مصمم على عدم الرجوع عن هدفه، يرتقي السلم درجة بعد الأخرى مقترباً بلا هوادة من القمة. وتحول الموقع حوله إلى أطلال لم تلبث أن أتتها قوافل العربات من تارنتا لتنتزع حجارتها التي استخدمت فيما بعد لتوسيع المدينة في عهد الرومان. وأقفر الموقع تماماً، ومازال وحده يستبسل بضراوة في حماية مدينته من جشع المخربين، يسابق معهم الزمن عساه ينقذ ما تبقى منها، يقينا منه أن نجاحه في مهمته كفيل برد الروح إلى الجماعة المنقرضة واستقطاب المريدين من كل صوب.

وهنا تروي الأسطورة أنه لما بلغ الدرجة الأخيرة ووضع إزميله على طرف آخر حجارة البناء لينقر العدد الأخير، وكان لايزال قاصراً عن إتمام الحساب، راوده شعور غامض بأنه قد يكون أخطأ في مكان ما. وانتابه هلع عظيم أمام لولب آلاف الأعداد الصاعدة نحوه يكاد يغرق في دوامتها، ونضح جسده عرقاً بارداً وأخذه دوار عنيف لمجرد تصوّره أنه ربما ارتكب خطأ أدى به إلى الفشل وكان العلة الوحيدة لهزيمته. ودون أن يستوفي الرياضي العجوز حساب جذر٢، أو يستطيع على حد تعبيره «استخراجه من بطن الإله»، يقال إنه أرسل بصره إلى السماء في تلك الليلة وخطر له أن يستمر في الصعود محمولاً على ذلك التراكم الهائل من الأعداد العقيمة الميتة الصماء، فيمد خيطها عبر الفضاء ليربطها بأطراف المجرة. وهنا فقد العجوز لبه وهوى في عالم الجنون.

ويقال إنه أدرك أخيراً في هذيانه ماهية تلك القوة اللامتناهية الخفية العديمة القرار القائمة حاجزاً في وجهه دون أن يتمكن من الإمساك بها، فهم أن ملكوتها فوق ملكوت الأعداد ذاتها، هي الصفر المتعذر المنال، القادر وحده على وضع حد لحسبته بطرح العدد الأخير من نفسه دون بقية، وفجأة سطعت روحه بنور المعرفة وأدرك أن الصفر المستتر وراء جمهرة الأعداد تحجبه عن الأبصار، هو وحده الإله الحق منتهى جهوده ومحط آماله، مصدر كل الفناءات وينبوع كل السعادات، فتأججت روحه شوقاً إلى الإتحاد به والفناء فيه ولم يلبث أن لعن غرور بني البشر وألقى بنفسه في الخلاء.

الوثيقة رقم ١٣

إن المأزق النظري الذي واجهه الفيثاغوريون وما صاحبه من اضطرابات سياسية وخيانات، أدى بفرقهم إلى التمزق والانحلال أو إلى الانطواء على الذات، فباتت منذ ذلك الحين محط النقد والتجريح. وبالرغم من هذه البلبلة التي حلت بالجماعة ظهر فيها تياران كبيران:

جماعة «الأكوسماتيكيين» التي حملها اصطدامها بجذر٢ إلى هجر كل بحث رياضي للانصراف إلى تعاليم «فيثاغورس» المرتبطة بالأخلاق والطقوس والتقيد الصارم بالمحرمات. ولم يلبث تمسك أفرادها بحرفية التقاليد وممارساتهم المثيرة للسخرية وزيهم الغريب أن حط من شأن الجماعة بأسرها، فهزأوا بهم في المسارح وكتبوا فيهم المهازل كتلك التي وضعها منيميزاكوس وأرستوفون الذي سمّاهم «القذرين» في ملهاته «فيثاغوريستيس».

وجماعة «الرياضيين» التي نشدت سلامة العقيدة ووحدتها بالتفاني في عبادة الأعداد، ورأت أن في ممارسة علوم الحساب وحدها بلوغ الزهد الحقيقي. ولكي يحافظ هؤلاء على سرية عقيدتهم، كثيراً ما اضطروا إلى التستر في ممارستها. وهذه هي الجماعة التي استقر أحد فروعها في الأسكندرية عند تأسيس المكتبة الكبرى، ومنها انحدر عبدة الصفر.

وبالرغم من هذه الصعوبات الداخلية ظلت تعاليم «فيثاغورس» حية نشيطة في بلاد اليونان بدليل أنها أصبحت منذ ذلك الوقت المبكر بمثابة الملك المشاع. فقد أبعد فيلولاوس القروطوني من جماعة الفيثاغوريين آنذاك لا لمجرد إنشائه مدرسة في طيبة لنشر مذهبها السري بل لأنه باع دينيس طاغية سيراقوسة ثلاثة مخطوطات يعتقد أنها كتبت بيد المعلم نفسه، وكان الأولى أن تظل حكراً للجماعة.

ونعلم أن أفلاطون أطلع في فترات إقامته في بلاط طاغية سيراقوسة على هذه المخطوطات وتعرف منها على مبادىء المذهب الفيثاغوري. حتى أنه في رسالته إلى «ديون» في صقلية طلب منه أن يبتاعها له لقاء مبلغ مئة مينة. ويقال أيضاً إن تيماوس التاورميني، الذي كان فيثاغورياً مؤمناً، جاب البلاد سعياً إلى الاتصال بأواخر فرق الفيثاغوريين والتنقيب في محفوظاتهم، هو الذي أوحى لأفلاطون محاورته الشهيرة التي سماها باسمه وضمن فصلها الخاص بقصة التكوين بعض عناصر كونيّات فيثاغورس فقال: «لما بدأ الكل يتناظم ويتناسق (...) خلع الله على جميع هذه الجواهر صورها بفعل المثل والأعداد» (تيماوس).

ولئن كانت النصوص الواردة في محفوظات عبدة الصفر تعطي صورة وافية لتطور

الجماعات الفيثاغورية، فإن خلوها شبه التام من أي مخطوط يمت إلى هذه الحقبة وما يليها مباشرة دليل على ما شهدته هذه الجماعات من انحطاط نسبي أو اندثار تام، أم أن انطواءها على نفسها وتقلصها إلى جمعيات سرية كان السبب في تعذر العثور على دلائل تثبت وجودها. وثمة نص واحد يمكن نسبته إلى تلك المرحلة الصعبة التي دامت حتى انبعاث الحركة في روما بعد ذلك بقرابة القرنين، وهو ليس فيثاغورياً أصيلا بل مجرد نقل عن جمهورية أفلاطون، وأغلب الظن أن نسخ في وقت متأخر. فأمامنا إذاً طرس حقيقي تراكبت فيه الكتابات، فحكت البردية المنسوخ عليها النص الذي يعنينا لتدوين نص آخر لا يبدو لنا بذي شأن. وبقيت منه آثار واهية استطعنا بالاستشفاف فك رموز ما تيسّر استجلاؤه من كلماته ومقاطع جملة، ونورد هنا ترجمة للنص بلغة مقروءة. ويتبيّن لنا من المصير الذي لاقاه هذا النص في محفوظات الطائفة أن الفيثاغورية ولئن كانت قد تحالفت مع الأفلاطونية الحديثة وسايرتها في فترة من الفترات فمن الواضح أنها انصرفت عنها وأهملتها في فترات أخرى.

«فيجدر إذن يا غلوكون فرض هذا التعليم بقانون وحمل المرشحين لتولي أعلى المناصب العامة على التبحر في علم الحساب، لا لمجرد المعرفة السطحية، بل للتوصل بالعقل الخاص إلى استكناه طبيعة الأعداد؛ واقناعهم بالإمعان في هذا العلم، لا لاستغلاله في البيع والشراء شأن التجار والباعة، بل لتطبيقه في الحرب ورفع النفس من عالم المحسوسات الحادثة إلى عالم الحقيقة والماهيات الثابتة».

– أحسنت!

– وإني لأدرك الآن وقد تحدثت عن علم الأعداد كم هو علم جميل ومفيد لغرضنا في الكثير منه، شريطة أن ندرسه طلباً للمعرفة لا للإتجار والتكسب.

– وما يطربك فيه إلى هذا الحد؟

– يطربني فيه قدرته تلك على أن ينفخ في النفس قوة تطلقها نحو الملأ الأعلى وترغمها على تعقل الأعداد في ذواتها فلا تسمح للمعدودات المرئية والمحسوسة بالتسرب إلى استدلالاتها (...).

الوثيقة رقم ١٤

ليس غرض هذا الكتاب التعمق فيما ولّدته الحركة الفيثاغورية في أنحاء العالم القديم من ثمار متنوعة متفرقة أينعت هنا وهناك. فلم يكن «فيثاغورس» كما يتضح من هذه النصوص إلاّ عَلَما عن طريق الوعي بحقيقة الأعداد الذي بلغ عنده حد التصوف، واقترن بحدس محتمل بالقيمة الصفرية على ما اعتقد أصحاب المحفوظات. ولكن الجهاز التعاليمي لعصره لم يتح له وسيلة تمكنه من رسم صورة تلك القيمة. وأغلب الظن أن هذا الحدس المفترض ظلّ بلا تليّة تعقبه لأنه لم يشخص في عبارات عينية. فكان على أخلاف «فيثاغورس» وتلاميذه المتأخرين أن يخوضوا المعارك على مدى قرون من الزمان ويواجهوا أعاصير النزاعات المتوالية مع النصارى ويذوقوا مرارة الصدامات والإنشقاقات في صفونهم ويجرفهم تيار التفكك والانحطاط ويتعرضوا لألوان الملاحقة والاضطهاد حتى ينضج أخيراً فكرهم ويتهيأ لقبول هذه البداهة وتصورها.

يمكن القول إجمالاً، وإن لم يظهر ذلك في المحفوظات، إن الحركة الفيثاغورية مرت بفترة أفول نسبي قبل أن تبدأ نهضتها الوئيدة في روما قرب القرن الثالث. فقد روى بلينوس أن كاهنة معبد أبوللو أمرت زهاء عام ٢٩٥ قبل الميلاد بإقامة تمثال لفيثاغورس يتوسط الساحة الكبرى. والواقع أن هذه الحركة لم تبلغ ذروتها إلاّ فيما بين سنة ٦٠ قبل الميلاد وسنة ٥٠ بعده. وكان أعضاء الفرقة منظمين آنذاك في جماعات سرية وتعرضوا في عهد قيصر وفي عهد كلاوديوس من بعده لتنكيل السلطة السياسية التي أخذت تلاحقهم بإجراءات النفي والإبعاد متهمة إياهم بالتآمر على الدولة.

ومن مفارقات الأمور أن تتجاهل محفوظات طائفة عبدة الصفر هذه الفترة من الزمن تجاهلاً تاما. فهل تأصلت الخلافات المذهبية بين تلك الفرق المقيمة على شواطيء البحر المتوسط وبلغ بها الأمر حدّ الترافض وإنكار الواحدة على الأخرى صفة الفيثاغورية؟ ما من شيء يؤيد هذا الافتراض. وعلى أية حال فهذه المحفوظات تكاد تخلو من أية نصوص تتعلق بفترة امتدت خمسة قرون من الزمان.

ومع ذلك فثمة تفسير محتمل: بعض أعضاء الجماعة ممن استقروا في الأسكندرية وقت أن تربعت في السلطة سلالة اللاجيين المقدونية أخذوا في الازدهار وتكوين فرقتهم من جديد، وفي هذه الأثناء إبان حكم بطليموس الأول المنقذ وبطليموس الثاني فيلادلفوس تقرر إلى جانب انشاء المنار الشهير وجامعة الموسيون تشييد المكتبة الكبرى. فعهد ببنائها وتنظيمها إلى ديمتريوس الفليري طريد أثينا الذي عني بهذه المهمة وتولى شراء أولى المخطوطات. وينسب إليه بلوتاركوس هذه الكلمات المريرة التي ربما كانت دافعه إلى التفاني في مهمته: «إن الكتب أشجع من الجلساء في قول الحقيقة للملوك».

ويحتمل أن تكون الجماعة الفيثاغورية بالأسكندرية قد كلفت، لقاء إهداء بعض من محفوظاتها، بالاشراف على مقتنيات المكتبة وإثراء مختلف أقسامها ولا سيّما قسم الفلك والرياضيات. ولنا أن نتصور أن أعضاء الطائفة لم يجدوا متسعاً من الوقت إزاء هذا الفيض الهادر من المخطوطات[1] كي يحفظوا أو يجمعوا في محفوظاتهم الخاصة رسائل كانت في معظمها مسجلة بالقوائم ومتاحة لمن يرغب الاطلاع عليها.

يوضح صاحب الوثيقة التالية أن الحريق الذي التهم جزءاً كبيراً من المكتبة - قضاء وقدراً؟ - في عصر يوليوس قيصر سنة ٤٧ قبل الميلاد هو النذير الذي بصّر الفيثاغوريين بمدى تعريض تلك النصوص للخطر بتجميعها في مكان وحيد. وأدرك كل واحد منهم أن بقاء الجماعة بأسرها يرتهن بكارثة مماثلة. ولا يمكن تخيل مدى اليأس الذي اعتصر قلوب أولئك القوم الذين رأوا معارفهم كلها تتحول في لحظة إلى كومة من رماد. في الحريق إذاً بعض ما يفسر هذه الثغرة في محفوظات الطائفة. وإن كانت المكتبة أعيد تكوينها جزئياً عندما أهدى أنطونيوس إلى كليوباترا ٢٠٠٠٠٠ مجلد من مكتبة برجامة، لم يمكن أبداً سد الفراغ الذي قرر الفيثاغوريون بسببه أن يعدلوا استراتيجيتهم، خاصة أن الأحداث تلاحقت فيما بعد وتصاعدت الأطماع والأحقاد مجتمعة فاستمدوا منها تأييداً للثبات على موقفهم.

في إطار هذه الظروف تندرج مبادرة بوليمناستوس الخلقيسي. فقد شرع بمساعدة تلميذه فيلونيدس الابن في تكوين محفوظات موازية من شأنها أن تصون الصرح النظري للجماعة، وكان مشروعه فريداً من نوعه، اتبع فيه نهجاً مغايراً للعادة التي درج عليها الفيثاغوريون في نقل المعارف خلفاً عن سلف دون تدوينها إلاّ فيما ندر.

سعى بوليمناستوس إلى تجميع كل ما تأتّى له من مخطوطات يقتنيها أثناء رحلاته إلى اليونان الكبرى، ولكنها كثيراً ما كانت من الرداءة بحيث وجب إكمال المطموس منها لتحديد وتوضيح معانيها، وكان أيضاً يكلف تلميذه بأن ينقل من مصنفات المكتبة كل مخطوط يشير ولو من بعيد إلى تاريخ الحركة الفيثاغورية وإلى مذهبها.

يتضح من هذا النص أن فيلونيدس أراد أن يمجد ذكرى بوليمناستوس بعد مقتله، فهو معلمه الذي عرفه بمتعة الاطلاع على المخطوطات القيمة وكشف له سحر فن الخط والتدوين. وخير ما أمكنه أن يفعل هو أن يبوئه مكانة في المحفوظات التي أنشأها فيسجل فيها اسمه ويروي قصة مصرعه. والمرء يتساءل عن هوية الإمبراطور الروماني الذي استولى على تلك الكميات الهائلة من الكتب، وإن كان من اليسير بمرور الزمن تصورها طريقة سائدة في ذلك العصر، فمن الأباطرة من لم يصمد أمام إغراء هذا الكنز العظيم، اغترفوا منه دون تورع. ومن ذلك يمكن اقتراح اسمين ينسب إليهما تخريب مدينة

---

(١) وفقا لحسابات أميان مرسيلينوس واولوجيللي بلغ عدد المجلدات في المكتبة وملحقاتها في وقت من الأوقات ٧٠٠٠٠٠ مجلد.

الأسكندرية وتدميرها، وفي النص ما يلمح إلى شيء من ذلك. فامّا أن يكون كراكلا إبّان حملته على مصر عام ٢١٥ بعد الميلاد حيث يقال إنه أمر بإغلاق الموسيون - وإن كان هذا لا يستقيم مع التاريخ المذكور في النص لإنشاء مكتبة الأسكندرية على يد أمونيوس ساكاس في سنة ٢٤١. وإمّا أوريليانوس في عام ٢٧٠ إذ يعرف أنه أمر بإحراق حي بروكيوم الذي كانت تقع فيه المكتبة وانه اغتنم فرصة ما وقع من فوضى واضطراب ليستولي على المخطوطات. أما نحن واليقين يعوزنا فلا يسعنا إلاّ أن نعتبر هذه الإدعاءات مجرد افتراضات.

حاولنا أن ننقل في هذه الترجمة أسلوب فيلونيدس المتكلّف الذي يعرف به عن حماسه وإجلاله لبوليمناستوس، وتنم نبراته التي لا تخلو من صدق عن يفاعة عمره وفخره الشديد بخلافة المعلم الراحل من أجل إنجاز عمله وإتمام رسالته.

رثاء بوليمناستوس

الخلود لبوليمناستوس، ولتكن هذه شهادة من تلميذه الوفي تبجيلاً لاسمه وتمجيداً. كانت خلقيس مسقط رأسه وكان اسم أبيه اكسانوفيل. لما تصعدت الأخطار وفشت الهمجية في البلاد رأى في المنام الحريق العظيم الذي اضطرم في المدينة والتهمت نيرانه المكتبة أيام كليوباترا السابعة، فيلوباتور بنت بطليموس الثاني عشر نيوس ديونيسوس. فما أن استيقظ في الصباح الباكر حتى قرر أن يشاور معلمي الجماعة في أمر تكوين محفوظات سرية تحفظ للفرقة دوامها ومذهبها تحسباً للأزمنة المقبلة. وأمام معارضة بعض أعضاء المجلس لفكرته نبّههم إلى تردي أسباب الأمن في المكتبة، وتزايد أفعال التخريب نتيجة للتعصب النصراني المتصاعد الذي يحمي الاضطهاد وطيسه ويزيده صلافة وتصميما.

وفي محاولة أخيرة لإقناعهم قال بوليمناستوس إن العودة إلى النصوص القديمة، سترغم الجماعة على تنقية مذهبها من الشوائب، والإبتعاد عن الأفكار المشربة بالفلسفة الأفلاطونية التي انتشرت عدواها مع قيام أمونيوس ساكاس العتال بفتح مدرسته في الاسكندرية، واستقطابه لتلاميذنا الذين يترددون على المكتبة حتى أنهم بلا وعي منهم يستعيرون الكثير من أفكاره.

أخيراً قبل الاقتراح وأخذ المجلس بتوصياته، وقرر العودة إلى صرامة التقاليد الشفهية والإنطواء على الذات، تجنباً لكل انحراف قد يأتي من التأثيرات الخارجية. . . . بعد أن ارتقيت مرتبة السالكين، كنت أعمل ذات يوم باشراف بوليمناستوس، يملي عليّ فأكتب على مخطوط ما يمليه أو أضيف شروحاً في مخطوط آخر. وعلى عادتنا كنا جالسين في الغرفة العليا المكرسة لديونيسوس، والمزدانة بتمثاله القائم في مدخلها، وسميت هذه الغرفة أيضاً «قاعة النصب» لأن أحد حيطانها منصوب فيه منذ إقامة المبنى

لوح من الرخام حفرت عليه أسماء ديمتريوس الفليري وزينودوتس الأفسوسي الذي عني بأعمال هوميروس وكاليماخوس الذي يقال إنه أول من وضع فهارس الكتب، وأرستوسثينيس الذي نكن له نحن الفيثاغوريين محبة خاصة لأنه وضع «الأفلاطوني» الذي يعلق فيه على «تيماوس» أفلاطون، وأبولونيوس الرودسي، ومن فقهاء اللغة أرستوفانوس البيزنطي وأرستارخوس اللذين كان يرى بوليمناستوس ضرورة الرجوع إليهما باستمرار.

اعتدت أن أجلس في المكتبة إلى قمطر من القمطرات القليلة التي لا تزال في حالة جيدة، مزود بصندوق يحوي أدوات الكتابة، مغشى بالصدف تحيطه رأسا أسدين كبيرين يقال إنهما جلبا خصيصاً من بلاد فارس في القرون الغابرة. وعلى منضدة كبيرة مفروشة بالمخطوطات كان بوليمناستوس فارداً مختلف لفافات البردي، يحاول أن يحقق ويثبت النسخة النهائية من «أباريس» هيراقليدس البونطي، يقارن بين عدة نسخ كانت موضع جدال شديد. وكان ينتقل بين أنحاء القاعة ويمر أحياناً من ورائي ملقياً نظرة ليتأكد من صحة ما استنسخ. ولوهلة وقف حائراً كأنه يواجه صعوبات لم يتوقعها، أو لعله كان مستغرقاً في فكره، في التعليق الذي كان يعتزم من زمن طويل أن يؤلفه على هذا الكتاب.

فاغتنمت الاستراحة وقمت أتمشى قليلاً متوجها إلى النافذة، وقد أشرفت الشمس على الزوال ومالت أشعتها الدافئة الذهبية تنتشر على أخشاب المبنى الداخلية. بقيت المكتبة خالية طوال النهار لم يتردد عليها أحد من روادها خشية من قمع الامبراطور الذي لم يتردد في الأيام القليلة السابقة في نشر الخراب والدمار في أنحاء المدينة. فلم يكن هناك سوى العجوز المجنون فيلونطوس مقيماً في الحديقة كعادته مشغولاً بالعثور على من يناظره في الكتاب الذي يعزم تأليفه والذي لم يسطر سطراً فيه. كذلك ديوكليس حارس المخطوطات الأمين رائحاً غادياً في الأروقة العليا، أتتبع وقع خطواته البطيئة على الأرضية الخشبية وما تنثره من هباء ينفذ من خصاص الألواح ويضيء في شعاع الشمس الذي يخترق القاعة أمامنا. الواقع أن هذه القاعة كانت دون غيرها من قاعات المكتبة تلتف على ارتفاع جدرانها الأروقة والسلالم. ولم يكف ديوكليس عن ذرعها دون كلل يتحقق من ترتيب المخطوطات ويحمل منها تحت ابطه ما يحتاج إرساله إلى المبنى الملحق بالمكتبة لتلصيقه أو ترميمه.

كل يوم في هذه الساعة المغربية كان يصلنا نسيم البحر رطباً ندياً، يحمل لنا أصوات المدينة مضفياً عليها حدة تفخمها صرير العجلات وصياح الأطفال ونداءات الباعة الجائلين ونفير الحراس ونباح الكلاب، لغط يتصاعد ويعيد للحياة حقوقها بعد أن كاد القيظ يسكتها. أما اليوم فلا شيء من ذلك: المدينة قابعة خائفة من أعمال الانتقام والتنكيل، هجر أهلها جل أنحائها ومنها حي المكتبة. صمت مطبق يتردد فيه أحياناً مع تقلبات الريح

همس خفيف آت من أمواج البحر المتلاطمة على حاجز الهبتاستاد[٢] أو على الصخور المتدة في مدخل الميناء.

ظل قرص الشمس معلقاً فوق الأفق يسم ببقع من الظل والضياء عوارض ودعامات هيكل المكتبة الداخلي، لا تكاد تخلو واحدة منها من اسم منقوش أو كلمة حب أو عبارة فحش أو من أبيات من شعر هوميروس، شهادة ممن تقاطروا على مر السنين وأرادوا في راحة من أوقات الدرس أن يتركوا أثراً لمرورهم بالمكتبة. ثم تأتي ساعة تتمطى فيها القطط التي جلبت إلى المكتبة منذ أيامها الأولى لتحميها من الجرذان والفئران، تجثم متوازنة على حواف الأسوار والشرفات الخشبية أو تتسرب من تحت درجات السلالم. وأحيانا تتجاسر هرّة فتقفز فوق قمطري لا تفسد للكتب نظاماً وإنما تكوّر جسمها وتضم قوائمها لتراقب بعيون يقظة من تحت جفونها المتثاقلة القلم وهو يحك الرق الغليظ الخشن.

حلّ الظلام في القاعة، ورغم اشعال المصابيح الزيتية لم تعد عيناي المنهكتان قادرتين على أن تميزا في العتمة صفوف الصناديق الحجرية التي يودع فيها ديوكليس كل ليلة أثمن المخطوطات لحمايتها من القوارض والرطوبة بل من اليمام والحمام المعشش في السقف والذي يعتقدون أن حموضة زراقه تتلف البرديات.

في هذه اللحظة الأثيرة، لحظة كأنما يتجمد فيها الزمن يؤذن بانتهاء العمل مع زوال النهار، اندفع في القاعة فجأة عبد ديوكليس المكلف باصلاح المخطوطات وتجديدها لاهثاً يتصبب عرقاً. حينئذ فطنّا إلى أننا لم نسمع بعد نفير البوق الذي يعلن اغلاق المكتبة تحسباً من الحرائق وأن موعده انقضى منذ مدة فأدركنا أن شيئاً غير عادي قد حدث بلا ريب. فأكد لنا العبد أن عدة عربات اقتحمت حرم المكتبة بخفارة ثلة من الجيش الإمبراطوري. ولم نلبث أن سمعنا صرير محاورها واحتكاك عجلاتها على البلاط غير المستوي، أعقبه صراخ وفرقعات سياط عندما حاولت اجتياز الدرجات المؤدية إلى البهو. دخل علينا قائد مائة قابضاً على سلاحه رافعاً لفافة في يده وجهر بملء صوته:

– بأمر امبراطور روما أخلو المكان، استيلاء!

بغتة انتفض بوليمناستوس مستيقظاً من أعماق تأملاته وتقدم بحزم من قائد المائة وهو يصلح من ردائه المنزلق عن كتفه وقال:

– اطفيء مشعلك أولاً! ألا تعلم أن المشاعل محظورة حظراً تاماً في حرم المكتبة. احذروا من اشعال النار في أخشاب الأروقة السفلى والتزموا باحترام هذا المكان!

في هذه اللحظة دخل عسكر أخرون إلى القاعة العليا، فسلم قائد المائة مشعله إلى واحد منهم وبحركة واحدة انتزع من يد بوليمناستوس البردية صافعاً إياه بظهر يده صفعة أفقدت العجوز توازنه فتعثر مرتطماً بالقمطر واصطدم بالقطة فقفزت بخفة إلى الأروقة

(٢) جسر كان يربط الأسكندرية بجزيرة فاروس (المترجم).

العليا.

نزل ديوكليس ليفصل بينهما ويتفاوض مع المعتدين، ولكنه اجفل وارتمى إلى الوراء إذ كان يدهمه حصانان مندفعان في القاعة يشد لجامهما جندي يحاول أن يدير العربة بينما الجند الآخرون يصيحون ويتدافعون بين القمطرات والمقاعد التي تنسحق تحت العجلات الضخمة أو تلقى من النوافذ افساحاً للمناورة. انتصب الجوادان وارتدا مرتاعين فاصطدمت مؤخرة العربة بتمثال ديونيسوس العتيق فمال على جانبه ثم سقط مرتطماً بالأرض وتهشم أحد ذراعيه وانفصل رأسه عن جذعه.

بعد أن تمكنوا أخيراً من التحكم في العربة وأوقفوها في وسط القاعة، صدر الأمر إلى الجنود بالصعود إلى الأروقة العليا وتفريغ الصناديق الحجرية. فأخذوا يغترفون المخطوطات ملء أبواعهم يلقونها من الشرفات غير مبالين باللفافات تتهاوى مفككة ممزقة والمدونات القديمة تتطاير صفحاتها وتتساقط تحت حوافر الخيل. أما الحوذي، وكان من أبناء الاسكندرية، فلم تحل أميته دون ارتياعه وجزعه أمام هذا المشهد المفجع، يحاول ترتيب الكتب المنهالة على العربة وتجميع ما يمكن تجميعه، يصرخ محتجاً على فظاظة الجند الذين استهوتهم اللعبة فتعمدوا التسديد على رأسه في خضم القهقهة والنداءات واصطفاق الأسلحة بالدروع ودعس أقدام الراكضين في الأروقة.

قائد المائة نفسه، وقد هيجته عدوى النهب والتخريب، التقط من الأرض المخطوط الذي أشبعناه تمحيصاً في الأيام الأخيرة ولفه كمن يلف ثوباً على بدنه، يشجعه من الطابق العلوي الأجناد المائلين بصدورهم العارية فوق سياج الشرفات، وأخذ يغني ويهتز في رقصة شهوانية شائهة انفجروا لها مصفرين مقهقهين. اقترب بوليمناستوس خلسة وانتزع البردية وألقاها بعيداً ثم حدق في الوغد وقال:

– من تكون يا هذا الجندي الجاهل الهمجي حتى تدّعي لنفسك حق الاستيلاء بالعنف على تراث مدينتنا؟ احترم ثمرة جهد تلك الأجيال التي أفنت عمرها هنا بحثاً ودرسا. كم يؤلمني أن أرى جهودها قد ضاعت سدى، إذ لا أمل في بارقة من الذكاء تومض في عين أمثالك ولمحة انسانية تلوح في سحنتك الوحشية.

تسمر قائد المائة لهول المسبة وتجمدت أسارير وجهه، فأخرج السيف من غمده ببطء وتقدم ثلاث خطوات من بوليمناستوس. ثبت بوليمناستوس في مكانه ولم يسعه أن يتفادى الضربة القاضية التي غرزت النصل حتى المقبض في أحشائه.

رفع بوليمناستوس يديه إلى بطنه وتهاوى فاندفعت إليه أسنده وأمدده على الأرض. لم يمهله المنون إلا أن يهمس بشفتين شاحبتين متيبستين:

– يا فيلوتيدس، أيها التلميذ الوفي البار، لك في هذه الأرجاس عبرة وبرهان على ما دعاني إلى تجميع محفوظات خصصتها لجماعتنا. اذهب واشهد أمام كبار المعلمين، ولتكن خلفي في مواصلة عملي...

صدعنا أنا وديوكليس للأمر فنقلنا الجثة إلى الحديقة فوراً بمساعدة العبد، نبكي ذلك الذي جاد بنفسه في سبيل إعلاء حق الكتاب وغلبة الكلمة على قوة السيف الغاشمة.

وسدّناه برفق تحت بوابة المدخل. ثم رفعت رأسي أبتهل إلى الآلهة فإذ بي أرى عموداً من النور الأبيض يشق السماء من ناحية البحر ينعكس إلينا من خلال طبقة من الدخان كالمرأة الكمداء المنتفخة تتحلق حول الشعلة وتحجز ضوءها. وانكشفت حولنا الأشجار والمباني وظهرت المدينة بأسرها بصياحها وصخبها سافرة، كأنها وقعت في شرك هذا الوهج المباغت الذي يفيض علينا يخرق دهام الليل. لحظتها فقط أدركت أنه نور المنارة التي أصلحوها وردوها إلى حالها، بعد أن ظلت مطفأة طيلة سنوات نتيجة للإهمال والتقاعس. فكأنهم أرادوا - في أوج الاضطرابات وفي ذات يوم مصرع بوليمناستوس - أن يبعثوا من جديد تلك الصورة المثلى لتشبثنا بالحياة والرمز الأسمى لإشراق مدينتنا.

الوثيقة رقم ١٥

كاتب هذه الرسالة تاجر ملاّح يدعى اسكليبياوس ينحدر من أصل يوناني ولكنه نشأ في أسرة استقرت في روما منذ عهد نيرون. وقد اشتهر برحلاته التي توغل فيها في أعماق القارة الأفريقية وله مصنف - مفقود حالياً للأسف - عنوانه «الجغرافية» (العنوان مبتور على الأغلب) عني فيه بعادات الأقوام التي زارها وحياتهم اليومية أكثر منما عني بوصف معالم جغرافية بلادهم. ويقال إن معاصريه وجدوا في هذا المصنف روايات مستبعدة التصديق وتفاصيل استهجنوها حتى أن بعضهم شك في أصالة المؤلف بل وفي صدق رحلات كاتبه.

ووجدنا في محفوظات الطائفة إلى جانب سيرة هذه الرحلات، رسالة نوردها في هذا الفصل كتبها في الاسكندرية عند عودته من إحدى رحلاته وأرسلها إلى صديق له في روما عام ٣٦٣، أي في أواخر عهد الامبراطور جوليان الملقب بالمرتد والذي لم يدم حكمه طويلاً كما نعلم.

ورأينا أن نضع هذه الرسالة في سياقها، لأنها بدونه قد تبدو من بدع الخيال. فقد أرتدّ كلاوديوس فلافيوس جوليانوس هذا عن المسيحية، بعد أن أبيد أفراد أسرته بكاملهم عند موت قسطنطين في مجزرة دبرها قوم من أقربائهم ممن اعتنقوا المسيحية، وتحوّل جوليانوس إلى الأفلاطونية الحديثة التي تلقنها أولاً على يد ماردينوس ثم أثناء إقامته في أثينا عام ٣٥٥. وما أن اعتلى عرش الامبراطورية بعد موت قسطنطينوس الثاني حتى أطاح بالمسيحية كدين للدولة وردّ عبادة الشمس على غرار أوريليانوس من قبل. وانتعشت الوثنية في زمانه، ويشهد اسكليبياديس في رسالته ببعض ممارساتها. وذهب جوليانوس إلى حد كتابة المقالات في مناهضة المسيحية ومنها رسالة سماها «ضد المسيحية»، ردّ عليها وفنّد حججها فيما بعد كيرلس بطريرك الاسكندرية، الذي سنعود إلى ذكره في مواضع أخرى. ولم يدم عهد جوليانوس إلاّ سنتين ونيف وقتل في حملة حربية ضد الفرس، فسارع خلفه إلى رد المسيحية على الفور إلى نصابها.

ونجهل كيف وصلت هذه الرسالة إلى محفوظات عبدة الصفر، ولكن حرصهم على الاحتفاظ بنصها كاملاً لا شك له دلالته. فما الصفر في نظرهم سوى الوجه الخلفي للنور والظلمة المتولدة من فرط الضوء، هو ظل الشمس وصورتها السلبية، البقعة العمياء في مركز إبصار من فقد نظره، لأنه تجاوز طاقات البشر وضاع إلى الأبد في المساحة البيضاء المتخلفة في مقلتيه المنطفئتين.

(...) عجبي مما يحدث في هذه المدينة (الأسكندرية) من غرائب تفوق أحياناً كل ما قدر لي مشاهدته في رحلاتي الكثيرة. فتجد فيها فرقاً دينية غامضة الأصول لفرط

حرصها على التستر وغيرتها على أسرار عقيدتها. وجل ما نعرفه عنها أنها تستلهم بعض تعاليم موروثة عن أفلاطون، بل يردها بعض المطلعين على مجريات الأمور إلى «فيثاغورس».

في أسطورة الكهف التي ساقها أفلاطون في جمهوريته يقال إن الفيلسوف الذي يصبو إلى مغادرة مملكة الأشباح والظلال لبلوغ عالم الحقيقة وسبر نورها المحض «يقدر له أن يرى الشمس بعينها في موضعها الحقيقي ويتأملها في ذاتها».

وقد تعلقت هذه الفرق بحرفية العبارة واغتنمت الحماية التي شملها بها الامبراطور جوليانوس، فكنّت للشمس عشقاً خالصاً، ونذرت نفسها لعبادتها ناسجة حولها طقوساً دينية حقيقية. فإن أنت طفت في طرقات المدينة وقت الإنقلاب الصيفي لاحظت أفرادها منهمكين في نشاط عجيب. فتراهم يعتلون غالباً قواعد مهجورة لتماثيل قديمة حطمت أو أزيحت من موضعها، يمدون رقابهم نحو نار السماء المتقدة يحدقون فيها بوجوه جامدة وعيون متسعة شاخصة. وعادة ما يتحلق حولهم المارة في صمت ووجوم، فيما عدا بعض النصارى الذين يسخرون من وثنيتهم، ولا يتورعون إن كانوا جماعة عن رميهم بوابل من الشتائم ورشقهم بالأقذار والفضلات. ويظل هؤلاء على حالهم لا يرف لهم جفن والدموع تنهمل على وجوههم لفرط التحديق في النور الساطع.

وتجد بعضهم أحياناً يصيبه الخور، فينثني فجأة إلى الوراء يزعق ويرطم جبهته على القاعدة الحجرية ويلبث ساعات طويلة ملتوياً ينتحب ألماً، خافياً وجهه في ثنية ذراعه أو شاداً راحتيه بقوة على عينيه المتقدتين. وإذا فشل واحدهم في مسعاه فلا تظنن أنه ينتحب ألماً وحسرة على نظره الضائع بل يأساً لأنه عجز عن رؤية مدينة الضياء المشرقة الوهّاجة في وسط كرة النور بأسوارها وأبراجها البلّورية المشيدة في الوجه الخلفي للنجم الناري والجانب المستور للشمس، ويبكي لوعة لأنها لم تتجلّ له مدينة التناسق البيضاء، النقية المبنية على قاعدة التناسب التام وبقوة عدد سحري يثبّت الواقع في توازن تام كامل متى حصل تعذّر تقويضه. فكأنها تمثل أزلية الأجسام الرياضية وفردوس الأعداد المتحققة.

ويقال إن من يصمد منهم يكفيه أن يتأمل المدينة الإلهية الخالدة وروعة استقامتها، حتى يرى جسده يشع طويلاً بعد غياب الشمس في الأفق، ويواصل بث النور الذى اختزنه فيتألق كما الفسفور. ولكنهم نادراً ما يبلغون هذا الطور، وأكثرهم تملكه الدهشة إذ يرى أن الغروب قد حلّ على عجل، بينما يؤكد له الناس من حوله أن نور الشمس لم يفقد شيئاً من تألقه. فيكون هؤلاء قد فقدوا البصر، وكم يتيسّر لهم منذئذ ويهون التحديق في الشمس. ومن العارفين من يزعم أن مدينة التناغم والإنسجام هذه لا تتجلى في الحقيقة إلاّ للعيون التي فقدت البصر نهائياً، وهذا في ظنهم هو السبيل الأسمى لتجاوز أوهام الواقع وبلوغ جوهر النسبة المثلى بعينه. فلا يمكن للعقل إذن أن يكنه المعنى المجرد

للأعداد إلا خارج المادة، وفيما وراء الواقع، خالصاً من تجارب الحواس، متحرراً من طائفة المحسوسات الحاصلة فيها، مجرداً عن كل ادراك حسي، وغاية القول روحاً بلا جسد.

رأيت أهل الاسكندرية نزاعين بطبعهم إلى التحمس لمثل هذه التجارب. فالمدينة تعج بالمذاهب والملل التي يسعى أفراد كل منها بجميع الوسائل إلى التقرّب، ولوقيد أنملة مما يسمونه إلهاً أو يتصورونه كذلك. ولك أن تتخيل بأية سرعة تنتشر المذاهب الصوفية فيها وتفري فرياً، وكل منها أشد هرطقة من أخيه، وإني لأخشى حقاً أن يأتي يوم يضع فيه النصارى حداً لكل ذلك.

وأخيراً فإن هذا لم ينسني أن أرسل إليك ما طلبته من البضائع. وقد شحنتها على السفينة التي جهزها عمك وسوف أودعه هذه الرسالة. (تلي قائمة بالبضائع وبيان دقيق بمواصفاتها وكمياتها وأسعارها مع التحيات المعتادة والتمنيات لجميع أفراد الأسرة).

الوثيقة رقم ١٦

هذه الوثيقة هي أيضاً رسالة ولكن كاتبها هذه المرة مسيحي من أهل الأسكندرية، بعث بها إلى أخيه العضو في اكليروس مدينة انطاكية. إنها شهادة مفحمة على تصاعد التعصب المسيحي، والخطاب يروي بالتفصيل محاولة القضاء المبرم على الوثنية، التي أقدم عليها ابتداء من عام ٣٨٩ البطريرك ثيوفيلوس بإيعاز من الامبراطور ثيودوسيوس. ففي عهد هذا الامبراطور قامت عصابات مسلحة من النصارى بمهاجمه السيرابيون وإحراق المكتبة الملحقة به. وقد أدى وقع هذا الفعل الجائر بالمؤرخين اللاحقين إلى السعي بعدد من الافتراءات إلى تزوير الأحداث وإلقاء مسؤوليتها على العرب الفاتحين. ولم يلبث أن وصل الأمر إلى منع طقوس الوثنية في الاسكندرية منعاً تاماً، مما حدا بالكثير من الفلاسفة مثل يامبليخوس إلى الهجرة في بداية القرن الرابع إلى القسطنطينية أو إلى أفاميا في سوريا.

لاشك أن عبدة الصفر أودعوا هذه المراسلات في محفوظاتهم بغية حفظ الدليل الدامغ على الاضطهاد الذي راح ضحيته أسلافهم وأكد لهم ضرورة الإنضواء في جمعيات تحمي سرّ وجودهم. وربما استعانوا أيضاً بهذا النص لاقناع أنفسهم بأن عدوّهم الأزلي يبقى هذا الدين المتعصب القاهر المتسمي بالنصرانية الطامح في القضاء بضربة واحدة على النظم الفكرية العريقة وفرض إلهه الواحد على العالم. ومن المحتمل أن تكون هذه الوثيقة ثبتت لديهم فكرة يعلمون أنهم ورثوها من الحضارة الهللينية إبان أفولها، وهي أن المسيحية، إذ بالغت في التطرف، دفعت في النهاية كل من عزف عن اعتناقها نفوراً من صرامة تعاليمها، إلى الإرتماء في أحضان الفلسفات المتشككة المنحطة التي تكاثرت في ذلك العصر، وكانت في الواقع أعراضاً للفساد الذي حل بالأخلاق الموروثة. وفعلاً رأى بعض أنصار دفع الأمور إلى التردي، تحقيقاً لمآربهم، ضرورة تحلل قيم المجتمع القديم، لتعم وتنتشر في كل مكان تحت وطأة الظلم والهزيمة روح الإرتياب والضغينة. فدون عملية التقويض هذه التي أنضجت المدارك وأدت بها إلى التفتت، ربما ظل اكتشاف الصفر بلا مفعول أو ما كان له على أية حال هذا الصدى الذي نعرفه في بعض العقول التي غدت على استعداد للإقدام على أي فعل.

أخي العزيز،

يبدو بفضل الله وبشهادة الأحداث الأخيرة أن كلمة المسيح توشك أن تفرض نفسها على جميع تلك الأمم العاصية التي تقطن في هذه البقعة من أفريقيا. وأعلم أنه رغم معاناة أنطاكية ثم تيسالونيكا من سورات الغضب الباغتة التي صبها عليها الإمبراطور

يقولون هنا إنه قد استقاد لأمبروز وأصبح يعيش عيشه مثالية مكرسة كلها للتوبة والتفكير عن آثامه وذنوبه.

أما نحن فسرعان ما لمسنا آثار هذا التغيير، وكما حدث مؤخراً في روما رخص الامبراطور لبطريركنا تيوفيلوس باتخاذ التدابير اللازمة، ولو استدعت استعمال القوة للقضاء على بقايا العبادات القديمة المصرية أو الإغريقية، التي لاتزال قائمة في أسكندريتنا المقدسة.

فأخذت جموع إخواننا تعد العدة لاقتحام معبد سيرابيس، يعضدهم جنود الحرس الإمبراطوري ويلهب حماسهم الرهبان النازلين من الجبل، يدعونهم إلى استئصال جذور تلك الشعائر الهمجية، فتأججت في صدروهم جذوة الإيمان بالمسيح وتعطشت قلوبهم إلى المشاركة في إرساء ملكوت الرب على الأرض. وهذا المعبد كما تعلم هو مركز تلك العبادة الوثنية الدنيئة لآلهة كثر عددهم وقبحت صورهم، مشيد كالحصن المنيع، انطلقت منه في السنوات الأخيرة جميع الحملات الموجهة ضدنا، ولم يكف عبر الزمان عن تحدي تعاليم مرقس والرسل، بل تحدي سلطة الامبراطور ذاته.

بعد أيام من إعمال الهراوات في العتلات التي غرزناها بين الحائط والباب استطعنا أخيراً، وقد بلغ بنا الهياج أشده، أن نقتحم المعبد، فانفتحت أبوابه وكانت موصدة من الداخل برافدة غليظة من خشب الأرز، مثبتة بعرض المصراعين، مزلجة بعروتين نحاسيتين. والحق يقال إن المحاصرين استبسلوا في الدفاع عن كل شبر من معقلهم، ووقع كثير منهم صرعى تحت ضرباتنا. فكلما احتل ركن من المعبد التجأوا إلى ركن آخر يتحصنون فيه ونحن نلاحقهم من حجرة إلى حجرة ومن رواق إلى رواق.

الحقيقة أنني ما فطنت من قبل إلى مدى اتساع هذا المكان، الذي بدا كأنه شبكة عجيبة من السلالم والأروقة وغرف النذور والأقبية، كل واحدة منها مخصصة لمعبود من آلهتهم. ورغم حرصهم على إخفاء معظم كنوزهم فلا يزال المعبد يزخر بالكثير من التحف والنفائس التي كانوا يجملون بها المذابح ويزينون الهياكل، بل أظنهم استعملوها في إقامة طقوسهم الفاجرة. وبأمر ثيوفيلوس، اقتلعنا من الجدران ومن قواعد التماثيل كل ذي قيمة من أحجار كريمة ومعادن ثمينة وعاج وأخشاب عابقة بعطور نادرة، وانتزعناها من سلطان تلك الشعائر الشريرة وأودعناها في الخارج. وبعد أن طهرها وباركها البطريرك أمر بتوزيعها على كنائسنا لتزيد من رونق عبادتنا. أما ما تبقّى ولم يمكن نقله أو التصرف فيه فكان مصيره التدمير. فرأيت مجموعات من إخوتنا يتدافعون بحماس ويطرحون الأصنام أرضاً ويهشمون بمعاولهم تلك التماثيل الدنسة لآلهة ذات وجوه حيوانية أو انسانية تتخذ في الحجر أوضاعاً مثيرة خليعة. فكان لابد أن تمحى من ذاكرة الأسكندرانيين هذه الديانات السخيفة الباطلة، وتجتث هذه الخرافات القديمة من أصولها فلا تقوم عبادة إلاّ للابن والآب.

ساد صخب بين جدران المعبد الشاهقة وأركانه المظلمة. دعس أقدام وحشرجة جرحى يحتضرون، وصلصلة السيوف وضربات الكبش العنيدة على الأبواب، والتماثيل تنهار متحطمة على البلاط. ظننا أننا قضينا على آخر جيوب المقاومة وإذ بنا ننفذ إلى حدائق المعبد الشاسعة المهملة وإن احتفظت بعلامات روعتها الماضية. وعبرنا بين الأعمدة والأروقة إلى بناء صغير اتضح لنا أنه مكتبة. وهنا تصدّى لنا مقاتلون مصممون أشداء أرغمونا على التراجع والإنسحاب إلى داخل المعبد. ومن بينهم لاحت لنا وجوه نعرفها لبعض مواطنينا، وكان معظمهم من الإغريق الذين تمردوا على دين المسيح وتشبثوا بأمور النظر الفلسفي متمسكين بآلهة الأقدمين كأبوللو وأفروديت، بل هذا الديونيسوس الوضيع، رافضين التخلي عن تلك العبادات البلهاء المتخلفة.

وعلى أثر بعض محاولات التفاوض اندلع القتال أشد من ذي قبل، ولم يحالفنا النصر إلاّ عندما انضم إلينا الفيلق الإمبراطوري يدعمنا ويمكننا من اقتحام المكتبة العظيمة. أخذتنا دهشة كبيرة إزاء الكتب المرصوصة أمامنا، جعلتنا نبطيء الخطو إذ بدا لنا أن كل الكتب الموجودة في الأسكندرية أودعت في هذا المكان. وسرعان ما اكتشفنا أن هذه المخطوطات لشعراء أو فلاسفة يتمادون في مدح آلهتهم بأبيات غدت فاسدة غير ذات فائدة، أو يسعون بكل ما أوتوا من قوة العقل والذكاء إلى محاربة مذهب آباء الكنيسة ورسالة الأناجيل.

ولم أكن من أنصار هذا التخريب، ولكن غضب إخوتنا إزاء هذه المعرفة المتراكمة، التي كانوا في بساطتهم يشعرون أنهم دونها، وأنها تتحداهم، جعلهم لا يعيرون اهتماماً لحججي. ولو واصلت الاعتراض لامتدت إليّ الشبهة بالتواطؤ مع كتب تنطوي على الكفر والتجديف. هذا ما آلت إليه المكتبة القديمة مفخرة مدينتنا منذ عهد البطالمة. ألقيت محتوياتها من الكتب والمخطوطات التي كانت مرتبة في خزائنها وعلى رفوفها الرخامية. وكم أدهشني ما اعترى رهباننا من فرحة وحشية وهم يجمعون كل ما تطاله أيديهم من رق أو طرس يكومونها في وسط القاعة الكبرى. تناثرت الصفحات هنا وهناك وأفرغت اللفافات، وتطايرت صحائف بدت من بعيد مكسوة بكتابات منمنمة وأشكال هندسية ورسوم لجسم الإنسان ومخططات معمارية.

في النهاية أطلق أحد الرهبان صيحة دوت فوق رؤوس المتجمهرين، ورفع مشعلاً مستعراً لوح به عدة مرات ثم هوى به على تلة الكتب. ارتدوا جميعاً في حركة مضطربة عندما هبت النيران وتصاعد منها دخان أسود كثيف وشبت ألسنتها إلى السقف تلتهم روافده. وسرعان ما غدا القيظ غير محتمل حتى أن بعض إخوتنا فيما قيل ماتوا محترقين وسط الهرج والمرج. ولأيام وأيام بعد أن انهار المبنى ظلت النار كامنة تحت أكوام الرماد، واستمر جمرها يحترق في بطء تتطاير منه جزئيات ليفية دهنية ملتهبة تتساقط في شوارع المدينة. وكلف عدة رهبان بأن يراقبوا الجمر وأن يوقدوه كلما خمد حتى لا يبقى

شيء من ذلك اللغو الفلسفي الذي أصبح باطلاً منذ جاء ابن الله إلى الأرض ونشر بتعاليمه الدين الجديد.

بقي سيرابيس الكبير، عملاق خشبي هائل تسلقه إخواننا بالحبال والسلالم واقتلعوا عينيه وجردوه من أحجاره الكريمة وحليّه الثمينة. تزاحموا فوق الصنم الشاهق، ومن عثر حظه وزلت قدمه سقط من عل وتهشمت عظامه. أمر البطريرك بتقييد التمثال بالحبال ورفعه على اسطوانات خشبية لاستخراجه من المعبد. وعند عتبة الدرج الكبير انقلب التمثال على جانبه، فسحبوه في موكب شعبي بهيج إلى المسرح الكبير، ثم رفعوه منتصباً في وسطه. وأمام هذه الموجة العارمة من الإيمان لم يجرؤ أي من عشرات الوثنيين المتجمعين على التدخل لانقاذ إلههم.

أضرمت النيران في التمثال فاندلع لهبها تغذيه الأطلية والدهون والزيوت من بقايا الأضاحي التي تشبعت بها قاعدته. ظل يحترق عدة أيام لشدة صلابة الخشب الذي قدّ فيه، وبدا في الليل متألقاً يصدر طقطقات خفيفة. وفي الليلة الرابعة انهار التمثال في ألق من الشرر أرسل نوراً وهّاجاً على المتفرجين الجالسين على المدرج يبتهلون وينشدون محتفلين بموت الوثن.

كذلك كان مصير التماثيل التي نصبت منذ القدم في ساحات المدينة ومبانيها العامة لاستمالة قلوب الشعب إلى تلك الآلهة المزيفة التي لايزال بعضها محل عبادات سرية، حطموها وألقوا حطامها في البحر بعد أن واجهوا هذه المرة مقاومة عنيفة في بعض أحياء المدينة. أما المعابد فقد أمر الأمبراطور بإغلاقها أو هدمها وبات تقديم الأضاحي أمراً محظورا.

وعلى أطلال الوثنية وبأحجار معابدها تبنى اليوم كنائس كثيرة، وستكون أجملها وأبهاها بلا ريب الكنيسة التي ستكرس للإنجيليين الأربعة. وعند زيارتك القادمة إلينا في القريب يا أخي العزيز ستشاهدها ترتفع بجلال فوق أنقاض الوثنية.

الوثيقة رقم ١٧

هذه الوثيقة عبارة عن نص لخطبة ألقاها المدعو هاربوكراس في سوريا أمام جمعية أفاميا الفيثاغورية التي ينتمي عدد من أعضائها إلى مدرسة يامبليخوس الفلسفية الشهيرة. ويامبليخوس الذي سبق لنا ذكره ولد نحو العام ٢٥٠م وتوفي عام ٣٣٠ في جوف سوريا، وله مؤلفات معروفة منها «كتاب الأسرار» وكتاب «حياة فيثاغورس» الذي نقل فيه عن هيراقليدس وارستوكسين التارنتي وتيماوس التاورميني. وكان قد درس في الأسكندرية الأفلاطونية الحديثة مبادئ المذهب الفيثاغوري ثم أقام تعليمه ديناً حقيقياً يتصدى به لمدّ المسيحية الصاعد.

أما جمعية أفاميا الفيثاغورية فقد تأسست عقب حريق السرابيون وأقامت علاقات مستمرة مع جمعية الأسكندرية. ولما استفحلت الأحداث وتفاقمت، أوفدت جمعية الأسكندرية هاربوكراس هذا إلى أفاميا ليروي فظائع النصارى، ويقص مأساة مصرع هيباثيا التي قتلت عام ٤١٥م، وكان ذلك على أغلب الظن بايعاز من البطريرك كيرلس الذي اعتلى كرسي البطريركية في الأسكندرية خلفاً لثيوفيلوس قبل ثلاث سنوات.

ومما يدهش له أن تأتي هذه الخطبة على لسان فيثاغوري يفترض فيه الالتزام بمبدأ «مرّس نفسك على كبح جماح نفسك» وبمبدأ آخر ساقه بعد ذاك هيروكليس في «قصيدة الذهب»، يقول: «أما النائبات التي تحلّ بالبشر بمشيئة «القدر» العليّة فعليك أن تتقبلها وترى فيها قضاءك الذي استحققت فتصبر على آلامها ولا تبدي غضباً ولا استياء». وإذ بهذه الخطبة أشبه بمرافعة شديدة اللهجة، بل فيها حضٌ على الانتقام ودعوة إلى العنف. وإن دل ذلك على شيء إنما يدل على مدى اضطراب الخطيب، وهو انطباع يتعزز في شق الخطبة الأخير، الذي اتخذ منحى مرتبكاً وتخبط في تساؤلات مبلبلة يعوزها المنطق السليم، حتى بدا وكأنه أضيف إلى الخطبة فيما بعد. ولكن هذا التخبط ينم في الواقع عن حالة البلبلة التي عاشتها بعض التيارات الفيثاغورية قبيل أن تحسم أمرها بالانشقاق. ففقدت هذه الجماعات فيما يبدو ثقتها بنظرية الأعداد وبقدرتها على أن تكفل للعالم انسجامه ونظامه. وكيف لهم، والعالم من حولهم تعصف به أمواج متلاطمة من النزاعات والاضطرابات، أن يحافظوا على إيمانهم بتوافق الأضداد، وبتلك المصالحة المنتظرة دائماً، غير المتحققة أبدا، وهي حجر الأساس الذي تنهض عليه الصوفية الفيثاغورية، مولّدة النظام والانسجام؟ وكل الدلائل تشير إلى أن الإحباط بدأ يتسرب إلى نفوس بعض التلاميذ منذ ذلك الحين، وأخذتهم الشكوك في مغزى معتقداتهم وفي معنى حياة تكرس بأسرها لعبادة أعداد أثبتت عجزها عن بلوغ المراد، فراحوا يطرحون أسئلة جديدة مضللة هدامة كانت لوقت قريب مبرراً كافياً لطرد صاحبها من الجماعة. حتى أن كبار المعلمين أنفسهم كانوا موزعين بين من أسلم القياد لسلطان أسطورة وهمية من نسج الخيال، وبين

من انصرف تماماً إلى دراسة المحفوظات المتجمعة منذ عهد بوليمناستوس أملا في العثور على ذلك المغزى الخفي الذى أومأ إليه بعض التلاميذ. وربما كان عجزهم عن ايجاد جواب شاف عن تلك التساؤلات هو الذي فتح المجال واسعاً لتسرب الريب والشكوك.

خطبة هاربوكراس

دعاني نداء الواجب إلى أن أجيئكم شاهداً بكل صدق وإخلاص عما يرتكبه النصارى من أهوال في مدينتنا الحبيبة، التي أصبحت اليوم لقمة سائغة بين أيدى قوى التعصب والإبادة. وإن كنت رضيت أن آتي إليكم بنفسي، فأني خشيت أن تصلكم الرواية على ألسن تشوّه حقائق شاهدتها بعيني، فتطمئنون إلى أني أكلمكم بلسان الحق وحده. ولن أكتم عليكم شيئاً من شناعة هذه الفعلة، أو أخفي أدنى تفاصيلها حتى تستشعرون في لحمكم ودمكم حقيقة الخطر المحيق بنا، فتتوطد عزائمكم على طريق الكفاح الذى بات محتماً علينا خوضه ضد الجهالة والهمجية الغاشمة.

دأبت ابنة ثيون، ابنة مدينتنا، تقدم لنا بحكمتها وحنكتها مثالاً للتصميم الذي ينبغي أن نتحلّى به. فما تنازلت قط أدنى تنازل، وكلنا هناك لايزال يذكر اليوم الذي عادت فيه من أثينا بعد إتمام تعليمها للإستقرار في ربوعنا، وفتحت مدرسة للفلسفة في هذه المدينة، مع أنها باتت فريسة للتزمت والفساد. فامتنعت عن الانحياز لحزب العنف، ولم تتحوّل عن طريق الصرامة الأخلاقية الذي اختطّته لنفسها. وقد عرفت بجمالها بقدر ما اشتهرت بعلمها، فتقاطر عليها طلاب العلم من كل حدب وصوب. وظلت مقتنعة تماماً بأن سلاح العقل الحرّ والنقد الواعي هو السلاح الأمضى، القادر على مواجهة النصارى الذين أعمى قلوبهم تعصبهم لمعتقدات لا تمت إلى العقل بصلة. ورأت أن جلاء الذهن وحده قمين بأن يقف سداً منيعاً أمام القوى الوحشية التي تسعى هذه الديانة منذ عشرات السنين إلى إطلاقها ضدنا.

وأقامت الرياضيات أساساً لتعليمها، وتركت لنا إلى جانب تعليقاتها على أفلاطون وأرسطو شروحاً لأعمال ديوفانطس ولكتاب «قطوع المخروط» لأبولونيوس البرجي ولجداول بطلميوس. ومن علم التعاليم انتقلت إلى بعض القضايا الخاصة بالأعداد، فاستخلصت منها مبادئ فلسفية بديهية تفرض نفسها على الذهن بلا عناء، ولا تحتاج في تأييدها إلى شيء. وطالما جالستنا بردائها الخالي من أي زخرف، متلفعة بمعطفها على طريقة الفلاسفة لتضع تعاليمها في محكّ أسئلتنا، دون أن يراود أحداً منا شك في استقامتها وفضيلتها.

وسرعان ما أصبحت مدرستها مركزاً تلتف حوله جماعتنا، وبعثت فينا الأمل في دحر المسيحية بسحنتها البغيضة، وكسبت ودّ التيارات الفكرية والجاليات غير الإغريقية التي كانت لوقت قريب تناوىء تصلبها وتنكر لها سلطتها. ولكن ما ان اعتلى كيرلس كرسي البطريركية خلفاً لعمه ثيوفيلوس، حتى اشتدت وطأة القمع والاضطهاد ضد كل من رفض اتخاذ النصرانية دينا. وبعد أن أقفل البطريرك معظم معابدنا وهدمها، شن حملة ضد يهود

الأسكندرية، الذين استوطنوا في حي دلتا منذ أقدم العصور، واتهمهم بالتحريض على الفتنة والعصيان، فسيقوا بوحشية لا توصف وحشدوا في الهيبودروم وفي مسرح ديونيسوس القديم حيث قتلوا شر قتلة. واضطر من نجا منهم إلى الهجرة بعد أن صودرت أموالهم واستبيحت معابدهم ثم نهبت وأحرقت.

وما من قوة باتت قادرة على كبح جماح ذلك المتعصب الذى استولى عليه جنون التدمير، وتجاوزت حميّته كل حد، حتى اضطر والي المدينة أوريستيس إلى التدخل بنفسه لدى الامبراطور والشكوى مما يقترفه كيرلس من مظالم متنكراً لقوانين المدينة.

وبالرغم من الأوامر التي أصدرها الامبراطور لم يقبل أي من الطرفين الصلح، إذ كانت الأمور قد بلغت حداً لا رجعة فيه. بل اغتنم النصارى فرصة الفوضى الهائلة التي عمّت بمناسبة رحيل اليهود الجماعي فضاعفوا اعتداءاتهم على كل من حاول التدخل أو الاعتراض على السلطات الفادحة التي ما لبثوا أن ادعوها لأنفسهم بلا حساب ولا عقاب. وإذ بخمسمائة راهب أشعث الشعر نتن الرائحة يهبطون من أديرة وادي النطرون ويغشون الأسكندرية لمد يد المساعدة إلى العصابات المسلحة المنتشرة فيها والإجهاز على كل من يجاهر بمعارضته لبطريركهم.

وبينما كان الوالي أوريستيس في طريقه إلى المحكمة، إذا بعربته تحاصر في أحد المنعطفات - أكان أمراً مدبّراً أو محض صدفة؟ - وتستوقفها جمهرة من أولئك الرهبان بأسمالهم السوداء الرثة. قام شجار قصير وعنيف انتهى بمصرع سائق العربة الذي لوّح بسوطه في وجه المسكين بألجمة الخيل فأردي قتيلا. ولم يستطع الوالي نفسه الإفلات مع حارسه إلا بقوة السلاح تحت وابل من الحجارة كادت تودي بحياتهما رجما. وكان فريق منا ينتظر الوالي على درجات المحكمة فخفّ البعض إلى مكان الحادث لنجدة ركاب العربة وردّ هذه الطغمة من الصعاليك. وأمكن القبض على واحد منهم وهو يحاول الفرار بعد أن أصيب في ركبته فاستحق أمونيوس هذا عقاباً مثالياً صارماً لتجاسره على الإعتداء على والي المدينة ومات تحت التعذيب الأليم في الساحة العامة أمام الملأ دون أن يجرؤ أحد من رفاقه ولا حتى البطريرك نفسه على التدخل لنجدته.

ولكن كيرلس لم يقف عند هذا الحد، وصمم على الانتقام بوسائل أخرى. ولما تعذر عليه النيل من شخص الوالي حوّل ضغينته إلى من يشملهم بحمايته وبالأخص إلى هيباثيا التي كان يعرف أن أوريستيس يتابع تعليمها إن لم يكن شغوفاً بها سرا.

كنت في ذلك اليوم المشؤوم واقفاً معها نتحدث بهدوء برفقة هيليودورس وهورابولون، عندما تبادر إلى أسماعنا هدير وقع أقدام غفيرة وكأنه دبيب قطيع من الماشية. ومع اقترابه استطعنا أن نميز صراخاً وصياحاً يشق عنان السماء فوق السطوح.

ولم نلبث أن أدركنا أن هذا الصخب يتجه صوبنا. ومن الشرفة أنبأنا أحد الرفاق بأن بعضاً من أولئك الرهبان الذين سبق أن اصطدمنا بهم يقودون هذه الطغمة ويحاولون

مداهمة الأبواب وفتحها عنوة، وهم يرددون اسم هيباثيا وكأنهم يطالبون برأسها.

عزمنا عندئذ على أن نكسب الوقت ونحمي فرارنا بالصعود بدورنا إلى الشرفة للتفاوض. وما أن وقعت أنظارنا على هذه الجموع الحمقاء المسلحة بالرماح والهراوات، ورأينا المتأخرين منهم يلتقطون الحجارة فهمنا أن جهودنا ضائعة حتماً أمام تصميمهم الأعمى وآثرنا تقوية مراكزنا والتعجيل بتتريس الباب.

وفي تلك الأثناء كانت عربة هيباثيا قد جهزّت، ونجحت في الخروج من الباب الغربي الصغير على أمل بلوغ قصر الوالي طلبا للنجدة. وهنا وقعت في الفخ المنصوب لها. فما كادت تجتاز بضعة شوارع حتى اضطرت مركبتها إلى تخفيف السرعة للتحول عن أحد النصب، فانبرى لها عدد من النصارى المتربصين هناك وهجموا عليها بقيادة قاريء يدعى بطرس. وعلمنا أن عربتها استمرت في التقدم لمسافة قصيرة يلاحقها المعتدون واستطاع بعضهم أن يقفزوا على مؤخرة العربة لانتزاع هيباثيا التي حاولت التشبث بها بكل قواها حتى بلغت ساحة الكنيسة القيصرية. وهنا كفت عن كل مقاومة، علما منها بأن هذا البناء المقدس ذو حرمة لا تنتهك حسب التقاليد، واندفعت إلى الأرض تعدو لتلوذ في طنف مدخلها.

كانت الكنيسة مفتوحة أمامها، صرحاً مجهولاً يرجّع أصداء غريبة في ظلمة قبابه الصمّاء. دخلتها مذعورة خافقة القلب، مقتنعة أنها نجت بحياتها. وهنا وقعت الفاجعة. فلم يتورع هؤلاء الرهبان الأنجاس عن أن يطأوا أقدس أقداسهم فاندفعوا وراءها لا يردعهم خوف من انتهاك حرمة بيت ربهم الذي يزعمون أنه رب العدالة ولا تثنيهم خشية غضبه، فمدوا أيديهم الرجسة على كاهنتنا وجردوها من ملابسها ثم تذرعوا بعريها وبالغوا في إذلالها. آه! مامن شيء قادر على إنضاب فيض الحقد الذي تكتظ به نفسي لمجرد ذكر هذا المشهد، وبحر الضغينة التي أحفظها لأنصار هذا الدين! فما كفاهم إهانتها بل توّجوا فعلتهم برجمها حتى الموت بكسر القرميد والآجر المختلفة عن إصلاح سقف الكنيسة. ويؤكد شاهدوا عيان أنهم لم يسمعوا، من ظلمة المحراب الذي احتمت به من الحجارة المنهالة عليها، سوى صوت لهاث الراجمين الأصم، ولم تصدر عنها صرخة واحدة اللهم إلا آهة أسلمت معها الروح، ولكن وحشية هؤلاء الرهبان بسحنتهم القردية لا حدود لها. انتزعوا جثتها وراحوا يقطعونها إرباً، ويفصلون أعضاءها، ثم طافوا بهذه الأشلاء الدامية الخافقة في شوارع المدينة حتى أن البطريرك نفسه، وربما هالته وحشية أتباعه، أمر بجمع أشلائها وحرقها في السينارون. فلم تترك لنا حتى فرصة دفن جثتها الطاهرة وتشييعها وفقا لطقوسنا على سرير من ورق المر والزيتون والحور الأسود.

أما الآن – وهنا يكمن مغزى زيارتي لكم – فبالنظر إلى الأحداث الخطيرة التي وقعت في السنوات الأخيرة، منذ حريق السيرابيون ومكتبته، والقضاء على الجالية اليهودية ونفيها وحتى مقتل هيباثيا في الظروف التي رويت، فقد عقدنا العزم، نحن

فيثاغوريي الأسكندرية، باسم القسم الأعظم، أن نلوذ بالسرية التامة وآلينا على أنفسنا ألا نظهر بعد اليوم شيئاً من نشاطنا إلى وضح النهار. فقررنا أن نقيم شعائرنا في غرفة جنائزية هيأناها في المدفن الكبير الواقع غرب المقبرة القديمة حيث لن يجرؤ النصارى على الدخول لفرط جزعهم من الموت.

فكانت هذه العزلة واجبة، لاسيما وأن بعض أفراد جماعتنا لم يتوانوا، أمام ما أصابنا من المحن، عن إثارة الشقاق في صفوفنا، مؤكدين أن نظرية التناغم الإلهي للأعداد باتت قاصرة بل خاطئة في بعض جوانبها، مما يشوّه تقديرنا لحقيقة العالم، والقوى التي تكوّنه أو تخترقه. ثم إن هناك اشاعة تنتشر في البلاد، يقال إن مصدرها بعض الرحالة العائدين من بلاد بابل وربما من بقاع أبعد في الشرق، تؤكد وجود نظم عددية أكثر تطوراً من نظامنا، قائمة على مراتب للقيم تختلف تماماً عن المعروف لدينا. ولا أدري من جهتي إلى أي حد تصدق هذه الإشاعات. ولهذه الغاية وحدها عزمنا على إرسال فريق من إخواننا، عن طريق البحر إلى ما وراء شواطيء الهندوس، لتقصّي حقيقة هذه النظم الحسابية التي يقال إنها منتشرة في تلك البقاع. إنها محاولة أخيرة ومبادرة يائسة - فالله وحده يعلم إن كانوا سوف يعودون - ولكن حتّمها علينا بقاء جماعتنا واستمرارها. يقال إن كل قيمة من القيم العددية التي نعرفها قادرة هناك على أن تتجلى في صورة مستقلة ومتحركة وتفصح عن نفسها تماماً بحيث لا تحتاج إلى التعبير عن غير ذاتها.(١)

فهل يمكن ألاّ تكون الأعداد موجودات مطلقة وكلية كما اعتقدنا حتى اليوم؟ أم أن صورتها في أذهاننا مقصّرة وناقصة لا تسمح لها بأن تتجلى بكامل وجودها وتفصح عن كل قدراتها العملية؟ وهل يفتقر نظامنا - كما يزعم البعض - إلى أعداد لم تخطر لنا على بال ولم يعها عقلنا قط؟ والأخطر من ذلك أن الأعداد، إذا كانت وفقاً لطرحنا، تقدم الدليل على وجود الله ذاته ويحمل كل عدد منها صفة من صفاته: أفلا تكون الصورة المرتسمة في أذهاننا عن ذات الإله قاصرة ومبتورة، وتنطوي من ثم على التجديف به والنيل من قدسيته؟ ويعود دعاة الانشقاق فيسرون الينا محذّرين: إن تقديرنا الخاطئ لبعض الكيانات العددية التي لم نشتبه بعد بوجودها، ولجهل من ثم قوتها، هو الذي جلب علينا المصائب، وسيؤدي إن عاجلاً أو آجلاً إلى تقويض عقيدتنا وتشتيت جماعتنا.

ولما كانت الظروف أرغمتنا على العزلة، فليكن في ذلك حافز لنا على الإنصراف إلى الدرس وإعادة النظر في كل العناصر التي لاتزال بين أيدينا. والواقع أننا نأمل من وراء انطوائنا هذا في مواجهة المحن، وضع حد لهذه الانقسامات، والعودة إلى المغزى الحقيقي للكلام المقدس الذي لقننا إياه المعلم وبدأنا نفتقده بمرارة.

---

(١) يجدر التذكير هنا بأن الأرقام كما نعرفها اليوم لم تكن قد ظهرت بعد في ذلك العصر وكان نظام العد اليوناني نظاماً أبجدياً فاستخدموا حروف الأبجدية للدلالة على الأعداد (أ = ١؛ ب = ٢؛ ج = ٣، الخ...) وعبروا عن المئات والآلاف بهذه الحروف نفسها مقرونة بعلامة أو عدة علامات مميزة.

الوثيقة رقم ١٨

هذا الصراع المستمر الذي تشهد عليه النصوص السابقة بين النصارى وبين أنصار الوثنية بمختلف مذاهبها، بلغ ذروته عندما اعتلى العرش الإمبراطور يوستنيانوس وأمر في سنة ٥٢٩ بإغلاق جميع مدارس الفلسفة الوثنية، وكانت أشهرها أكاديمية أثينا التي أنشأها أفلاطون قبل ذلك بنحو ١٠٠٠ عام.

ومن نتائج القمع الشديد في عهد يوستنيانوس، الذي امتد من ٥٢٧ إلى ٥٦٥، أنه لم تتبق لنا وثيقة واحدة من تلك الفترة، اللهم إذا استثنينا النص التالي، وإن لزمنا أن نوضح أن المحفوظات التي عثرنا عليها لم تكن سوى الجزء الظاهر الملطف من معرفة كان مآلها أن تنتقل شفاهة صوناً لسريتها. ويمكننا أن نفترض مع ذلك أن الطوائف التي لجأت إلى الخفاء، وهوما يعني بالنسبة للأسكندرية العيش في المقابر الواسعة المحيطة بالمدينة، إنما كان همها البقاء على قيد الحياة وإنقاذ طقوسها.

شاركت الإمبراطورة ثيودورا في الحكم حتى مماتها في عام ٥٤٨، وكانت تكن لمدينة الأسكندرية بغضاً مقيتاً، حتى أنها أمرت عدة مرات بإضرام الحرائق في أنحائها. وكان يعرف عنها تأييدها وتحزّبها لفريق المونوفيسيين، القائلين بالطبيعة الواحدة، ضد مستقيمي الرأي من الأرثوذوكسيين فكانوا ينعتونها بمحدثة النعمة، ويدعون ساخرين أنها «ابنة أحد حراس الدببة المشتغلين في حلبة سباق الخيل» بل يروي بروكوبيوس أنهم أطلقوا عليها اسم «الراقصة والعاهرة».

إن النص التالي، مع تصديره الذي توحي صرامة أسلوبه الأرثوذوكسي بأنه كتب في وقت سابق، مقتطف من رسالة في الأعداد تعتبر مرجعاً كان يستعمل في إقامة شعائر هذه العبادة السرية التي كانت تمارس في القبو، والتي وصفناها في بدايات كتابنا هذا. فلعل القارئ يذكر الأرقام التسعة الأساسية التي اتخذتها إحدى الفرق الفيثاغورية وسيلة للاتصال بالله اتصالاً مباشرا، وكيف استدارت في نقوش بارزة على جدار الكوة الداخلية، ويبدو أنها في وقت ما كانت مطلية بالألوان أو مغشاة برقائق من المعدن الثمين.

وكاتب هذه الرسالة هو فيما يبدو آيستوس الإليسي الملقب بالساحر. ويقال إنه نجا مع من نجوا من تلك الرحلة التي قام بها فيثاغوريو الأسكندرية إلى ضفاف نهر السند للتعرف على نظم العدّ الجديدة. ولكن الشك يحيط بهذه الرواية التي قد تكون نتاج تفسير متأخر، لأن النص الذي بين أيدينا لا ينم بأي حال عن دراية آيستوس بالأعداد المصورة على نحو ما كان يستعملها أهل الهند آنذاك.

وتشير الدلائل إلى أنه مثل للمحاكمة عند عودته إلى الأسكندرية، ذلك ان اسمه يرد في «حوليات المحكوم عليهم بالإعدام» في تلك الفترة مقترناً بتهمة الشروع في كشف

الغايات السرية للقوة السماوية وفك رموزها غير مستعين إلاّ بالأعداد علماً وفناً لاستطلاع الغيب.

وقد ذهب آيستوس على حد علمنا إلى أن دراسة الثوابت وقانون المتسلسلات - وخلاصته التسليم بأن الأعداد تتوالى حسب ترتيب لا يخضع للصدفة في شيء وإنما لمنطق داخلي معروف لها وحدها - تكفي للتحايل على استحالة معرفة اسم الله الممتنع بطريق الكشف عن صيغته الرياضية واستكشاف «عدده».

فكأن آيستوس شطح في فلسفة اشراقية تخلط السحر بالتطيّر، فشابه أولئك الربوبيين الوثنيين الذين ظهروا في القرون الأولى الميلادية وأدانتهم آباء الكنيسة بكل عنف. بل إنه ليذكرنا بمذهب الغنوصية الذي اتبع أيضاً هذه السبل ليبلغ بالاشراق الداخلي الفجائي معرفة الله معرفة كاملة مطلقة.

ومن ناحية أخرى يلاحظ أن إيمان الطائفة إزاء العدد تسعة وقدراته، تخلله بعض التزعزع بعد أن كان راسياً راسخاً، وأخذ الشك ينخر ضمير الأتباع يجعلهم، وهم في ذرو فوراتهم، يلمحون إمكانية النفي المطلق والنهائي لفكرة الله. فالسلوك الغريب للعدد تسع سوف يجسد أمام عبدة الصفر الصورة المتوعدة والظهور القريب لهذا العدد حين تشرف سلسلة الأعداد على أعتاب العشرات قبيل سقوطها في العدم، كما يجسد في نظرهم اقتراب ذلك الذي يدعونه «الحتّات الأكبر» الذي فيه يلتقي كل شيء ويتلاشى.

الرسالة الكبرى في الأعداد
وعلائقها بالله

تصدير

تستمد الأعداد كل قوتها الفعالة مما في باطنها من تطابق مع نقاط ثابتة في الكون تقع خارج المكان والزمان. فتعطي مقياس هذه الحقائق الخفية وتعبّر من خلال ظاهرها البادي للعيان عن منطق علاقة معينة بما هو محجوب غير مرئي. وباعتبارها مراتب مقدارية، فإنها تحدد أوصاف مالا يمكن إدراكه بغير وساطتها. فهي تتوسط بين الواقع والإله بشبكة تنسجها من الأواصر الضمنية السرية. من هنا يمكن وصف الأعداد بأنها سحرية. فباعتبارها أشكالا عملية لكميات حقيقية، فهي مرآة اللانهائي في جميع أبعاده. إنها بتركيبها الداخلي الذي يضم المتعدد والأحد وكذلك بالحركة الدائرية للعمليات الرئيسية، تعكس الصفات الذاتية للموجود. الأعداد هي مفتاح الكون والإله، لولاها لبقيا كلاهما عصيين على الإدراك. «إن الأعداد هي المعرفة ذاتها» تتيح لنا أن نستجلي كل مبهم ومتنافر وأن نلمح، بما يتجاوز أعراضاً دنيوية بحتة لا تقبل سوى العدّ وفي حقيقة علاقة مجردة محضة، الصورة الرياضية المثلى، صورة الله العليّة السرمدية.

رسالة في الأعداد

إننا نحمد الله بتمجيد الأعداد التي تصور أجلّ صفاته وتتخذ أشكالاً تامة كاملة تمثيلاً لصور الإله. وحصيلة هذه الكمالات هي الكمال الأعلى وتعبير عن حضور الله حضوراً مباغتاً محسوسا. إن الأعداد التسعة هي الدروب التسعة المؤدية إلى معرفة حقيقته معرفة مباشرة. وإن اتحادها والآفاق اللانهائية التي تفتحها داخل نفسها وفي نسبتها بعضها إلى بعض هي مرايا توحّد الله ولانهائيته ذاتها.

إن ترتيل الأعداد التسعة إنما هو تمجيد لصفات الإله الذاتية واستحضار له بيننا.

واحد هو أول الأعداد كلها الذي به يبدأ كل شيء هو أصل سلسلة التعداد اللانهائية، هو الدالّ على أن الله أولّ أحد، لم يكن ولن يكون سوى وحدة واحدة لا ثاني لها، لا أول لها ولا آخر.

اثنان هو بتركيب الواحدين الأوليين يستحضر الله، رحم كامل لا زمني، أصل لكل الموجودات. فالاثنان دالّ على أن قدرة الله على التكوين لا حدود لها، ومقدرته على خلق الكون من لدنه وحده مقدرة لا تفنى.

ثلاثة هو بقوة العددين الأولين اقتران الذكر (واحد) والأنثى (اثنين)، نتاج ونتيجة لهذا التكوين، الحياة ذاتها، كل ما يصل بمحض ذاته إلى الوجود وإلى الحركة. فالله هو التكون والمتكون، خالق نفسه وعلة نفسه.

أربعة هو المربع الكامل الأول، هو الدوران، الإعتدال والتناسب. هو عدد عدالة الله التي منها ينحدر علمه الكلي، فلا حكماً منصفاً إلاّ بالمعرفة المطلقة لجميع الأشياء.

خمسة هو جمال الله وانسجام صورته، جمال ليس بالعارض أو المطلق، يتنزّه عن الأمور الدنيوية ويتعالى على نفسه. إن ارتسام النجم الخماسي[1] في الدائرة يعطي «النسبة الإلهية» أي العدد الذهبي، مصدر كل جمال، نموذج جميع الكمالات الموجودة في الكون.

ستة هو الذي يرمز إلى حركة الأشياء والكون، كما يرمز إلى الزمان وإلى الأزل، وهو صفة من صفات الذات الإلهية. وإذا كانت الخمسة كمال الصورة المرتسمة في المكان، فالستة هي الكمال الدائري للديمومة. العدد ستة هو أساس النظام الإثنا عشري، الذي ينظم تعاقب الأيام والليالي، والفصول والسنين.

سبعة هو العدد المقدس، العدد الفردي الأشرف، رمز الإله غير المنقسم، إن العدد سبعة

---

(١) النجم الخماسي هو شعار الفيثاغوريين.

شأنه شأن الإله لا يتغير، لا يتحرك، لا ينقسم. لا يقبل الإضافة ولا النقصان. فيه تلتغي الأضداد، هو بمنأى عن تجابه المتقابلات منابع جميع الإضطرابات. هو السلام، هو الحب، هو النعيم. يحكم، لا يتحرك، حضوره كلي، يكتفي بذاته. هو التعبير الأسمى عن الكلية لأنه نتاج الحلف السرمدي بين الزوج والفرد، الذكورة والأنوثة[1].

ثمانية هو أول عدد تام يعبر بالأبعاد الثلاثة[2] عن الإمتداد اللانهائي لله وقوته المتخللة كل شيء المنتشرة في تلافيف النفوس وأقصى أرجاء الكون. فهو أول الأعداد المكعبة يسبر أبعاد الفضاء، لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه شيء.

تسعة هو أكثر الأعداد غموضاً هو اللغز الذي فيه يتجلى الله بكل قوته، هو رمز المانع الممتنع. يوحي بإن الله لا نهائي شفيف معا. فيه يختلط ويذوب الماضي والحاضر والمستقبل. إنه المعرفة المطلقة التي تلغي نفسها في الزمان. إن العدد تسعة يقهر سائر الأعداد ويجبّ جميع الموجودات. كل شيء يولد منه ويعود إليه لا محالة ليتلاشى فيه[3].

هكذا يكون الله في عقول البشر حاضراً أو غائبا. هو المعيار المطلق للحكم على كل شيء لا غنى عنه، وفيه كل شيء يزول. هو البداية والنهاية، هو محل إدراك المستحيل الذي يتوقه الإنسان بكل كيانه. والله هو ذلك الذي يتوارى كلما زدت منه اقتراباً واستغرقت في العبادة. وبين يقيننا بوجوده واستحالة إدراكه يتلاعب الله بنا ويتحدانا. وثقتنا العمياء اليائسة في وجوده إنما هي دعامة جميع طقوسنا وحيرتنا الكبرى.

---

(١) (١+٦) أو (٢+٥) أو (٣+٤) مما أكده «ماكروبيوس» في تعليقه.

(٢) ٢×٢×٢ = ٢^٣ (العمق × الطول × العرض).

(٣) في ذلك ما يحملنا على افتراض أن آيسترس الإليسي كان على دراية بالأرقام الهندية الأولى. فثمة قانونان أساسيان يوضحان خاصية العدد تسعة هذه، ومن غير المعروف إذا كانا قد نميا إلى علم الفيثاغوريين حتى يكتبوا هذا النص:

١ - كل حاصل ضرب تدخل التسعة في تركيبه يكون جداؤه عدداً يبلغ مجموع الأعداد التي يتركب منها تسعة. مثلا: ٩×٣×٤×٨ = ٨٦٤ : ٨+٦+٤ = ١٨ : ١+٨ = ٩.

٢ - كل مجموع تدخل فيه التسعة يسفر عن عدد لا يأخذ في الحسبان وجود التسعة في هذا المجموع/ وكأنه يتجاهله:

فمثلا سواء لدينا ٩+٥+٨+٧+٣ = ٣٢ : ٢+٣ = ٥

أو ٥+٨+٧+٣ = ٢٣ : ٢+٣ = ٥

فالنتيجة واحدة إذا حذفت التسعة من العمليات الأولى.

الوثيقة رقم ١٩

كتب هذه الرسالة المدعو هليودوروس، وهو عالم رياضيات وسفير بيزنطة، أوفد في سفارة إلى مصر للتفاوض مع خوسرو الثاني (٥٩٠ - ٦٢٨) ملك الفرس، الذي استولى على الاسكندرية عام ٦١٨ ولكنه اضطر إلى الانسحاب منها ابتداء من عام ٦٢٢ تحت ضغط الجيش البيزنطي بقيادة الامبراطور هرقل الأول. ومكث هليودوروس في الأسكندرية مدة أطول مما كان مقرراً لسفارته، ثم اختفى في ظروف ظلت غامضة بالنسبة للمقربين إليه ولكنها انكشفت لنا بفضل النص التالي، وهو نص رسالة وجهها هليودوروس إلى صديقه بوليب الذي بقي في بيزنطة وقلق لاختفائه إلى حد تنظيم تحريات لمعرفة مصيره، فجاءت هذه الرسالة شهادة قيّمة على النشاط الفكري في بعض الأوساط، لاسيما في الجمعيات الفيثاغورية القديمة التي تأثرت كثيراً بمذهب الغنوصية. ولكن ما يزيد هذه الرسالة أهمية في نظرنا أنها أول وثيقة في حوزتنا تتناول ظهور الأرقام العربية (الأرقام الغبارية) التي لاتزال تستعمل حتى اليوم مع شيء من التعديل. وقد كنا أشرنا في حاشية سابقة إلى أن نظام العدّ السائد وقتذاك كان إما العد بالحروف (ما سمي حساب الجملّ) وهو يرجع بأصوله إلى الفينيقيين، وإما نظام الأرقام المسماة بالأرقام الرومانية والتي لم تكن تستخدم في الواقع إلاّ لتدوين نتائج العمليات الحسابية المنفذة على آلة العدّاد. ولم يكن أي من النظامين يسعف في إجراء أبسط العمليات كالجمع أو الطرح.

ومعلوم أن العرب أنفسهم أخذوا هذه الأرقام عن عالمين من علماء الفلك والرياضة الهنود واستعملوها بعد تهذيب رسمها. وتبين اليوم أنهما ڤاراهاميهيرا (نحو ٥٧٥) والعالم الكبير أريابْهاتا من مدينة أتَشْماكا في أقليم الدكن الذي ألف نحو عام ٥١٠ كتاباً يحمل اسمه[١]، جمع فيه أهم عناصر نظام كان واسع الانتشار وفقاً لما جاء في نص من نصوص الديانة اليانيّة بعنوان «لوكاڤيبْهاجا» مؤرخ نحو ٤٥٠ ميلادية[٢].

ولايزال بعض المؤرخين يؤكدون أن الأرقام العربية ظهرت في الأسكندرية بُعيد كتابة هذه الرسالة (نحو ٦٢٢ - ٦٢٥). فبالإضافة إلى أن الأسقف السوري سيڤيروس سيبوكت الذي عاش في دير خناصر على ضفاف الفرات يقر ويعترف، منذ عام ٦٢٢، بوجود الأرقام التسعة الموروثة عن الهند، فان هذا الإكتشاف تناقله المسارّون في حلقات ضيّقة، كانت في الأسكندرية بالذات مغلقة وشبه سرية كما رأينا، ويعترف هليودوروس نفسه بصعوبة الاقتراب منها، ناهيك عن الانخراط فيها.

---

(١) «الأريابْهاتا» وقد كتب عنه الرياضي بْهاسكارا عام ٦٢٩ تعليقاً مشهورا.

(٢) هذه الأرقام بالسنسكريتية هي: ايكا = ١؛ دفْي = ٢؛ ترِي = ٣؛ كاتور = ٤؛ پانكا = ٥؛ سات = ٦؛ سَپْتا = ٧؛ أستا = ٨؛ ناڤا = ٩.

إلى العزيز بوليب،

تحية وسلاما،

أما بعد، فأنت تعلم أنه أتيح لي مرافقة السفارة التي أوفدها الامبراطور إلى خوسْرَو الثاني لمفاوضته في أمر انسحابه من مصر بعد هزيمته، واسترداد الصليب الحق الذي كثر حوله النزاع.

وفي طريق عودتي مررت بالاسكندرية ولمست بنفسي الخراب المذهل المنتشر في أرجاء ريفها، وشاهدت بعيني ما لحق بجميع أديرتنا في الصحراء من تهديم وتخريب. فان الجنون الذي استحوذ على ذلك الملك الساساني، ظاناً أنه باستيلائه على مصر سوف يعيد أمجاد الامبراطورية الأخمينية، لم يخلف وراءه سوى الخراب والدمار. ولكن الخطر أعظم الخطر هو أن المنطقة بأسرها تركت في حالة من الإهمال يسرّت إلى حد كبير التغلغل العربي المتدفق بلا انقطاع من جهة الشرق.

أين الأسكندرية التي طالما أطربْتَ أسماعي بطيب مفاتنها وسعة علمها! إنها باتت أثراً بعد عين. فتحت ذراعيها لجميع الأهواء، وتحولت إلى ميدان مباح تتمازج فيه أمم من كل حدب وصوب، في خليط عجيب من التجار والجواسيس وأصحاب القوافل والمرتزقة والجند الفارين والعلماء، يتقاطرون إليها من كل أنحاء الامبراطورية، بل من أقصى أقاصي الجزيرة العربية والقارة الأسيوية، وهذا ما يضع النصرانية في محنة قاسية. فالمدينة تعج بهرطقات من كل نوع، ووجدت الفرق الوثنية في هذه الفوضى الشاملة فرصاً جديدة لإفساد الأخلاق وتحويل الناس عن الإيمان الحق.

ولكن أكثر ما أدهشني، نظراً لاهتمامي بالرياضيات كما تعلم – وهنا يكمن الغرض الأول من رسالتي – أنه، في ظل تلاطم واختلاط كل هذه الأقوام التي تدافعتها الحروب، دخلت إلى بعض الأوساط المتحفظة والفرق الصوفية طريقة جديدة في الحساب وأسلوب جديد في تصوير الأعداد، أودّ أن أفاتحك بأمره استئناساً برأيك.

يقال إن هذه الأرقام الجديدة وفدت على أيدي التجار العرب، وأحدث ظهورها ثورة صغيرة حقيقية في بعض حلقات العارفين، الذين مازالوا يشكلون صفوة المفكرين في المدينة رغم اضطهادنا الطويل لهم، وانتشرت خاصة في بعض الفرق الفيثاغورية القديمة التي حافظت فيما يبدو على كامل طقوسها وممارساتها السحرية المكرسة جميعها لعبادة الأعداد، ترى فيه مبدأ الوجود.

ولم أحصل على هذه المعلومات مباشرة بطبيعة الحال بل تكبّدت مشقة كبيرة لمعرفة المزيد بسبب انتمائي لدين المسيح. ولا أخفي عليك أنهم يمقتوننا هنا، ولك أن تتصور كم دفعت من المال لاستقاء الأخبار، وكم صرفت من جهد في المقابلة والمفاضلة، لأميز بين الغث والثمين من كل ما سمعته من روايات جرت على ألسنة المشعوذين والسحرة النهمين بل والمجانين الحقيقيين. وكل ما أستطيع أن أؤكده هو أن هذه الطريقة الجديدة في تصوير

الأعداد، بأشكال خاصة بها ومستقلة تماماً، قد أرغمت الفيثاغوريين على إعادة النظر في جميع معتقداتهم، ولا يستبعد أن تكون ذات علاقاتهم مع الإله المجرّد الذي يعبدونه قد تبلبلت من جراء ذلك، إن لم تكن قد انقلبت رأساً على عقب.

ستنكر عليّ دون شك - باسم نزاهتك الفكرية المعهودة وباعتباري نصرانياً - الحق في الإهتمام بهذه الخزعبلات والهرطقات التي تمتّ إلى عهود بائدة، ولكنني مقتنع تماماً بأن في هذه التطورات الجديدة فائدة أكيدة لنا نحن معشر الفلكيين والرياضيين.

فاعلم أن الفرق الفيثاغورية دبّت فيها الحياة من جديد منذ وجدت نفسها فجأة أمام هذه الصور الجديدة التي يتجلى فيها الإله ويكشف عن نفسه على غير انتظار. فهذه الأرقام تجسدّ الأعداد المقدّسة في أشكال مميّزة تختص بها دون غيرها، فتكتسب استقلالاً وهيبة لم تعهدهما من قبل. وما لبثت هذه الفرق أن تحولت إلى مدارس لفن الخط، فاستقدمت معلمين من بلاد العرب، عهدت إليهم في سرية تامة بتلقين أفرادها المعنى الذاتي للعدد، عن طريق امتلاك رسمه. وكان غرضها من وراء هذه المعرفة تجاوزها فيما بعد إلى فهم العلاقة الحميمة المنشودة بين الانسجام الخارجي والتوازن الداخلي لهذه الصور الجديدة، وبين الصفات الإلهية المحددة التي يفترض في كل من هذه الأرقام أن تعبر عنها.

ودون أن يعبأ هؤلاء بما ينطوي عليه استعمال هذه المقادير من تيسير للحياة العملية، وما يفتحه من آفاق عريضة في مجال الرياضيات البحت، انصرف همهم بالأحرى إلى سبر العدد في أصله وذاته، أو في امتداد الحركة التي تخطه، أو في مجرد نقاء الخط الذي يرتسم فيه، لترصد ذلك المضمون المستتر وشبه المستغلق الذي يحل فيه وجه الإله الخفي ساكباً نوره في رسمه، فيسطع الرسم من الداخل متألقاً ببهاء يأخذ بألباب المسارّين.

ويتحقق بذلك حلم الفيثاغوريين القديم، ألاوهو المعرفة المباشرة والبدهية للعدد المتجلّي لهم فجأة في تمامه، ماثلاً في هيئة حية نابضة، وتنكشف لهم حقيقته في صورة - إن لم تزل غامضة - فهي في متناول من يصرف في سبيلها ما يلزم من جلد وزهد، فيتوحد مع طبيعة الإله الحقة، من خلال ممارسته لهذا الفن التخطيطي الجديد. وهم يزعمون ان اختراع الأرقام يقدم دليلاً جديداً على وجود الإله، ماثلاً في العدد، كي يضع نفسه في متناول أذهان البشر. وما العلامات التسع هذه سوى لغة يعبر بواسطتها عن جوهره دون اللجوء إلى الكلمة، وبقي عليهم أن يعثروا على قواعد هذه اللغة وتركيبها السليم.

وكأنني أسمع من هنا احتجاجك واعتراضك. فاعلم مع ذلك أن كل رقم ينطوي في رأيهم على صفة من صفات الإله الذاتية، وأن هذه الصفة لا تتبدّى فقط في قيمة العدد، وأنما تمثل أيضاً في القالب المعين الذي ينسكب فيه. وكل رقم يغدو بدوره كلاً خفياً مقدساً تتوجب عبادته في ذاته. ولكن العقل عاجز عن إدراك الله في كليته إلاّ بالمعرفة المباشرة المتزامنة للأرقام التسعة جملة، مجتمعة في صيغة لم تنكشف نسبها بعد. وهي عملية

ذهنية تبدو للوهلة الأولى مستحيلة لأن الإنسان لا يستطيع عادة أن يعقل أكثر من شيء واحد في آن واحد. وكبار المسارّين وحدهم قادرون بقوة التأمل وعزم التركيز أن يستحضروا في عقولهم مباشرة ثلاثة أرقام أو أربعة على الأكثر.

ويبدو أن عبادة الأعداد تتيح للإنسان معرفة الله من خلال مرايا الأرقام التسعة، ولكنها تجعله في نفس الوقت يلمس حدوده. وأظن أن هذه الفرق بلغت من التكبّر والغلواء حداً مفرطاً ينطوي على يأس كبير. فالأعداد تضع عقولهم أمام امتحان الجنون الحاضر دائماً والمرجأ أبدا. وفي ذلك شقاؤهم وعقابهم. فترى إلههم في آن واحد يتراءى لأفهامهم ويحتجب، يدنو منها ويبتعد، لأنه إله لا متناه شأنه شأن سلسلة الأعداد الصحيحة اللامتناهية.

الوثيقة رقم ٢٠

حق لنا أن نتساءل كيف آل هذا التقرير إلى محفوظات عبدة الصفر؟ وهو الموجَّه أصلاً في ربطة سرية إلى بوليب البيزنطي، صديق هليودروس الحميم المختفي في الأسكندرية، كما جاء في الوثيقة السابقة. وتبيّن لنا بعد التمحيص أن الاحتمال الوحيد هو أن هذه الرسالة لم تصل إلى صاحبها قط لأنها احتجزت قبل إرسالها. ولما كانت تتضمن تقريراً وضعه «جاسوس» استأجره بوليب للتحري عن مصير صديقه، فأغلب الظن أنها صودرت على شخص الجاسوس، إذ وجدت مرفقة بها نصوص أخرى هي عبارة هذه المرة عن كتابات مقدسة نقلها هذا خفية من المحفوظات، وكان يفترض أن نجد أصولها فيها. ومهما يكن من أمر فلم تبد لنا بذات أهمية كبيرة، فهي تشير إلى مختلف مراحل المسارّة - وقد سبق أن اطلعنا عليها في شكل آخر - وإلى أمور قديمة أوضح لغرضنا، مثل التتراكتيس والتتراكتيس العظيم التي وضعها فيثاغورس نفسه، وربما كيِّفت فيما بعد لذوق العصر ونشد من خلالها الكشف عن رقم الإله وصيغته العددية. بل اننا تساءلنا عما إذا كانت في الواقع مسودّة أو ملاحظات دوّنها أحد المريدين - ولعله الجاسوس نفسه - في الحلقة التعليمية السابقة لمراسم المسارّة. ونحن نجهل بطبيعة الحال كل شيء عن مصير هذا الجاسوس.

مولاي بوليب

قاضي بيزنطة

لك التحية والسلام من خادمك الأمين.

إليك تقريري عن المهمة الثالثة التي كلفتني بها للعثور على صديقك السفير هليودوروس. فبعد أن وصلت ما انقطع من أواصر قديمة مفيدة لغرض مهمتي، نجحت أخيراً في أن أقبل في الطائفة، بعد تردد وإحجام من جانبهم وعظيم مشقة من جانبي. وكان شفيعي الأول أني مواطن إغريقي أنحدر من أصل اسكندري، أم لعلني وقعت في شرك نصب لي!!

استطعت أذن أن ألمح السفير هليودوروس، ولكني امتنعت عن مخاطبته خشية إثارة الشبهات والظنون. ستصعق دون شك عندما تعلم أنه اعتنق فيما يبدو معتقداتهم وتبنّى جميع شعائرهم، وبات يعيش كأي فرد من أفراد الطائفة منصرفاً تماماً إلى عبادة الأعداد، يتردد بانتظام على أماكنهم المقدسة السرية المهيأة في المدافن القبورية في أطراف الأسكندرية. وهو يبدو في صحة جيدة ولا أظن أنه خضع لأية ضغوط. وعلمت أنه عازم على التنازل عن جميع أملاكه لك ولعائلته، وقد عدل إلى الأبد فكرة العودة إلى بيزنطة.

وبكلمة واحدة ستبدو لك بلاشك وخيمة العاقبة، فهو قد جحد نهائياً بدين المسيح، وسوف يؤدي في الأيام القليلة القادمة القسم الأعظم، الذي سيربطه إلى الأبد بهذه الجماعة ويلزمه بالسرية التامة.

وفي انتظار تعليماتك للإمتثال لرغباتك أرفق لك مع كتابي هذا عدة نصوص تسنى لي الاطلاع عليها – واعذر لي ما قد يكون ورد فيها من أخطاء لصعوبة الظروف التي نسختها فيها – وآمل أن تعطيك هذه الكتابات فكرة عن عقيدتهم وتزودك ببعض العناصر المفيدة إذا ما أردت التدخل لدى الامبراطور والبت في أمر القمع الواجب ممارسته ضدهم.

كتاب الطقوس والمسارّات
(مقتطفات)

فليدخل المريد تحت سلطان الأعداد، وينساق بقوة جذبها حتى ينتظم في فلكها ويتم الدورات اللازمة للوصول إلى معرفة حقيقتها وجوهرها.

أول خطوة على طريق المعرفة تدعو المريد إلى تعلّم الرياضيات، والامتثال لقواعد الحياة التي سنها المعلّم، وعليه أن يتأمّل في نفس الوقت عجلة الأعداد الكبرى والأرقام التسعة المنتظمة على محيطها. وعليه أن يكرر أسماءها، ويتدبّر باطن معانيها الواحد تلو الآخر، ببالغ البطء وعظيم الأناة، فما من وجه أسمى لذكر الله وأشرف من تكرار صفاته التسع.

وفي المرحلة الثانية، وبعد أن يكون المريد قد استبطن صناعة العدّ حتى أصبح صوت الأعداد منبثاً داخل كيانه، عليه أن ينكب على رسم صورها على الأرض مراراً وتكراراً، ولايزال حتى ينكشف له الرقم الكامل في هيئة حسية مرئية، هي التأليف الحي لسائر الأرقام التسعة تضمها كلها في رمز واحد.

ويعبد المريد إذاك في رسم وحيد الرقم العليّ الماثل هذه المرة في صورة خطية سرمدية غير مجزوءة. تضم جمهرة الأعداد المنتشرة في الكون جميعاً معبرة عن رمز اسم الإله.

وفي المرحلة الثالثة والأخيرة، يساير هذا الجهد التصويري تمرين ذهني يلزم المريد برسم صورة «الواحد» وسيط التأمل. وعندما يستيقن قطعاً أن هذا الرسم حاضر في ذهنه بكماله وتمامه، ينتقل إلى التصوير الخطي والتصوّر الذهني للرقم «اثنان» واستنباطه كلياً مركباً فوق «الواحد»، ثم ينتقل بنفس الوجه، ودونما فصل الواحد عن الاثنين، أو فقدان أي من خصائصهما في ذهنه، إلى تأمل الرقم «ثلاثة»، وهكذا دواليك حتى يأتي على الأرقام التسعة، ساعياً إلى حفظ تصوّره لها جميعاً مطبوعاً في ذهنه بجلاء وبصورة متزامنة. وحين يستبطن المريد الصفات التسع في كليتها يستطيع إذاك أن يطمح إلى رؤية الله ويدخل في عداد المسارّين.

التتراكتيس[1]

وجبت عبادة التتراكتيس مبدأ الوجود، فيه تتحد وتتضامّ الأعداد الأربعة الأولى[2] المولّدة للكل بأسره وكل ما يأتي بعدها من الأعداد تراكيب وتآليف منها.

فاعلم أن التتراكتيس مؤلف من مجموع أول عددين فرديين وأول عددين زوجيين وحاصلها العشرة خلاصة الوجود كله وقوام نظامنا العددي. هي المضعّف الأكبر للانهاية. وما أن يمتلك المريد الأعداد الأربعة الأولى ويؤلفها في العشرة حتى تنفتح أمامه جميع سبل المعرفة.

«الواحد» هو النقطة التي يبدأ بها كل شيء، «الاثنان» نقطتان يمتد بينهما الخط، «الثلاثة» تقاطع خطين وبداية السطح، «الأربعة» اجتماع سطحين وانفتاح على الفراغ والحجوم. بهذه الأعداد الأربعة ندرك العالم بحواسنا، وقد قال ثيون الإزميري أن التتراكتيس هو «أصل العالم المحسوس»، وأضاف هييروكليس: «التتراكتيس يضم كل الوجود ويحتويه وهو العلة الناظمة للكل»

لذلك كان التتراكتيس «وقع روح العالم ونغمه»، وإذ يوحّد المريد هذه الأرقام الأربعة بصورة الله يحق له أن يؤدي القسم الأعظم، فيربطه بأصل الأشياء ويفتح أمامه السبيل إلى أقدس المقدسات:

«لا، وحق الرباعية التي هي تدبر أنفسنا، التي هي أصل الكمال».

التتراكتيس العظيم

هو المربع الأكبر والتربيع الأكمل، يرقى بالتمام المترائي في التتراكتيس البسيط إلى اللانهاية. حاصل جمع الأوتار الأربعة الأولى والأشفاع الأربعة الأولى.[3] ستة وثلاثون العدد الأكمل، الأتم في تجانسه واستدارته، فهو مربع كامل[4] ويجتمع فيه مربعان هما بدورهما كاملين[5]. إنه جماع الشفع والوتر.

وعن طريق اتحادها وترابطها في التتراكتيس العظيم، تكشف الأعداد عن تمام صورتها وكمال معناها. والصورة الرياضية المجردة الماثلة في التتراكتيس العظيم، هي

---

(١) الرباعية.

(٢) ١+٢+٣+٤ = ١٠

(٣) ١+ ٣+ ٥+ ٧ = ١٦

٢+ ٤+ ٦+ ٨ = ٢٠

١٦+ ٢٠ = ٣٦

(٤) ٦× ٦ = ٣٦

(٥) ٤ (٢× ٢) × ٩ (٣ ×٣) = ٣٦

المحل الذي يتجلّى فيه تلاحم الأعداد اللامنقسم، ومنطقها الداخلي المنبث في دائرة يتجاوب فيها، بأبلغ انسجام، الواحد والكثرة والذات والغير، ويتضافر في لحمتها السرمدية المعنى الدالّ على جوهر الألوهية وماهية الإله.

وتتلخص في التتراكتيس العظيم الأعداد كلها، وتأتلف فيه الصيغة العددية لله. هو الرباط العددي المقدس، الذي تجتمع فيه وتتفرع منه جميع القدرات الإلهية. هو وجود الله الحي على الأرض، وغاية جميع التطلّعات، ومحل كل الممكنات، وكل ما يلمسه يتحولّ إلى صورة ذاته.

الوثيقة رقم ٢١

وهنا أيضاً ثمة ما يدعو إلى التساؤل عن مغزى وجود هذه الوثيقة في محفوظات الطائفة، ولم نجد لذلك حتى اليوم تفسيراً مرضيا. فهي عبارة عن نص بقلم إخباري عربي يدعى محسن الحبشي أو الشعبي (لم يتسن ضبط اسمه بدقة)، ترجم للخليفة عمر بن الخطاب، وادّعى أنه كان برفقة عمرو بن العاص عند فتحه لمصر. وروى أن عمروا توجه إليها على رأس أربعة آلاف رجل، وبعد أن استولى على باب اليون، وتدنّى بلا مشقة قرى الريف قرية فقرية، نزل الأسكندرية عام ٦٤١، وقال لما رآها «فتحت كبرى حواضر المغرب وهي مدينة لا أقدر أن أحصي ثرواتها وأصف محاسنها».

وتزعم هذه الوثيقة أن الجيش العربي فتح الأسكندرية بتواطؤ من بعض أهلها، ولكن أكثر ما يعنينا في هذا النص أنه يؤكد وجود ذلك الفارق الزمني الطفيف بين دخول الأرقام العربية وظهور الصفر، مع أن الأقرب إلى المنطق أن أحد الأمرين لا يستقيم دون الآخر. ولعلّه شق على بعض المحافظين من أفراد الطائفة استيعاب مفهوم الصفر، أو أن أذهانهم لم تكن مهيّأة له، فكان أن دفع الرياضي العربي حياته ثمنا لهذا الكشف إن صدقت الرواية المفجعة الواردة هنا.

ويجدر التذكير بأن العرب إنما أخذوا الصفر عن الرياضيين الهنود كما أسلفنا، وأن هؤلاء نقلوه بدورهم – وهو ما تؤكده الكشوف الحديثة – عن البابليين إبان عهد السلوقيين عن طريق ميناء بْهاروكاشا الواقع على الشاطئ الغربي لاقليم غوجارات. وفي حين لم يكن الصفر بالنسبة للبابليين سوى عنصر ميسر للعمليات الحسابية، أعطاه العلماء الهنود لأول مرة وضعه الحقيقي باعتباره «المرتبة الخالية»، بدليل أن اسمه جاء في السنسكريتية «سونيا» ومعناه «الفراغ»، وهو ما ترجمه الرياضيون العرب بكلمة «الصفر» المرادفة في لغتهم.

«بعد انتصارنا على جيوش بيزنطة في معركة هليوبوليس، فتحت أمامنا السبل إلى قلب مصر التليدة، ورحنا نعد العدة لفتح الأسكندرية. رابطنا على مقربة من أسوارها تحسباً لخرجات العدو. وأبلغنا جواسيسنا من أصحاب القوافل والتجار، المقيمين فيها منذ أمد، أن قواها الدفاعية غدت واهنة، غير أننا كنا متوجسين أمام ارتفاع أسوارها، ما بقي منها وما حصّن على عجل بعد مرور جحافل الفرس. توكلنا على الله العلي العظيم، وسألناه أن ينصرنا في مسعانا، ويسدد خطانا في الهجمات التي كنا ندبرها على أضعف مواقع تحصينات العدو، فلابد أن الله عز وجل آخذ بيدنا لفتح هذه البلاد ونشر تعاليم دينه الحنيف فيها.

وذات ليلة أخبرنا رقباؤنا المترصدون على مشارف المدينة أن وفداً من أعيان الأسكندرية خرج خلسة بقصد التفاوض معنا. وبعد تبادل السلام والتحية تحدث أحدهم

قائلا: «نحن جماعة من المصريين والرومانيين واليونان، ننحدر جميعاً من سلسلة متصلة من الرياضيين والعلماء كانت مفخرة العصور القديمة، ومعظمنا يعبد الأعداد ويؤمن أنها أصل الوجود ونماذج جميع الموجودات. وقد بلغ أسماعنا مع مرور الأيام اتساع علمكم في هذه الأمور، واستطعنا بفضل اتصالنا بأبناء جلدتكم تعلّم مبادئ استخدام الأرقام وتدبر بعض عملياتها. وأحيت هذه الطريقة الجديدة في الحساب جذوة إيماننا، ورسخت معتقداتنا السالفة، ووجدنا فيها إثباتا لتقاليد ظلت إلى ذلك الوقت مبهمة مستغلقة حتى كدنا نضرب عنها صفحاً ونعدّها باطلة بائدة.

لذلك لا يسعنا أن نعتبركم أعداء حقاً ولا نرغب قتالكم. فإن أعطيتمونا الأمان على مللنا ومعتقداتنا والتعاليم الفلسفية لمدارسنا، فتحنا لكم أبواب المدينة ليلا. فقد رأينا في نهاية الأمر أن حيادكم المستنير أحب إلينا من تعصب النصارى الذين تقوم بيننا وبينهم معارك وجولات ضارية. اضمنوا لنا حرية العبادة في الأسكندرية تدخلوها بلا قتال».

صدقوا في وعدهم ولم تمض أيام قلائل حتى كنا نسيطر على أهم أحياء المدينة رغم الفتن التي أشعلها النصارى في بعض نواحيها. أما الحامية البيزنطية التي تقلّص دورها إلى ضبط الأمن فسرعان ما كفت عن كل مقاومة. وكان الوجود العربي عامل أمن وسلام انتعشت معه الأنشطة في جميع الميادين، ومع استئناف التجارة واستتباب حامية عربية، في المدينة رحنا بدورنا ننشئ زوايا لتعليم القرآن، واثقين أن نور الإيمان الحق كفيل وحده بهداية الكفار إلى الدين الحنيف. وما لبث أن توافد العلماء والرياضيون والفلكيون على الأسكندرية فاستردت إلى حين مجدها السالف.

غير أننا خدعنا في الواقع بحسن طبائع أهل الأسكندرية، وأغوانا طيب مناخها، وكان حقيقاً بنا أن نخضعها بالحديد والنار، ونفرض عليها مشيئة الرسول عنوة منذ البداية. فقد صارت مسرحاً لأحداث دامية كادت تقضي على جهودنا وتودي بنا إلى الهزيمة. وإني لراويها بلا أدنى مواربة، وناقل وقائعها كما رواها شاهد العيان الوحيد الذي نجا منها.

انسقنا بلا روية في محاجاة بعض الرياضيين من علماء الأسكندرية المنتمين إلى إحدى الجماعات التي فاوضناها في تسليم المدينة. ودحضاً لدعواهم وسحقاً لمعتقدهم الفاسق في قدسية الأعداد، وإعلاء للدعوة المحمدية، طلبنا عون عبد العالي العشار(١)، الرياضي المرموق الذي قدم خصيصاً من دمشق لهذا الغرض.

وكان محور المسألة أصل الأعداد وصلاتها بالله. وبعد أن قبل أنصار المدعو فيثاغورس على اختلاف مذاهبهم مبدأ تنظيم مناظرة عامة فاصلة في الموضوع، زعموا بدافع من التوجس والإرتياب أن الجدال لا يستقيم ما لم يتم على قدم المساواة مع الفاتحين

---

(١) التصحيف واضح ومقصود فالاسم مختلق شأنه شأن الكثير من شخصيات الرواية وتفاصيلها.

وفرضوا لذلك شروطهم مؤكدين أنهم لن يتوانوا عن اعتناق الإسلام إن استطعنا دحض آرائهم وإظهار سوء معتقدهم. وقبل عبد العالي العشار بلا تردد شروط المناظرة يحيط به أعوانه وبضعة أنفار من الخفر.

وكانت هذه الفرق تلوذ بالمقابر القديمة، لا تكاد تخرج منها خوفاً من النصارى وتحوّطاً للمخاطر، وكان عالمها السفلي هذا ممتداً في جوف الأرض في شبكة هائلة من المتاهات لا يفلت المتهور بدخولها من موت محقق وتتحول عند الحاجة إلى معاقل محكمة منيعة.

ولم يقبل مشايخ أهم الفرق تنظيم المحاجة إلاّ في مكان معلوم لهم وحدهم يسمونه معبد الأعداد. دخل موكب عبد العالي العشر ورفاقه على ضوء المشاعل في متاهات المدفن العظيم، وعلى الرغم من العصابة التي وضعت على أعينهم، فطنوا إلى أنهم يجتازون سلسلة متصلة من الدهاليز والممرات والسلالم المتعاقبة، ومن حين لآخر ينبئهم تضخم أناشيد الكهنة وترجيع صداها على القباب بأنهم يخترقون قاعات فسيحة مبلطة رنّانة.

بلغوا أخيرا مكاناً على شيء من الأرتفاع تباطأت فيه خطى الموكب، ولما رفعت العصابات عن أعينهم ألفوا أنفسهم في معبد جنائزي واسع الأرجاء، يقسمه طولاً صفان من الأعمدة إلى بلاط أوسط ورواقين جانبيين متواجهين. وفي منتصف كل عمود ثبتت قناديل نفطية مصرية تنشر في المكان ضوءاً ساطعاً أبيض مائلاً إلى الصفرة.

راح كبار المعلمين وجماعة المريدين يحتلون أماكنهم كل حسب مرتبته، إما على أسرة احتفالية فخيمة أو على الأرض أو متكئين على الأعمدة أو وقوفاً على أعتاب الحجرات الجانبية بين التوابيت وهياكل النذور. ولم يسع العشار أن يكتم دهشته إذ رأى على الحائط في صدر البلاط الأوسط الأرقام الهندية التسعة، منقوشة في الحجر بالرسم الذي صورناها به منذ فترة وجيزة. وكانت هذه الأرقام تتلألأ في الظلام منتظمة على محيط دائرة كاملة، وتتكرر صورتها في وسط الدائرة مرتسمة هذه المرة داخل مضلّع خماسي، بدت فيه متمايزة متآلفة وقد تشابكت وتداخلت مكوِّنة شكلاً واحداً فريداً أدرك العشار أنه في اعتقادهم تعبير عن الصيغة الرياضية لإلههم. وقف مخلوب اللب أمام هذا الرمز الملغز، الساكن المتحرك معاً حركة دائمة يوحي بها تراكب عناصره وتداخل خطوه، وألفى ذهنه مشحوذاً تستحثه غزارة تركيباته، وما تستحضره في العقل من معان ودلالات لاحصر لها، يحتويها بالقوة ويبثها في النفس لمجرد وجوده. ولعله، وقد أسره سحر المكان وجوّ التعبد والخشوع المنتشر فيه، استسلم لإغواء هذه العقيدة فصرفته ولو لبرهة عن الدين الحق، واستهواه معبود يستمد سلطانه على النفوس من محض تجريده.

كان العشار واقفاً أمام تابوت ضخم من رخام أبيض تستعمله الجماعة مذبحاً لطقوسها، يستمع على مضض إلى أناشيد المرتلين وابتهالاتهم، فرأف الله سبحانه وتعالى بحاله، وقوّى فؤاده، ونفخ في قلبه نور الهدى ليلهمه كلمة الحق الكفيلة بسحق كبرياء

المشركين.

فهم العشار فجأة مصدر ذلك الإنجذاب الذي كاد يوقعه في أسره، ويكبل عقله بشبهة امتلاك سر الكون، حتى أوشك أن يصرفه عن الإيمان الحق، ويؤدي به إلى دروب التهلكة والضلال. فهم أن سر الوثاق الروحي الذي يحمل الجماعة على الالتحام حول نظام الأعداد هذا الماثل أمامه إنّما ينجم عن عيب كامن في قلب النظام، يستشعره أفرادها بغموض، فلا يسعهم إلا أن يحجبوه عن أنفسهم، ويعرضوه بالمغالاة في العبادة والطقوس. «إن نظامهم هذا ناقص باطل!» تلك هي الحقيقة التي لمعت فجأة في ذهن العشار، فأدرك أن أعضاء الفرقة يعبدون الأعداد اعتقاداً منهم بقدرتها على التعبير عن العالم أجمع وعن الله نفسه، في حين أن نظامهم هذا هو عين الغيّ والضلال، ويظل عاجزاً معطلاً ما لم يتضح في وجدانهم شيء ما، لم يفصح عن اسمه بعد، ومازال ممتنعاً عن كل تشخيص. هذا ما يفسر إصرارهم على التعامي، وراء حجب ثقيلة من الطقوس، عن ذلك الفراغ القابع في صلب المعتقد.

وإذ بالعشار وقد بهره جلاء البرهان، وسطع في نفسه نور الحق بإلهام من الله، يخلع عنه كل حذر، ويخاطب الجمهور فجأة بصوت جمهوري أسكت المرتلين وارتعد له أصحابه أنفسهم، قال:

«أشهد ألاّ اله الاّ الله وأن محمداً رسول الله. هو وحده سبحانه وتعالى القادر بأسمائه التسعة والتسعين على التأليف بين الواحد والكثير. كل شيء عنه يفيض وإليه يصير. أما والله ما أسفه معتقدكم وإنكم لفي ضلال مبين. اعلموا أن الأعداد لا شأن لها بطبيعة الله وهو عنها متنزّه رفيع. ما هي إلاّ واحدة من خلائقه وسبب من أسباب عزته وجلاله».

وهنا أكد لي مخبري وهو الناجي الوحيد من هذه الأحداث أن كلام العشار وقع على الحاضرين وقع الصاعقة، وأصابهم الذهول وهم يعودون إلى أماكنهم عند انتهاء الطقوس وكل يظن أن الأمر اختلط عليه، ثم أخذت تعلو هنا وهناك همهمة وجلبة، وراح كل يردد العبارة على جاره بصوت خفيض، كأنه يستوثق من صحة ما سمع. ولم يلبثوا أن اعتبروا ذلك إهانة مقصودة واستفزازاً متعمّداً، واضطر شيخ الجماعة إلى استعمال كل هيبته ونفوذه ليهدئ من روعهم ويفرض الصمت حتى يتمكن الخطيب من إيضاح مقاصده.

وأدرك العشار أن الفخ مطبق عليه لا محالة، وأن هذه المقبرة المشؤومة قد تصبح مثواه الأخير، غير أن ذلك لم يثنه عن مواصلة ما جاء من أجله حتى النهاية. راح يقدم الحجة بعد الحجة بمنهج صارم وحزم لا يلين، متسلحاً بكل ما اجتمع لديه من براعة البيان، ليبرهن أن من المحال استنتاج وجود الذات الإلهية من التناغم المزعوم للأعداد، فالله يتعالى عن الحلول في الأعمال الدنيوية للبشر، بل إنه ينهي عن أي تصوير لجلاله، وكل محاولة لتشخيصه، ولو بهذه الصورة التجريدية المتمثلة في أرقام متراكبة، إن هي الاّ مسخاً لطبيعته ومساساً بذاته. وعبادة الأرقام إذن زور وبهتان، بل فيها تجديف بالله

الواحد العليم ودليل على الجهالة والشرك.

كانت كل كلمة من كلماته تثير في الحضور موجات من البلبلة والهياج، فترى البعض يهب واقفاً لقذفه بالسباب والشتائم، بينما يحاول البعض دحض ادعا ءاته في اضطراب عظيم. واستطاع بعد مشقة أن يسمع صوته وسط هذه الجلبة ليدفع بحجته الأخيرة قال:

– «أراكم مُصرين في دعواكم بأن اتساق الأعداد وكمالها يقيمان الدليل على وجود الله فاستمعوا جيداً إلى ما سأقوله لكم».

وأطلق العشّار ضحكة مجلجلة، ران بعدها على الحضور صمت أشبه بصمت القبور واستأنف حديثه بصوت هادئ به رنّة انتصار، قال:

– «لشد ما يدهشني ألا أتبين في صورتكم هذه سوى تسعة أرقام لا غير، وفي هذا بالذات البرهان الأكيد على جهلكم وضلالكم. أما وقد عزمتم على الأخذ بهذا النظام الجديد، فكان حرياً بكم أن تأخذوا به في تمامه. اعلموا اذن أنه يضم من الأرقام عشرة وليس تسعة كما تدعون. فنظامكم هذا ينقصه رقم ليس بأقل الأرقام شأناً، بل هو أخطرها جميعا وفيه القضاء المبرم على عقيدتكم وكل جماعتكم. ولما كان النظام لا يكتمل إلاّ بإضافته إلى الأرقام التسعة، فلابد لكم من ضمه إليها، وعندئذ سترون أنه يمحوها ويودي بالنظام كله إلى التفكك والاضمحلال. فهذا العدد يحمل الهلاك في طياته، ويقضي بالبطلان على إله تزعمون إثبات وجوده بدليل سائر الأرقام التسعة».

«فالواقع الوحيد لهذا العدد هو أنه لا واقع له، وهو ما سأبرهنه لكم فوراً بالدليل الدامغ. إن ما نسميه الصفر، ونصوّره في شكل دائرة مفرغة أو مجرد نقطة، عنصر لازم لا غنى عنه لفعل الأرقام التسعة. ولما كنتم تعتقدون أن كلاً من هذه الأرقام يعبر عن صفة من صفات الذات الإلهية، فان الصفر يضيف إليها صفة جديدة تنخر وجودها وتفتح في صلبها حيّز فراغ ومجال نفي يقضي عليها نهائيا. وفي مسعاكم إلى إثبات وجود الله وصفاته بواسطة الأرقام فان إدماج الصفر يضيف إلى صفاته صفة الغياب وينفي عنه من ثم صفة الوجود».

هنا تقدّم العشار وسط مستمعيه المذهولين، تملؤه الثقة بقوّة حجته، وتناول مشعلاً زرعه بغتة في قلب الصورة الرمزية المفترض فيها التعبير بالأرقام المتشابكة عن ذات الإله. فانتابت الجموع رعدة خفية إزاء هذه الحركة المدنّسة لأقدس حرماتهم، ومال كبيرهم إلى جاره يهمس في أذنه ببضع كلمات غادر بعدها المكان فورا. انتابت الجمع موجة من البلبلة والاضطراب، فتراهم يهبون واقفين ثم يقعدون حائرين مرتبكين، ثم ترامت من أطراف القاعة أصوات ضجيج مخنوق، بينما جلّ الحاضرين يواصلون الاستماع وكأنهم مأخوذون بسحر البرهان القاطع الذي كان يسوقه العشار غير مبال بالضوضاء المتعاظمة حوله. وراح برباطة جأش يواصل عمله الهدّام، ويجري العمليات الحسابية الأساسية ويعاودها جميعاً مدمجاً فيها الصفر. وكان لابد من التسليم بأن إدخال هذا العدد الجديد غيّر منظور

الرياضيات، وقلبها رأساً على عقب، فاتحاً فيها باباً من اليسر والطواعية حيّر المستعمين، وإن بدا للبعض مصدر هلع عظيم. فكأن تجسيد العدم في عدد شلّ عقولهم وأصابهم بنوع من الدوار الوجداني. وبمجرد تصورّهم لعدد يلغي وجود العدد، تزعزعت يقينياتهم، وتسرّب إلى نفوسهم شك هو في نظرهم عين التجديف، وغمر نفوسهم رعب يهون أمامه الموت.

وبينما العشار ماض بلا هوادة في تقديم براهينه، قامت من وسط المعبد جماعة من المتهوّسين، صمّوا آذانهم عن حجاجه وعلت حناجرهم تطغي على صوته بالتراتيل والابتهالات إلى آلهتهم العتيقة، وأيديهم مرفوعة إلى السماء درءاً لغضبها وطلباً لرحمتها. وجاشت فجأة في النفوس بقايا الوثنية الدفينة، ودبت في الحضور هبّات من الذعر فراحوا يتصايحون، منادين بعضهم بعضا من أطراف القاعة للاطمئنان إلى وجود الرفاق، بينما يهب البعض يضبطون الإزار ويتجمعون في حلقات للتشاور وتبادل الرأي. وعم المكان هرج ومرج منقطع النظير، احتدّ بغتة عندما ابتدر الجمع من أعماق المعبد رجال مسلحون اخترقوا بحزم وقسوة صفوف الحضور، الذين مازالوا تحت هول الصدمة يتجادلون وينتقدون حجج العشار. وانتهز أحد تلاميذ العشار هذه الجلبة للتسلل واستطلاع مخارج المكان، فلاحظ باباً جانبياً متوارياً بعض الشيء إلى اليمين يفضي إلى دهليز طويل معتم. وعندما همّ بالعودة لحث معلمه على الفرار من ذلك الجانب، سمع الحاضرين يكيلون السباب للمسلمين ملوحين بقبضاتهم في وجوههم يطالبون بإعدامهم جميعا. فقد كان المسلحون قد بلغوا أولى الصفوف، واصطدموا بخفارة العشار، فهبّ هؤلاء كالرجل الواحد لحمايته بأجسادهم. ولما سمع العشار صياح تلميذه ورآه يلوح له من مدخل النفق بينما رفاقه يقعون صرعى عند قدميه انتزع المشعل من وسط الرمز الهندسي وجرى به صوب النفق.

راحا يعدوان لا يلويان على شيء، يتحسسان طريقهما اعتباطاً في متاهات القاعات والممرات، تفاجئهما أحيانا تيارات هوائية تلوي نار المشعل مهددة بإخماده. ولا يكادان يتريثان عند المفارق، يتحيران في وجهتهما، حتى يزجّ بهما تدافع أصوات المطاردين خلفهما في أول طريق كيفما اتفق، مسلّمين أمرهما لله. العشار ماض في المقدمة ينير الطريق، وتلميذه في أعقابه يتلفت بين الفينة والفينة لتقدير المسافة التي تفصلهما عن ضوء المشاعل الساعية وراءهما، أو تخمين عدد المطاردين من وقع الأقدام وأصداء قعقعة السلاح المرتدة على الأقباء.

وبعد مطاردة عنيفة انقطعت لها أنفاسهما، ظنا أنهما بلغا أخيراً بر الأمان، وإذ بهما يصطدمان بحائط ينتهي به الدهليز على غير انتظار. ولاحظا إلى الجانب الأيسر فتحة على ارتفاع بسيط من سطح الأرض تفضي إلى قناة ضيقة لا يتجاوز عرضها الذراع الواحد، فدلفا فيها بعد إطفاء المشعل، وراحا يزحفان بهمّة على مرفقيهما، وشيئاً فشيئا

أخذت تنفذ إليهما من عمق القناة نسمات رقيقة عطنة سرت على وجهيهما محملة بالرطوبة.

ولما نفذا من الطرف الآخر، فوجئا بأقدامهما تطأ درجات زلقة مبللة لسلم حر من أحد جانبيه. وقفا ملهوجين في هذا الظلام الدامس، يترامى إليهما ضجيج المطاردين، الذين دخلوا القناة بدورهم، وبات لهاثهم الأجش وتزاحم أنفاسهم يدوي في جنباتها. وهنا اختلف الرجلان، فالعشار رأي أن ينزلا السلم فوراً للمحافظة على سبقهما، بينما آثر تلميذه الصعود لمحاولة العثور على مخرج يقربهما من سطح الأرض، وربما يفضي بهما إلى الهواء الطلق. وعلى الرغم من سلامة منطق التلميذ تشبث العشار برأيه، ورفض سماع النصيحة، ولم يلبث أن غاص في الظلمات متلمساً طريقه إلى أسفل موقناً أن الفتى لاحق به.

وسرعان ما استحال على أيهما الرجوع عن رأيه. صعد التلميذ السلم متحسساً الحائط بيده إلى أن بلغ تجويفاً على شكل محراب كأنه قدّ له، فنهض إليه بقوة الساعدين وتقوقع في عمقه حابساً أنفاسه ممتنعاً عن كل حركة.

ومن ارتفاع مكمنه هذا، أرهف الفتى الحس، ولم يلبث أن سمع دربكة وسباباً، أدرك منها أن العشار انزلق على درجات السلم المكسوة بالطحالب، ثم سمعه يستعيذ بالله ويسقط في الماء. ولحسن الحظ لم يكن الماء عميقاً، إذ سمعه ينهض ويواصل طريقه، ومن صوت خبط خطوات معلمه استشفّ الفتى أنه يمشي في الطين بل ربما غمرته المياه حتى الركبتين.

وفي هذه الأثناء كان أفراد الطائفة يحاولون التملّص بدورهم من القناة والاستناد إلى درجات السلم. وسرعان ما أوقدوا المشاعل فاستطاع الفتى أن يلمح من خلال النور الذي غمر المكان شبح معلمه الواهي، وهو يحاول الابتعاد بأسرع ما يستطيع، ولكن صراخ ملاحقيه أنبأه في نفس الوقت أنهم هم أيضاً قد لمحوه.

ومع تكاثر المشاعل وسطوع ضوئها، مدّ النظر لاستطلاع المكان فألفاه واحداً من تلك الصهاريج الضخمة التي شرع في بنائها في عصر البطالمة، وبطل استعمال معظمها، وتأكد بذلك ظنه، إذ كان أقل حفيف أو همس يرتد في أرجائها مرجعاً أصداء لا تنتهي.
وانتصبت فيه غابة من العمد العملاقة في تواز محكم أضفت على البناء كله امتداداً وعمقاً عجيباً وكأنه مع اختفاء قاعه عن الأنظار يشق بطن الأرض ويغوص في أعماقها بلا قرار. ويبدو أن الصهريج شيّد في أزمنة مختلفة، إذ جاءت مقاطع سواري الأعمدة وتيجانها متمايزة الطرز متباينة الزخارف، وتعاظمت أبدانها وغلظت عند قواعدها فضاقت المسافات بينها وتقلصت حتى غدت شبه متلاصقة في أسفلها.

هبط المطاردون السلم الضيق أربعاً في أربع، وهم يتصايحون مشجعين بعضهم البعض، وأخذوا بقلب واجف يلجون الماء رافعين المشعل بيد والسيف بالأخرى. وقدّر التلميذ أن عددهم لا يتجاوز الستة أو السبعة أنفار، راحوا يتفرقون لتفحص كل ركن من

أركان الصهريج. وكانت المشاعل تضطرب في أيديهم مع اضطراب خطواتهم المتباطئة في الماء، فيرسل لهيبها ظلالاً متحركة تنتشر بغتة على صفوف الأعمدة، المستقيمة في خيالات مشوّهة مهزوزة. وقد تبدر من أحدهم حركة عارضة ترتج لها صفوف الأعمدة وتتراجع في قفزات مضطربة، كأن البناء كله يترنح فجأة ويميد. اختفى المطاردون إلاّ واحداً برز خياله متجمداً على الحجر في رسم جانبي مديد ملؤه اليقظة والتأهب لرصد أقل صوت. وسرعان ما توغلوا جميعاً في أعماق الصهريج، إلى أن بات الفتى لا يميّز سوى ومضات خاطفة تشق الظلام إليه من خلال انفراجات الأعمدة، ثم تواروا الواحد بعد الآخر وراء تزاحم سواريها المتراصة وابتلعهم الظلام.

وهناك عثروا على العشار ملتصقاً بالجدار، أعزل تغمره المياه حتى الفخذين، فأعملوا فيه سيوفهم، ولم يسمع التلميذ سوى صدى صرخته الأخيرة عندما خرّ صريعا. اعتصر الرعب قلب الفتى لفكرة الموت غريقاً في أعماق هذا الجب، وارتمى بكل جوارحه في الصلاة والدعاء. وعندما لاح الرجال من وراء الأعمدة انكمش في أعماق الكوة، يحاول أن يخمد بيديه ضربات قلبه المذعور. بلغوا فتحة القناة ورفعوا مشاعلهم لسبر أعالي السلم، ثم عدلوا بغتة عن البحث، ولعل المطاردة أنهكتهم، وشفي بلا ريب غليلهم، فراحوا يلجون النفق تباعاً وسرعان ما عاد الصهريج يغرق في ليل دامس. مكث التلميذ ساعات طويلة لا يجرؤ على الحركة، خوفاً من أن يفاجئه واحد منهم تخلف ليتربص به في طوايا الظلام. وانصرف كل ذهنه إلى جثة معلمه الطافية في مكان ما من الصهريج تحوطها هالة موحلة. ثم هدأت كل حركة وحط سكون ثقيل يقطعه نقر قطرات ترشح من قبة الصهريج، وتتساقط نغمات متفرقة عذبة يضخمها الصدى فيحفر رنينها كبد الصمت في دوائر ترتدّ وتتجاوب إلى ما لا نهاية.

وأخيرا تسلل التلميذ بحذر من مخبئه، وتسلق السلم حتى بلغ تجويفاً سدت فتحته ببلاطة، تبين له لحسن الحظ شرخ في أحد أطرافها أخذ يوسعه مستعينا بقطعة من الحجر وشق له طريقاً إلى سطح الأرض. (...)

الوثيقة رقم ٢٢

لعل القارئ، وقد أوشك على الانتهاء من مطالعة هذه المحفوظات، أدهشته ندرة النصوص التي تخص الصفر. وقد سبق القول بأن اكتشاف الصفر هو قمة الوعي بهذا العدد. وهو أمر لم يخطئه أعضاء الطائفة أنفسهم، أفلم يؤلهوا الصفر ويعبدوه؟ ثم ما لبثوا أن فطنوا أن مجرد كشف الحجاب عن الصفر يأتي على جميع امكانياته، إذ متى عرف الصفر بدا جلياً أن خصائصه الرئيسية تكمن في انعدام سمكه وشفافيته الخالصة.

ذلك ما لم يسع أصحاب المحفوظات سوى أن يقروا به، مُسَلّمين بأن من عقل الصفر أصاب الدرجة الصفرية من الفكر، وأن من تصور اللاشيء كفَّ تماماً عن تصور أي شيء.

لا غرو إذاً، أنهم في شرك التناقض الذي أدى بهم إلى حتفهم المحتوم. حتى أننا نحن أنفسنا، أثناء معالجة هذه النصوص، انتابنا شعور بتفاهة سعينا إلى أن نكون شهوداً على مشروع مصيره الإخفاق المؤكد، ومآله الإقرار باستحالة فكرة الصفر التي هي في حدّ ذاتها محل مقارنة لا نهائية. ومع إصابة الصفر والمثول أمام هذا الغياب المفاجئ للحقيقة كأن الكتاب في لحظة يميد والكتابة تتحول إلي مجرد رموز صماء.

إن المحاولة الوحيدة لتناول الصفر التي عثرنا عليها وردت في هذا المخطوط غير المؤرخ وإن كان من السهل تحديد زمن كتابته. ولاشك أن عبدة الصفر لم يستوفوا هذا النص إشارة منهم إلى عبث عملية فكرية تعثرت في متاهات افتراضاتها وآلت إلى القضاء على نفسها بنفسها.

محاولة في حدود الصفر وخصائصه

اللاشيء لا يخرج إلى الوجود إلا إذا نفى نفسه واتخذ صورة محددة، وهو ما نسميه الصفر. وانحصر همّنا في العثور له على رسم يرمز إليه ويأتي بمعناه.

سمعنا أن بعض الحسابيين حبّذوا تصوير الكمية الخالية بمساحة يتركونها شاغرة، وهو حلّ منطقي، غير أنه يتعارض مع ما قلناه ويعد مصدراً لأخطاء لا حصر لها، فكيف مثلاً الدلالة على وجود صفرين متتاليين؟

فلنحرص بادئ ذي بدء على التأكيد بأن اللاشيء حتى يكون، لابد له من رمز يدل عليه. ولا خروج للعدم إلى الوجود إلاّ بعلامة تعطيه معنى ودلالة، بشيء ما يمنحه أدنى قدر من الحقيقة، أي بشيء هو في حد ذاته نقيض له. وهما إما النقطة (بندو) أو الدائرة الخالية (سونيا).

وإذا اقتصرنا على ما للنقطة من خاصيات هندسية وجدناها مطابقة لمعناها فيجوز

بالفعل أن نحدّ النقطة بأنها تقاطع خطين مستقيمين. هذان الخطان المستقيمان لا سمك لهما على الإطلاق، لأن القول بأن الخط ذو عرض مهما صغر يحيله توا إلى مسطح. النقطة إذاً، كيان رياضي يسهل ادراكه وإن كان وهميا، ما دام يستحيل اعطائه شكلاً أو منحه بعدا.

يكفينا إذاً أن نفترض النقطة بلا مساحة وبلا بعد، حتى تطابق خصائصها خصائص «الصفر»، وهو المطلوب منها أن ترمز إليه. فالنقطة خير ترجمان لطبيعة ووظيفة عدد حقيقته أنه بلا حقيقة.

والدائرة هي الأخرى تؤدي هذا الغرض في الرمز إلى «الكمية الصفر». فالعجلة تضم في داخلها فراغاً لا خصائص له، هي شكل محض غير ذي مضمون. لها حركة دائرية بلا بداية وبلا زمان، تحدد بها وتولّد محيطاً هو أيضاً بلا غلظ، فتتملك خلاء هي منشئته وهو وحده معطيها قوامها.

النقطة والدائرة لا فرق بينهما، فكلتاهما تنزعان إلى غاية واحدة هي تصوير «العدم». من هنا يتجلى معنى عبادتنا إياه، وطبيعة تأملاتنا التي بها نرنو إليه. يُدْرَك في ملائه إلا بما ينقصه. فالكل في ذاته ينتسب للاشيء انتساباً حميماً وعليه يتوقف وجوده وإدراكنا لهذا الوجود.

وعندنا أن الأمر يختلف، فنحن نفترض أن الصفر بما يمتلكه من قدرة على أن يلغي بالتدريج كل الأعداد التي تمثل في منطقة نفوذه، وتسعى إلى الإتصال به في ظل علامة الضرب، إنما يمتلك قوة حلّ وتذويب بلغ بها الأمر أن أصابت وجود الله ذاته. ولما كان الصفر يمتلك هذه القدرة على امتصاص الموجودات الرياضية، وارجاعها إلى العدم الذي منه أتت، لنا أن نتصور أن الله لم يحتمل هذا التحدي الأزلي القائم في وجه صنعه فانساق لدوار اللاوجود واستسلم له نهائيا.

الوثيقة رقم ٢٣

إن الرواية التي مرت بنا عن مقتل عالم الرياضيات العربي عبد العالي العشار نفى البعض صحتها وذهب آخرون إلى إنكارها كل الإنكار. أما نحن فعثرنا في موضع غير هذه المحفوظات على مخطوط يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر يؤكد هذه الرواية.
والأرجح أنه ليس أصلاً وإنما استنسخ من نص قديم. وقد ذيّلت صفحاته بتوقيع كاتبها أو ناسخها ثيودول أصفوريوس، والمعروف أن ناسكاً من مواليد بيزنطة، كان يلقب بهذا الاسم، قام برحلات كثيرة إلى ايطاليا حيث انتهى بها مقامه ومات حرقاً بأمر من محكمة التفتيش. ولوضع المخطوط في سياقه التاريخي يجب أن نتذكر أنه معاصر للنهضة الثقافية التي عرفتها الدولة البيزنطية في عهد أسرة «باليولوغوس» التي استقرت في الحكم على مدى ثلاثة قرون إلى أن استولى الأتراك على القسطنطينية. ففي ظل هذه النهضة التي شاهدت ازدهار الدراسات التاريخية وإحياء مبادىء الفلسفة الأفلاطونية، التف عدد من المؤرخين حول نيسافور غريغورياس وجمسطي أفليثون، وانكبوا على دراسة ماضي الإمبراطورية البيزنطية، واهتموا بالأحداث التي تعنينا وأدت إلى سقوط مصر والأسكندرية.

أغلب الظن أن ثيودول أصفوريوس إذ عكف على دراسة تلك الحقبة بدأ يشغف بالعلوم الحسابية والرياضية، وأخذ ينقب عن أحوال الفرق الفيثاغورية الحديثة في ذلك العصر، ثم ذهب إلى أوروبا ليعرض فيها نتائج درسه وبحثه. ولم يكن أول من حاول أن يدخل إليها الأرقام العربية والصفر[1] فقد سبقه غيره إلى هذه المحاولة ومن أشهرهم جيربير الأورياكي، الذي صار فيما بعد البابا سيلفستر الثاني، ولكن التطير ظل مسيطراً على العقول آنذاك يحرم استعمال الأعداد العربية. والأرجح عندنا أن صاحبنا قَرَن دعوته الحسابية بأضغاث البدع والزندقة التي قادته إلى زنازين فلورنسا والبندقية يسام فيها ألوان التعذيب والتنكيل.

(...) غداة مقتل عالم الرياضيات العربي شاع الخبر في أرجاء المدينة وإن لم يعرف القوم شيئاً عن حقيقة ما حدث في سراديب المقابر العتيقة. فتناقلت الألسنة أغرب الحكايات، وروجت أعجب التفسيرات، وتجمع الناس في الأخطاط يعلقون على الحدث، يريدون معرفة ما استعصى على الأذهان من ملغز سره. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فزحف إلى الصدور شعور بالخطر حتى أن أجناد العرب لزموا حصونهم إن خرجوا من

---

(١) انتقل الصفر من العربية إلى أوروبا، فاشتق منه في اللاتينية «زفيروم»، ثم في الإيطالية «زفيرو»، ثم في الفرنسية «زيرو» و«شيفر» (رقم). وأول إشارة معروفة إلى الصفر ترد في «الأعمال الحسابية» التي وضعها فيليبوس كلاندري وطبعت في فرنسا عام ١٤٩١.

ثكناتهم، ففي ثلاث من الفرسان تنشر الرعب والفزع في كل مكان. ودون سبب ظاهر تصاعدت أسباب التوتر بين أهل الأسكندرية وجنود المحتلين، وصارت المدينة في قتل ونهب، وبين الحين والحين يعثر في كبد الليل، في عطفه أو في زقاق، على أفراد من هؤلاء الأجناد امتدت إليهم أيد مجهولة ضربت أعناقهم أو جزت رؤوسهم.

الواقع أن الفرق الفيثاغورية الجديدة أدركت إذاك أنها موضع خيانة وضحية مكيدة فكرية دبرها علماء العرب تقويضاً لأسس «تراثها» واستخفافاً بمعتقداتها. وانتهز الفيثاغوريون فرصة الاضطراب الحاصل لإعلاء شأن إلههم الجديد. فاستثمروا صلاتهم بأوساط المدينة من إغريق ووثنيين ليضرموا نيران الفتنة، واستعملوا نفوذهم سراً ليحيوا جذوة الثورة والتمرد ويثيروا الفوضى بين الناس. والتزم النصارى جانب الحيطة والحذر، إلا أن القلق تخلل صفوفهم لما شاعت بينهم أخبار المحاولات العربية، وخشوا أن تنقلب عليهم الأحداث بين ليلة وضحاها. وعلى غير عادة، اتفق ما تبقى من الجالية اليهودية مع شتى النصارى من هراطقة ومنشقين ومع الإغريق والروم والمصريين من الوثنيين، اتفقوا جميعاً على طرح خلافاتهم ولو لحين، وأجمعوا على طرد الغزاة. وأوفدوا الرسل إلى القسطنطينية ينبئون الامبراطور بفساد أحوالهم ويطلبون منه المعونة والمدد.

في الليل أشعلوا الحرائق في جوانب المدينة حتى تدفع الرياح بألسنة اللهب وأعمدة الدخان إلى معسكرات العرب فتجبرهم على هجر مواقعهم. وأخذ سكان المدينة تلقائياً أو بإيعاز يعدون العدة لمواجهة الفتن والإضطرابات. واستردت خطط بكاملها استقلالها، تقيم المتاريس من حولها لصد قوى الاحتلال ومنعها من الدخول. وبات صعباً على هذه القوى التي اعتادت معارك الصحراء، ولم تحكم بعد قبضتها على أخطاط المدينة، أن تحارب في شوارع ضيقة يتستر المتمردون في خبابها وأركانها ليهجموا من بين لهيب الحرائق، ومن تحت جسور المباني يقطعون عراقيب الجياد، أو ينقضون على الفرسان من فوق أسطح المنازل.

أمام هذه المقاومة الشاملة، ودخول الأسطول البيزنطي ثغر الأسكندرية، أسقط في يد العرب، فتراجعوا عن المدينة وانسحبوا في الفلاة إلى حين. وهنا استرجع أعضاء الفرق استقلالهم، وعادت إليهم الطمأنينة، ووسعهم أن يقيسوا مدى تلك الثورة الحقيقية التي هزت أركان الفكر.

أتى عبد العالي العشار بالبرهان الساطع على أن الصفر موجود رياضي بين الموجودات. فغدا القوم بإزاء عقبة كأداء، ليس بالامكان تجاهلها أو تلافيها. وفي أعقاب لحظة الغضب الأولى لم يكن لهم إلا أن يسلموا بالواقع البديهي: إن حضور هذا العدد الصفر بين سائر الأعداد ينذر بخطر تقويض أساس المبنى الفكري والديني القائم على عبادة الأعداد. بدا منذ الوهلة الأولى استحالة إدراجه في المذهب بغير مراجعة المذهب ذاته مراجعة أليمة. لم يكن بوسع أحد أن يقول إلى أي مدى يقود هذا العدد وإلى أين

يفضي؟ أفليس في المساس بلبنة واحدة من أسس البنيان ما يؤدي إلى تداعي كامل البنيان؟ إن هم ظلوا على عبادة الأعداد ثم ضموا الصفر إليها في عبادتهم أفلا ينتهي بهم الأمر إلى عبادة العدم؟

في داخل الجماعة قرر بعضهم أن يواجهوا بمفردهم هذه المسألة المستعصية عديمة الحل، دون الرجوع إلى النصوص القديمة، التي ربما حوت بعض عناصر الإجابة وساعدت على استيعاب الحدث الجلل، إلا أنها لم تعد في متناولهم بعد خراب الخزائن والمكتبات. عزموا على الاجتهاد حتى يثبتوا أن الصفر ليس بهذا المفهوم الملموس الراسخ الذي تسرع الكثيرون في قبوله دون روية. وإذ أدى بهم مسعاهم إلى بيان أن الصفر ليس إلا شذوذاً رياضياً غير عيني، ما لبثوا أن أدركوا أن طريقهم طريق مسدود لأن الإصرار على إثبات لا وجود الصفر إنما يؤدي بهم إلى تثبيته في وجوده. وسرعان ما أصبحت براهينهم حبيسة دور دائر وأسفرت جهودهم عن إثبات ما يدعون نفي وجوده، ويبدو بخاصة أنهم لم يفطنوا أن هذا المفهوم لا يردّ، فمتى بلغ حيّز الوعي تأصل فيه وأشبه الوسواس المتسلط، ولم يعد هناك حجة يمكنها أن تدحضه، أو تعود به إلى طيّ النسيان. لم يفلحوا إلاّ في رصّ جملة من المقولات الباطلة، والمغالطات السفسطائية، صارت مثار سخرية الأسكندريين يحلو لهم التفكه بها والتندر، يستعملونها للتضاحك أو تبادل المسبات.

أما الدوائر المغالية، التي انضم إليها بعض النصارى المرتدين، فاغتنمت ما ساد العقول والأذهان من بلبلة واضطراب كي توطد هيمنتها، وتعلن أن الصفر عملاً من عمل الشيطان، ورمزاً لوجود قوى الشر خية تمشي على الأرض. وأكدوا أن ظهوره في العقول في هذا الزمن إنما هو حلول عهد إبليس واستشرار قوى الجحيم، وينذر بالنائبات التي سينزلها غضب الله على العالم إيذانا باليوم الآخر.

وتحت وطأة المعتقدات العتيقة المجمدة في تراث لا يقبل التغيير، وفي مواجهة صدمة هذا الحدث المروّع آثرت بعض الفرق القضاء على نفسها واجتاحتها سورة من الجنون الانتحاري، لم يلبث أن تجاوز كل حد. ورأينا مشاهد من الانتحار الجماعي أدت بقوم إلي وأد أنفسهم أحياء بين أقبية المدافن وجدران المقابر. ورفض قوم آخرون تلك المظاهر العقيمة لليأس والقنوط، مفضلين الإنغماس في جميع أشكال الفسق وتخاليف المجون، ونشروا الرعب بين الناس حتى انقلب عليهم أهل المدينة ومجّهم الجميع.

واختارت جماعات أن تظل بعيدة عن هذه الإنحرافات، بل انزوى أعضاؤها في صمت المدافن والقبور، يقوون من صرامة مناسكهم منصرفين في عزلة تامة إلى محاولة استجلاء اللغز الرياضي الذي باغتهم وشل عقولهم. سعوا إلى اقتياف الهنة في الأساس المنطقي لهذه الحقيقة التي غيّرت تصورهم للعالم وابعدتهم عما ألفوه ودرجوا عليه. فضاعفوا من قسوة تزهدهم وتقشفهم، وزادوا من أوقات صيامهم، ولازموا دجنات الأقباء القديمة ليل نهار، فلما فشل مسعاهم وجهوا محاولاتهم إلى إدراج الصفر في نظريتهم الكونية، عاكفين

على ما تبقى عندهم من النصوص المقدسة، يعاودون قراءتها ويشبعونها درساً وتمحيصا. وكان في اعتقادهم أن الصفر، إن كان له وجود حقيقي، قديم الأعداد التسعة، فمن المنطقي أن يعثروا على أثره، أو قل على مكانه الشاغر، في هيئة تجويف وسط النظم الرياضية مهما بلغ تعقيدها، أو بين الرسائل المتعلقة بالأعداد، أو في مراسم الطقوس الموروثة من قديم الدهور. فغدا كل شيء في نظرهم ظنيناً، وشرعوا في الفحص والتمحيص على ضوء المنظور الذي توفروا عليه. عادوا إلى تفسير النصوص واحكام معانيها، وأضافوا الشروح والتصويبات، بل كتبوا مصنفات بكاملها من جديد، وأخذوا يقتفون بين السطور الوجود الخفي للكوكب الذي يبزغ في فجر الأزمان الجديدة، موقنين أنه ذو خصائص سرية وجبروت عظيم.

ولشدة ما استعملوه في عملياتهم الحسابية وطقوسهم السحرية، ولكثرة ما اتخذوه أداة لتفسير الأساطير الواردة في نصوصهم، والتي لولاه ما اتضح كنه معانيها، لم يلبثوا أن صدعوا لتعاليه وجماله الخالب الأخاذ. افتتنوا بما لآخر عدد عرفوه بين الأعداد من قوام مستغلق مجردّ، فاستهواهم أن يروا في «الصفر»، محتفظين بتسميته العربية، العدد الذهبي الحقيقي الذي هو المبدأ المفسر لكل الأشياء ومفتاح الكون.

ولأنه يقبل جميع التوافيق دون تغيّر في طبعه، ولأن قدراته «لا عدد لها»، وخصائصه تقيمه وسط جميع العمليات الحسابية في تماسك أبدي لا ترقى إليه الكمية، آمن العارفون بأنه العدد الكامل، الذي طالما أتى ذكره وفقد قديماً ولم يعثر عليه قط، بعث من جديد - بل قال بعضهم تناسخ - وبعد أن أنفقوا سني عمرهم يحاولون استخلاص ما تشعث من المعارف الرياضية المنقولة، ويجهدون في استخراج الجذر التربيعي أو التكعيبي لأعداد هي ذاتها يستحيل حسابها (مثلها مثل المعادن المكنونة في الصخور)، وجدوا في الصفر بداهة تعمي البصر بساطتها كأنها نبوءة وحي، فسرى بينهم الاعتقاد أنهم بلغوا نهاية درب المحن. ومنذئذ عبدوا في رهبة وخشوع كائناً لم يستقروا له على اسم فاتخذوا طريق المقاربات المتتالية يطلقون عليه تارة تسمية «الخلاء الأكبر» وتارة «الغائب الأعظم» أو «المجرد من كل واقع».

ها هو إذاً انشقاق آخر وقع في صفوف ما تبقى من الجماعة الفيثاغورية القديمة، بين تلك الجمهرة من الفرق الهائجة التي ظلت رغم الخلافات وأشكال التطرف مرتبطة بالمعتقد القديم، وبين أولئك الذين أطلق عليهم بطرف من القلق لقب «عبدة الصفر».

تعاظم الانشقاق من تلقائه عندما أدرك عبدة الصفر أن الطقوس التي حرصوا على صونها والحفاظ عليها أمست بالية غير ذات معنى. انتابهم شعور بضرورة إعادة النظر في جميع الطرق التي اتبعوها منذ القدم في أداء عباداتهم وإحلال طرائق جديدة محلها، وسرعان ما أدركوا أن طبيعة معبودهم لا تتطلب في الواقع أي شعائر خاصة، فالصفر في ذاته ليس مصدراً لأي تحريم ولا يقتضي أي جزاء، سوى نسيان الذات لذاتها في تأمل غير

متناه لصورة مفرغة، وفي صمت وثبات حتى فقدان الوعي، وبلوغ الذروة القصوى للتأمل. فيه تتحلل كل العقائد واليقينيات وتتجرد من جدواها ولزومها. رأى العارفون البالغون المراتب العليا أن ايمانهم به، وما يمكن أن يقيموه له من عبادات، إنما ينطوي على تناقض بين حدين، بل هو زيغ وانحراف. فحتى لقب «عبدة الصفر» الذى تلقبوا به عادوا فأنكروه.

فاندثرت الطقوس بين أعضاء الفرقة. ومع احجامهم عن اقامة الشعائر باتت عقيدتهم بلا سند ترتكز إليه وما لبثت أن فقدت كل قوامها. وإذا بطبيعة المعبود تجعلهم في غنى عن كل عبادة. غير أن تحلل إيمانهم واصرارهم على الإيغال في الدرب بعقولهم لم يتوقف عند هذا الحد، إذ أدت بهم حتمية القياس والمنطق إلى شفا نتائج هي مهالك يهوى فيها إن آجلاً أو عاجلاً عقل الإنسان عندما ينتفي الإله.

إذا التزمنا بتعليم فيثاغورس التزاماً حرفياً، من جهة أن الأعداد بانسجام وملائها تقيم الدليل على وجود الله، وتقدم الشهادة الحية على كماله، فإن مجرد تصور عدد يكون علامة لكمية صفر، وخلاء تتلاشى فيه بغتة الأعداد الأولية غير المتناهية، ويلتغي لمجرد ملمسه ويختفي أدنى قدر من الحقيقة العينية، هذا وحده يوحي أن وجود الله يصطدم في نقطة ما من الكون بعقبة ثابتة غير مرئية، بل كأنما يحدق به خطر الإشعاع المنبثق من هذا «الغياب»، أو لعل «كل الوجود» ذاته يحلم منذ الأزل بالتحلل في هذا «الغياب» والفناء في رحابه. وكان أن استنبطوا بمنطق مانع في ظاهره، وصرامة تبلغ في التصميم غايتها، أن وجود الصفر يفتح باباً إلى قوة خاوية، تتخلل الإله ذاته، لا يصمد لها ويفنى فيها - هذا على افتراض أن هذه القوة أسنحت له وجوداً.

كانت هذه الجماعات العدمية في نهاية أمرها جماعات من الملحدة، امتلكوا فجأة قوة معنوية هائلة اغتنموها ليعلنوا أن الصفر دائر سرمدي، كي ينشروا البلبلة في عقول الأهلين ويستميلوا فئات منهم إلى أفكارهم. توصلوا شيئاً فشيئاً إلى إقامة صرح تخريبي غايته تقويض أركان المعارف والأديان والمؤسسات كافة. فلجأوا إلى الأبنية الرياضية البالغة التعقيد، وإلى الخطب الحماسية والمواعظ النارية، وإلى أفعال العنف وأعمال التدمير سعياً إلى اثبات أن القدرة الكلية لهذا العدد - وهي النفي التام لكل حقيقة - إنما تؤذن بنهاية نمط التفكير التقليدي وبتحلل المجتمع القديم وموت جميع الآلهة التي ورثتها المدينة من ماض سحيق ولاتزال تتعبد إليها.

رفع أولئك المتعصبون الصفر شعاراً لكيان خفي، إدعوا أنه لا يبرز إلى الوجود إلا من خلال حركة دماره الذاتي، وأنه جوهر النفي المجرد، لا حقيقة له سوى إهلاك كل ذي حقيقة، واعتبروا هذا العدد أعلى مراتب الوعي التي أوتي للمرء بلوغها. فالصفر في نظرهم هو وجه الشمس غير الظاهر، تحلل لا أصل له ولا مصدر، إدراك مستحيل، الفكرة المطلقة من بين الأفكار كلها متى مست عقل الإنسان لا يسعه إلا أن يؤكد بطلانها فيفقد

في الساعة ذات هويته.

القوة الصفر! كيف للصفر أن يكون موجوداً وأن يكون لاشيء في آن؟ من هنا كانت ثقتهم العمياء وافتتانهم بتلك الصورة المثالية للعدم، التي اقتحمت ساحتهم بغتة، ومزقت ستاراً نسجته السنون ليحجب به الفكر فراغاً تجشأ له نفسه وتدور غثياناً لمجرد ذكره: «الوجود غير المرئي للغياب»، «مجرد طرح عدد من نفسه»، «الواقع الساحق اللامنظور والعدم» تلك هي بعض الصفات التي كان العارفون ينعتون بها الصفر في ابتهالاتهم. ومن عجيب أمرهم طريقتهم تلك في تعريف الصفر بالاستعارة قائلين «هو قبس سراج يرسل ظل وهجه إلى الحائط».

كان في اعتقادهم أن بروز الصفر في وعي زمنهم ليس حدثاً عارضاً، وإنما هو بمثابة القطيعة التي إن لم تنذر بزوال العالم فهي ماضية إلى غايتها لا محيد.

فاندفع «اشراقيو المحال» هؤلاء، يصبون جام غضبهم على كل تمثال وصورة، لا يبقون ولا يذرون. ويحكى أنهم كانوا في جنح الظلام يتجمعون في عصابات تذرع طرقات المدينة سلباً ونهبا. وكم من مرة أمسك بتلابيب نفر منهم يوثقون قواعد التماثيل بالحبال يريدون اقتلاعها، تلك التماثيل التي أقيمت للرسل والقديسين في أخطاط الأسكندرية لتحل محل الأصنام القديمة.

ويقال - وإن لم ينهض أي دليل على قولهم - إنهم أشعلوا النيران وأراقوا الدماء يقيمون وسطها احتفالات غريبة مذهلة يذبحون فيها الأطفال ويدنسون الآلهة، فبددوا بأفعالهم دهوراً من حياة الزهد والتقشف كانت موقوفة على اتباع مبادئ العدل والإنصاف، مبادئ عمّت وسادت منذ أرساها فيثاغورس قبل ألف عام. واشتهر أنهم اصطنعوا في أغوار المدافن احتفالات وطقوساً لا تعرف حدوداً للفسق والجريمة. بل انهم ضبطوا متلبسين بإضرام الحرائق في الكنائس واقتحام بيوت المواطنين يسرقون الأقوات ليقيموا ولائمهم. وإذ فاض الكيل باخوتنا النصارى، نهضت من بينهم فرق مسلحة تمنعهم من المضي في فجورهم، مصممة على وضع نهاية لجنونهم الذي تجاوز كل حد وانتشرت عدواه انتشار النار في الهشيم.

الوثيقة رقم ٢٤

دارت رحى الفتنة بين النصارى والوثنيين فسالت الدماء في الاسكندرية وانتشر الخراب في أنحائها. في هذه الأثناء سار عمرو بن العاص إلى المدينة وظفر بها قرابة عام ٦٤٥. وهناك من ينسب إليه تدمير ما كان قائماً من خزائن الكتب، في حين أن من المعروف أن الأسكندرية خلت منذ القرن السادس الميلادي من أي كتب قيمة أو مخطوطات ثمينة، والعبارة الشهيرة المنحولة لعمر بن الخطاب «... أن اطرحوها في الماء، فان يكن فيها هدى، فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالاً، فقد كفاناه الله» ربما كانت تعبيراً عن الغضب إزاء الإضطرابات الدينية التي سادت المدينة، وعن الرغبة في إعادة الأمن إليها والسيطرة على زمام الحكم فيها.

ها هي إذن الرواية التي أعلنّا عنها في المقدمة، والتي وردت في آخر مخطوط وجدناه في الجرة الرخامية، ولأنه كتب في عصر الانحطاط تجده خطّ على ورق من البردي الرديئ، تآكل وتهرأ في أكثر من موضع، وغدت قراءته في غاية الصعوبة. ويبدو أنه دوّن تحت وطأة العجلة أثناء الهجوم الذي شنه جند النصارى على المعبد الغربي الكبير مصممين على إجلاء آخر من بقي من عدة الصفر المتحصنين في القبو الجنائزي.

أمام الخطر المحدق والموقف الجلل، أنا ثيوقريتياس، المولود في أفاميا، ابن اسكليسبوس، وقد عيّنت كبير الكتاب، أتجاسر على محظوراتنا وأخط هذه السطور لأروي ما دار في مجلسنا الأخير الذي ضم جميع العارفين، واتحدت فيه كلمتنا على أن نتفرق، ربما إلى الأبد، وأن يتخذ بعضنا طريق المنفى. نحن كبار معلمي الجماعة أبناء الأسكندرية أهزلنا الحرمان وأنهكنا الاضهاد الذي تزداد وطأته يوماً بعد يوم، بات عيشنا في الأسكندرية مستحيلاً مع تصميم النصارى على سحقنا وتخريب دورنا وترويج أشنع الإشعات من حولنا وتقليب الأهالي علينا، فانتهكت حرماتنا واقتحمت بيوتنا واغتيل أبناؤنا. حاولنا مراراً أن نرد العدوان، نظمنا السرايا المسلحة تهجم في الليل لتسترد ما اغتصب من أموالنا وأملاكنا. وأصبحت هذه الغزوات تحيط بها الأخطار، وما فزنا بالنجاة حتى الساعة إلاّ لأننا احتمينا في هذا القبو العظيم المنيع، الذي غدونا نعرف كل دهليز من دهاليزه وكل ركن من أركانه. وعلى أية حال فالمدينة كلها تعاني من الصعاب، ولم يعد فيها قوت ولا زاد ولا يصلها التموين إلاّ من طريق البحر. ونحن على يقين أن جيوش العرب المتعطشة إلى الانتقام تعد العدة للإجهاز على المدينة من جديد، فلا خلاص لنا سوى الهروب والفرار. من هنا تكتسب هذه المأدبة أهميتها فهي اجتماعنا الأخير.

أملت علينا حياتنا السرية من الضرورات ما أفقدنا بالتدريج كل صلة بسائر الجماعات التي تدين بتعاليم فيثاغورس، منها من تمسك بحرفية التعاليم ومنها من انشق

عنا منذ اتخذنا قرار إدراج الصفر في مبنى نظريتنا الكونية. وعند بعضهم أن كل هذه الجماعات تختبئ مثلنا في مكان ما بمملكة الموتى، في حين يذهب قوم آخرون إلى التأكيد بأنها هلكت منذ زمن طويل. لذا فنحن واعون بأننا نحفظ ببقائنا المبادئ الحية لمذهب مقدس أجبرتنا الظروف على تعديله شيئاً يسيرا. وإني اتبعت مثال الشهيد بوليمناستوس الخلقيسي وتلميذه فيلونيدس الابن، فجمعت ونقلت كل الوثائق من مخطوطات، وقراطيس فيها ثبت لأصول الجماعة وتدوين لمعتقداتنا، حتى تصون الكتابة ذكراها وذكرانا عبر عهود الاضطراب والقلق.

بدأ إخوتنا يولمون في صمت، وسرى إليهم رويداً رويداً نوع من البهجة والمرح ولّده في صدورهم دفء الشعور بتجميع الأصدقاء والخلان. وبينما أطباق الطعام ودنان الشراب تدور بينهم، إذ بهم يتخلون عن وقارهم، وإذ بصدى أصواتهم وغنائهم يتردد تحت قباب المقبرة، التي يلمع في جوف كوتها المظلمة وميض العجلة الكبيرة التي تنتظم على دائرتها الأعداد حول ذلك المركز الخالي الذي ولّد كل شيء والذي نحن نعبد مبدأه في هيئة نقطة تسمى «الصفر».

إن هذا القبو الجنائزي العتيق الذي تحيط به حجرات لاتزال تتراكم فيها التوابيت يشعرنا بشيء من الطمأنينه. فالمنفذ الوحيد إلى هذا الملجأ الحصين يفضي إلى بئر دائرية فسيحة تنفتح عليها مسارب أخرى يرقى إليها ببضع درجات. أما مسربنا ففوهته تعلو عن الأرض بثلاثة عشر ذراعاً أو يزيد، وعلى من يريد الصعود إليه أن يتزود بالحبال والكلاليب، لأنه دون المسارب كلها ليس له درج. فمن هذا الموقع المرتفع يتناوب رفاقنا المراقبة، ويسهل علينا الدفاع ورد هجمات غريم لا يسعه أن يتقدم إلاّ سافرا. التزمنا حتى الآن من الحذر والحيطة ما جعلنا نطمس كل أثر لمرورنا، فلم تفلح القلة القليلة من النصارى، الذين لديهم معرفة بالمكان، أن يحددوا موقع مخبئنا. ولكننا نشتبه أنهم، وقد استولوا على بعض المقابر يقيمون فيها جنائزهم ويدفنون موتاهم، اغتنموها فرصة ليتربصوا بنا ويقيموا العسس يترصدون حركتنا ليل نهار. ورغم شدة احترازنا لا يمكن أن تطمئن قلوبنا تماما. لذلك عزمنا أن ننسحب من هذا المكان لئلا يحاصروننا فيه. وما احتفاظنا بالسلاح إلاّ لهذا الغرض. وإذا كنا نضاعف أسباب التيقظ والانتباه فلأن الاحتمال قليل أن يمر اجتماعنا هذا في غفلة منهم.

أمضينا اليوم طيلته في ابتهالات وتأملات، وأسلمنا مصيرنا لكلي القدرة أول الأعداد وآخرها، فالذات إذ تقبل الصفر وتقر إقراراً داخلياً حميماً بمبدئه، تقبل القطيعة في قلب الوجود ذاته، وتهيّء لحضور النقص، وتفرد في نفسها حيّزا لهذا الفضاء الخالي الذي فيه لا محالة، وبالقياس الرياضي البحت يسقط كل شيء ويهمد. إن تأمل الصفر، تلك النقطة العمياء التي لا غلظ لها ولا زمان، هو الاستعداد لاتساع الصدع الململوح بغتة في جميل تماسك الأشياء المحملة بالمادة والمعنى، وجود أصم ملح لصورة مفرغة مستترة في

أيقن اليقينيات تفتّ كل موجود تجرّه معها إلى تحللها المحتوم. إن الصفر يحدث خلاء في السلسلة غير المتناهية للأعداد الأولية، فتفقد قوامها خاصة أنها لا تتحدد إلاّ بالنسبة إلى تلك الكمية الصفر التي أحدثتها وكرست رهافتها، وعلى هذا المنوال من يأخذ الصفر في الحسبان يدخل شيئاً من الموت في نفسه، يذيقها طعم الغدم تأهبا للعودة إلى اللاشيء، نهاية كل شيء، منطقة دموس، لا تفتأ تنمو وتنتشر في الأبدان والأرواح تحتّ كل جوهر بلا حقيقتها العضال.

كنا في هذا الطور من التأمل والتدبر حين انتهت إلى أسماعنا آتية من أعماق المعبد ضربات صماء مكتومة كأنها خارجة من أحشاء الأرض، كادت لا تسمع في البداية ثم أخذت تصل إلى الآذان موزونة محددة. أرهفنا السمع فكأن هناك على مبعدة معاول تنقر في الجدار ترسل رجعها كضرب الطبول. وبدا من ايقاع الضربات المتسارع أن نفرا عدة يعملون سويا. وفي اللحظة جاءنا الرقيب المترصد على عتبة الطاقة ينبئنا أنه لمح في دهليز من الدهاليز المقابلة أضواء مشاعل تجول في كل اتجاه ثم تختفي تماما. كان أمر ما يدور في غياهب هذا العالم السفلي ونحن لا ندري عن هذا الأمر شيئا... انتصبنا واقفين متأهبين لرفع السلاح في وجه الخطر من أين جاء. حمل بعضنا المشاعل متهيئين لإيقادها ولزموا مكاناً قريباً من الرقيب وهو يسبر الظلام لا يميز شيئا. قد يكون النصارى استدلوا على موقعنا ويعدون العدة للهجوم علينا، ومن أين لهم ذلك وملجؤنا حصن منيع والمقبرة محفورة كالمغارة في الصخر. لم يخطر لنا أن يهم النصارى بحفر سرب يصل بهم إلينا حتى يأخذونا من خلف. وتستمر الضربات ويشتد وقعها بعيداً آتيا من جوف الأقباء.

أما أنا، فبعد أن حملت سلاحي، وبينما رفاقي يتجهزون في صمت، أخذت أجمع من شتى المخابئ الوثائق الثمينة، جوهر محفوظاتنا وبقايا مكتبة عتيقة طالها الخراب لآخذها وأودعها في مكان أمين إذا ما اضطررنا إلى الفرار سراعا. وكنت من قبل، وتحسبا للأمر، كلفت حرفياً يهودياً من أبناء الأسكندرية بصنع جراب جلدي أسطواني الشكل كجعبة السهام، صلب متين مطلي بطلاء دافع للماء، يسهل عليّ حمله دون أن يعوق حركتي، خصصته لخزن لفائف البردي ومختلف المخطوطات التي ما زالت في حوزتنا.

تباعدت النقرات إلى أن توقفت تماماً فحل صمت رهيب في أنحاء المقبرة. كتمنا أنفسنا وأنصتنا فإذ بطقطقة خفيفة تنبعث من جوف الأرض، كأن شيئا انساب من تحت وطأة ثقل ضخم واجتاح كل ما في طريقه. وتلاه هدير متصل يشبه الحفيف العظيم أو أصوات عدْو مطموس لأفراد جيش عرمرم يندفعون متزاحمين عبر السراديب. وبغتة أخذ الهواء يرتد إلينا تلفح وجوهنا زوبعة محملة بروائح العطن والعفن، تقتلع نيران المشاعل وتغرقنا في ليل كامل لولا صمود المسارج.

صمت مباغت ثم دوي هائل يطغى على أصواتنا فجأة، وإذ بصحابنا القابعين عند المدخل يطلقون صيحة يفخمها الفزع:

- ويحا! الماء!

اندفع في الحين من رواق في قبالتنا إعصار مياه مدوّم، ارتمى في البئر المتوسطة العظيمة المطل عليها ملجؤنا، أزبد محوّماً على الحافة الدائرية للجدار يغمر أدراج السلم شيئا فشيئا. وفي خضم الضجيج والصياح، يقرس البرد أكتافنا فجأة، وتتخلل الرطوبة أجسامنا، وينتشر في الهواء رذاذ دقيق يتحول إلى قطرات تتساقط متجمعة في برك وغدران. أهلعنا مرأى ذلك الشلال الهادر دون هوادة في البئر وأدركنا أننا سنبتلع قبل أن يتسنى لنا استعمال السلاح، وأننا هالكون كالجرذان الغارقة في قاع الجب. ذلك إذاً كان مصدر صوت النقر المكتوم: فقد انطوت حيلة النصارى على كسر قاع واحد من تلك الصهاريج القديمة التي تكثر في الإسكندرية وترجع إلى أيام تشييد المدينة نفسها. هذا الصهريج كان ولابد يستعمل في تصريف وتخزين مياه المطر أو مياه قناة تجري قريباً من المعبد لئلا تنضح وتفيض على المقابر. ولاشك أنه كان يستعمل حتى وقت غير بعيد في ريّ الحدائق العلوية التي يقال إنها كانت بساتين ظليلة ترف فيها أشجار التين والرمان وباتت اليوم قفاراً خرابا.

لا مناص إذاً إلاّ لمن يقوم بفعل يائس، يرتمي في غمار المياه ويستسلم للدوامة تعبر به إلى الجهة المقابلة، فيحاول أن يمسك بالحافة ويتمكن من التسلق إلى الدهليز في الجانب الآخر... وهو ما لم يجرؤ أحد على فعله. يخبرنا الرقيب لحظة بعد لحظة بارتفاع مستوى المياه الآتية على أدراج السلم، يجتاح طوفانها الأروقة ويخلف في الزوايا البعيدة عن التيار شتى الفضلات والنفايات، ورغوة ذات بريق يضرب إلى الخضار تطفو بحذاء الجدار فوق الأمواج السوداء المتصاعدة إلينا.

كأن انحدار المياه يخف صريره ويتناقص صبيبه. يعود إلينا الأمل. ضعف ضغط الماء وسرعان ما تباطأ انسكابه حتى بات مجرد نزّ ينسال، ثم ما لبث أن نضب تماما. كذلك مساحة المياه التي لامست مستوى رواقنا وأغرقت أقدامنا توقفت عن التدويم وصارت بلا حراك. خيّم الصمت فجأة بعد أن كنا في صخب عظيم. هل أخفقوا في ملء الصهريج أم أن الماء انساب عبر سرداب من السراديب فسوّى بين مختلف المستويات؟

كنا بدأنا، وقد أعيوا علينا المخارج، نتشاور في أفضل طرق الهرب والنجاة حين أومأ إلينا الرقيب أن انتبهوا. فاقتربنا من الفوهة، ولوهلة لم نر سوى لمعان المياه المستوية الداكنة، قبل أن يتراءى لنا في عمق السرداب المقابل المتصل بسلم البئر ضياء مشاعل لا تحصى، تحوم حولها أطياف رائحة غادية لا يعرف لحركتها مغزى. العدو أمامنا لم يتخل عن محاربتنا بل هو مصمم على استثمار تفوقه علينا. لا يتورع أولئك المسيحيون المتبجحون عن رفع المشاعل والظهور في ضوئها مسلحين بالرماح والسيوف يتحدوننا جهاراً، يطلقون صيحات وحشية، يقذعوننا بأقبح السباب والنداءات ويلوحون بأنهم حازون رقابنا. ثم يتنحون ليفسحوا الطريق لأرمات مقلفطة بالقصب والقار أنزلوها إلى الماء

ومعها قوارب مسطحة أحضروها خصيصا ولا ريب من بحيرة ماريوتيس. ركبوها دون تمهل وهموا نحونا في الحال مجدفين غير مبالين بسهامنا، التي في الواقع لا تصيبهم فرماتنا محتشدون في فم الفتحة يضيق عليهم صواب الحركة ودقة التسديد. لم يوفقوا في إغراقنا ولكنهم رفعوا مستوى المياه إلينا وظهروا على موقعنا المنيع. يتفوقون علينا في العدد ولاسيما أن مزيداً منهم يتجمعون على شفير البئر، وينزلون فيها أرماثا أخرى بينما المتقدمون منهم يطأون مدخل رواقنا يدفعوننا القهقرى بسني رماحهم.

يا لها من مذبحة هائلة استبسلت فيها الفئتان. طالت المعركة وتذبذب النصر. كثيرون منهم يتساقطون في الماء ويغرقون. يتراجع رفاقنا متعثرين على الأرض المبتلة، هذا يشجه رمح في وجهه وذاك يترنح وينهار في الممر فيعوق حركة الهارعين لنجدته. نرد الهجوم بحماس المستيئس، ولكن قلة دربتنا على السلاح وهزال أبداننا المحرومة يتغلب علينا ويعجزنا عن مواصلة المعركة نداً لند. وإذا بنا نتراجع ويقفل بنا إلى جوف السرداب. . . .

هنا أقطع الرواية، بينا صحبي يتساقطون تحت قدميّ، ولم يبق عليّ سوى اللحاق بركبهم. تكوّن هذه السطور الحلقة الأخيرة والخاتمة المفجعة لتاريخ امتد ألف عام، أوصلتنا فيه تعاليم جماعتنا إلى معرفة «الصفر» وفهمه، فأدركنا أن الثمن الثمين للوجود الإنساني يكمن في وعيه ببداهة عدمه الذاتي. إن «الصفر» ينتمي إلى الموجود لأنه غياب الموجود. إن «الصفر» هو نتيجة العملية التي بها يستقطع الموجود من وجوده. فمن أراد بلوغه يكفيه أن يدع الموت يتفتّح في نفسه، فهو الطريق الأمثل لطرح الذات من ذاتها أبدا. عسى من يقرأ هذه السطور يوماً أن يذكر أننا لم نكن ولسنا في نهاية الأمر سوى أعداد. . . .

فيما عدا الخوف من لحظة الضربة القاتلة التي ستوجّه إليّ، يظل قلبي مجرداً من أي خشية أو تردد أمام تحقيق تلك الرغبة الهائلة في العودة إلى الثقل المادي للأشياء وإلى الخلاء المطلق لكل وجود. . . .

الوثيقة رقم ٢٥

رأينا أن نختم هذه المجموعة من المحفوظات بعبارة عثرنا عليها منقوشة على شاهدة قبر مطروحة على الأرض وقت انصرافنا من المعبد، إذ وجدنا فيها خلاصة وافية للحالة النفسية التي سيطرت على عبدة الصفر في سنواتهم الأخيرة:

هنا يرقد سيفورروس،
أفنى عمره يسعى وراء صورة الصفر،
عساه يجد في الذات أو في دائر الدهر
نقطة التفريغ تلك،
لكل واقع وحقيقة،
ولما السعي أعياه
رأى في الموت بغياه.

المحتويات

مقدمة — كشف المقبرة الكبرى في الأسكندرية. وصف الأماكن واكتشاف محفوظات طائفة عبدة الصفر.

الوثيقة رقم ١ — وصف لرسم جداري يبيّن إبحار فيثاغورس إلى مصر.

الوثيقة رقم ٢ — مقتطفات من «أطلس الطرق البحرية في اليونان القديمة» الذي وضعه ستيورات كروبسن استناداً إلى ترجمة لفيلونتوس الأثيني، ووصف فيه رحلة فيثاغورس من ساموس إلى مصر ووصوله إلى نقراطيس.

الوثيقة رقم ٣ — خطاب من المؤرخ وعالم الآثار الألماني فريدريش ستيللر– هاوزر عن العلاقات بين الديانة المصرية والنظرية الفيثاغورية في الأعداد.

الوثيقة رقم ٤ — مقتطفات مترجمة إلى اليونانية من قصيدة لاتينية تعود إلى عصر شيشرو وتروي دخول فيثاغورس المفترض في الهرم الأكبر.

الوثيقة رفم ٥ — مقتطف من نص لمؤلف يهودي مجهول من القرن الثالث بعد الميلاد، يروي إقامة فيثاغورس في بابل ويبرز احتمال تأثره بالديانة العبرية في تصوره التوحيدي للعالم.

الوثيقة رقم ٦ — روايتان تشهدان بنزول فيثاغورس إلى الجحيم:
١– وصف لنقش على تابوت عثر عليه في معبد عبدة الصفر.
٢– نص منحول بعنوان «حلم فيثاغورس».

الوثيقة رقم ٧ — مقتطف من قصيدة لأستاريس الأثيني يروي رحلة فيثاغورس إلى سيباريس وقروطونية ثم استقراره في هذه المدينة.

الوثيقة رقم ٨ — بقايا «رسالة» تجمع في فصولها أهم جوانب المذهب الفيثاغوري، مقترنة بالحواشي التي أضافها عبدة الصفر إلى النسخة الأصلية.

الوثيقة رقم ٩ — نص يعتقد أنه مجتزأ من سيرة لفيثاغورس، ويروي هروب فيليبوس من سيباريس والقضاء على الفيثاغوريين في قروطونية.

الوثيقة رقم ١٠ — الخطبة الأخيرة لفيثاغورس على فراش الموت كما نقلها فيلوتاتس التراقي.

الوثيقة رقم ١١ نبذة من إحدى محاورات الأفلاطونية الجديدة، يعود عهدها إلى القرن الثالث قبل الميلاد بعنوان «أوريتوس أو في لامنطوقية جذر٢».

الوثيقة رقم ١٢ الصفحات الأخيرة من يوميات الكونت إدواردو دي كاستيليا، فيها خلاصة للحفائر التي أجراها في موقع أثري قرب تارنتا.

الوثيقة رقم ١٣ طرس يكشف نصاً مقتطفاً من جمهورية أفلاطون.

الوثيقة رقم ١٤ رثاء فيلونيدس الابن لمعلمه بوليمناستوس الخلقيسني، وكان أول من زودّ الفيثاغوريين في الأسكندرية بمحفوظات حقيقية.

الوثيقة رقم ١٥ رسالة يصف فيها اسكليبيادس لصديقه في روما عادات عبدة الشمس كما شاهدها في الأسكندرية.

الوثيقة رقم ١٦ رسالة أخرى كتبها أحد النصارى إلى أخيه العضو في اكليروس انطاكية، يصف فيها هدم السيرابيون وحريق مكتبة الأسكندرية.

الوثيقة رقم ١٧ الخطبة التي ألقاها هاربوكراس أمام جمعية أفاميا، يروي فيها مقتل هيباثيا رجماً على أيدي النصارى عام ٤١٥.

الوثيقة رقم ١٨ «الرسالة الكبرى في الأعداد وعلاقتها بالله»، بقلم آيستوس إيليس الملقب بالساحر.

الوثيقة رقم ١٩ رسالة السفير البيزنطي هليودوروس إلى صديقه بوليب عن دخول الأرقام العربية إلى الأسكندرية لأول مرة وعما أحدثته من اضطرابات.

الوثيقة رقم ٢٠ تقرير كتبه الجاسوس الذي كلفه بوليب بالبحث عن صديقه هليودوروس المختفي في الأسكندرية، ويتضمن عرضاً لنشاطات بعض الفرق السرية يتبعه مقتطفات من «كتاب الطقوس والمسارات».

الوثيقة رقم ٢١ رواية المؤرخ محسن الحبشي عن مقتل عالم الرياضيات العربي عبد العالي العشار، عندما كشف لفيثاغوريي الأسكندرية عن وجود الصفر.

الوثيقة رقم ٢٢ نبذة من نص بعنوان «محاولة في حدود الصفر وخصائصه» ألفه بعض أعضاء الفرقة من عبدة الصفر.

الوثيقة رقم ٢٣ نص لثيودول أصفوريوس الناسك البيزنطي الذي أرّخ في القرن السادس للفرق الفيثاغورية، ووصف الإرهاب الذي مارسوه في الأسكندرية بعد انسحاب العرب منها.

الوثيقة رقم ٢٤ الهجوم الذي شنه على المعبد جنود النصارى في ٦٤٥، كما روى أحداثه ثيوقريتياس الأفامي، آخر كتبة الطائفة.

الوثيقة رقم ٢٥ نص منقول من شاهدة قبر أحد أعضاء طائفة عبدة الصفر.

إصدارات شرقيات

دار لنشر الأعمال الإبداعية المتميزة
في إخراج طباعي متميز



روايات

اللجنة / صنع الله إبراهيم
وكالة عطية/ خيري شلبي
رائحة البرتقال/ محمود الورداني
وردية ليل / إبراهيم أصلان
حجارة بوبيللو / إدوار خراط
عبدة الصقر / ألان نادو (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)
مدام بوفاري / جوستاف فلوبير (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)



قصص

السرائر/ منتصر القفاش
الديوان الأخير / عبد الحكيم قاسم
أمواج الليالي / إدوار الخراط
ضوء ضعيف لا يكشف شيئا / محمد البساطي
القمر في اكتمال / نبيل نعوم



شعر

فاصلة ايقاعات النمل / محمد عفيفي مطر
فقه اللذة / حلمي سالم
لا نيل إلا النيل / حسن طلب
مطر خفيف في الخارج / إبراهيم داوود



دراسات

من أوراق الرفض والقبول / فاروق عبد القادر
مسرح الشعب / د. علي الراعي
البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث / د. سيد البحراوي



كاريكاتير

ناجي العلي في القاهرة / ناجي العلي
(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)



عيون الأدب الأجنبي
يصدر منها

- **عبَدَة الصفر**
ألان نادو
ترجمة: البستاني والبطراوي

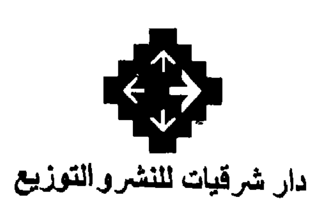
- **مدام بوفاري**
جوستاف فلوبير
ترجمة: محمد مندور

- **الكلمات**
جان بول سارتر
ترجمة: خليل صابات

- **الأحمر والأسود**
ستاندال
ترجمة: عبد الحميد الدواخلي

- **المكان**
آني إرنو
ترجمة: أمينة رشيد
وسيد البحراوي

- **كبش الفداء**
رينيه جيرار
ترجمة: هدى جمال الدين



دار شرقيات للنشر والتوزيع